

عبير

رواية

عباس مدحت البياتي

عیر

رواية حبيب

للأستاذ

عباس مدحت البياتي

2006

الإهداء.....

أهدي روايتي إلى عبير وإلى الشعب العراقي والعربي،
ولكل شريف في العالم. كنت أود تسمية الرواية
بالمهزلة، للدلالة على مهزلة الاحتلال الأمريكي للعراق،
ولكن وجدت في أسم بطله الرواية الشهيدة عبير قوة
ومغزى ودلالة أشمل وأعمق،

احداث الرواية جرت بين سنة 2002 – ومنتصف 2008



خُسِفَ الْبَدْرُ حِينَ كَانَ تَمَامَ ---

--- وَخَفِيَ نَوْرُهُ فَعَادَ ظَلَامًا

وَدَرَارِي النُّجُومِ غَارَتْ وَغَابَتْ ---

.... وَضِيَاءُ الْآفَاقِ صَارَ قَتَامًا

عنتر بن شداد

فكرة الرواية

بعد الجريمة البشعة التي قامت بها مجموعة مرتزقة من جند الاحتلال الأمريكي في بلدة المحمودية بحق الطفلة عبير وعائلتها في 12/03/2006، نشرت إحدى الصحفيات مناشدة على موقع الفيسبوك تقول بها:....

إلا من يأخذ بثأر عبير؟ ...

إلا من يطالب بقصاص الجناة؟.....

وا معتصماه وا معتصماه

إلا يوجد فيكم شريفا؟....

أين اختفت النخوة والمروءة والغيرة والرجولة التي تدعون يا عراقيون؟

تلك المناشدة هزتني، أصابت مقتلي، كنت أعرف بأن القائمين على الحكم مسلوبو الإرادة، لن يستطيعوا قتل

ذبابة، انما على الشعب المسكين كانوا هراقلة. لذا قررت أن أأخذ بثأر عبير، وذلك بفضح الجناة وتخليد جريمتهم في عيون وأذهان الشعوب.

منذ تلك اللحظة في شباط سنة 2006 بدأت رحلتي مع قصة الشهيدة بإذن الله عبير الجنابي. بت أبحث عن خطوط تفاصيل قصة عبير في مواقع النت والصحف، بحثا عن وجه الحقيقة لتكون روايتي القادمة بوجه تستحق الدلالة. تلك الفتاة البريئة التي قصتها قد ابتدأت وانتهت بصمت، فقررت أن أبقى شعلتها تضيء الحقيقة في أذهان الشرفاء والتاريخ، ولو كانت لي قدرة وسيادة لجعلت لها تمثالا في المحمودية يخلد جرم الاحتلال في عيون الشعب والتاريخ.



مقدمة

في مطلع عام 2006، كانت عبير قد أزهرت كغصنٍ يانعٍ في بستانٍ محاصرٍ بالخراب. لم تعد طفلةً تلهو بين أزقة القرية، كبرت، تغيرت ملامحها، غدت قمرًا تضيء سماء القرية، تلفت الأنظار بفتنتها، كزهرة سومر وبابل، تأبى أن تذبل، رغم قروح الزمن.

طفحت تزهو بين جدران المدرسة، وفي أروقة القرية، غدت أنشودة تصدح على ألسن الفتيّة، فيما طفق جسدها الممشوق يعلن عن بداية صراع مع العاطفة، كربيعٍ ينفلت من قبضة الشتاء، يوافق ثورة سنوات عمرها الفتى.

عبير لم تكن مجرد فتاة تعبر حاجز الصمت، بل كانت وعدًا صامتًا في جوف القرية، وقدرًا غافيا في صفحات الوطن، لا يواكب الجمال والألق والبهاء إلى المستقبل. حيث تجلّدت في ركن صبرها، مثل كل وعدٍ يصدأ في زمن الاحتلال، لم تحتمل الخوف والورس، نفضت فتنتها كشجرة خريفية، لم تقاوم واقع التغيير المر، رغم توهجها كشمعة، عصفت عليها ريح غبرة، فأطفأتها وهي لازالت برعما في بداية الحلم.

الفصل الأول

قبل شهرين من احتلال العراق
في يوم الاثنين المصادف 2003 /1/13

قبل أن يُدوّن تاريخه الجديد، وقبل أن تهتز الأرض تحت أقدام الغزاة، عاش العراق لحظات حرجة لم يعرف لها مثيل من قبل. لم تكن فكرة الاحتلال مجرد خبرٍ تناقلته الألسن والإذاعات، بل قرارٌ أٌخذ في كواليس العدو، ليُعَدَّ هدفاً قادماً لمخططاتهم. صار القرار يقترب من أسواره مع تجمع جيوش الغزاة خارج حدوده، تسبقه فرقة إعلام مدسوسة، خطوةً أخيرةً وبتيه المركب في ميدان الزمن، لا أحد يعرف شيئاً عن وجهة الصيغة القادمة.

في الثالث عشر من يناير عام 2003، احتدم الزمن في عيون سكان قرية السلام، تلوث هوائها برائحة الحزن. لم يكن ذلك لأن الموت طرق باب السيدة فريدة شهاب ليرحل بها إلى مثواها الأخير، بل لأن الجميع كانوا يدركون أن شيئاً أكبر من الفاجعة، يترصدهم خلف ستار الأيام القادمة، هجسوا بظلٍ ثقيلٍ يجب أن يفسد قبل العاصفة..

كانوا قد اجتمعوا وجهاء القرية في سقيفة العم جبار، لتأبين السيدة فريدة ومواساة ذويها، وقراءة سورة الفاتحة على روحها الطاهرة. لكن في أعماقهم كان هناك صمتٌ آخر، مثقلٌ بهاجسِ الخوف، لا يجروؤن على البوح به، تجنباً من أن يتحول لشائعة مغرضة يحاسبون عليها من قبل النظام القائم. الأخبار كانت تصلهم منقطعة كقصاصات ورق تلهو بها الريح، كوشوشاتٍ متنقلة بين الألسن: الغزو قادم، أثنان

وثلاثون دولة اتحدت تحت راية أمريكا، ستجتاح العراق
بذريعة أسلحة الدمار الشامل والتي لم تُر في العلن، حقائق لم
تُثبت في الواقع.

في تلك السقيفة حين خيّم العتمة على أرجاء القرية، لم تكن
الظلمة مجرد بداية ليل طويل، بل مقدّمةً لزمّ جديدٍ عابر عن
نفق مبهم قادم. هناك، كانت عبير لاتزال طفلة لا تدرك بعد
الغايات، تنظر إلى السماء بعين الأمل، ترى النجوم تتلاشى
تحت هباب الغيوم وهالة الأخبار المتصاعدة من المدن البعيدة
تنذر بالوبال. لم تكن تعلم أن حياتها وحياة كل أهل القرية
ستتبدّل إلى الأبد، وأن تلك الأرض التي تحت قدميها ستغدو
مسرحاً لمأساة لم تخترها.

هكذا بدأت الحكاية، وهكذا انقشعت الأيام عن صروح القرية
التي سُمّيت فيما بعد بقرية عبير تيمنا بفناتها. الأخبار كانت
تشيع بوعود بيضاء، لكنّ باطنها يتشع بظلامٍ دامس، تخفي
بخافقها دسائس وخطط لسرقة الفرحة من عيون، بنهب
خيرات وتراث الوطن، ومسح تاريخه وتدمير بنيته، كي لا
تقوم له قائمة في المستقبل القريب.

كانت الصحف والفضائيات مشغولة بصب الزيت على النار،
تؤجج الجمر تماشياً مع سخرية القدر وسخونة الأحداث، لغاية
في نفس يعقوب.

في تلك الفترة، كان العم جبار قد فطن لما يجري من حوله. لذا
في صريفته أطرق بين رفاقه طرفة، صاغاها على شكل حلمٍ

عابر، حاول أن يوصل فكرة جاشت في رأسه لشلة من أبناء قريته ألبسها ثوب الطرفة، خوفًا من أن يُفسّر كلامه بغلٍّ أو بمغالطة مغرضة من قبل البعض تؤدي به إلى الملاحقة والحساب العسير من قبل أذئاب السلطة آنذاك؛ أولئك الذين يشمون زفرة المعارضة ورائحة العصيان عن بعد، يبحثون بين المقاهي عن الزلة الزائغة ليتمسكوا بأصحابها.

كان النظام آنذاك شديدًا، حازمًا جدًا مع معارضيه، لا يرحم قط من يحاول العبث بأمن السلطة، ومن يجروا على فتح نافذةٍ مغلقة يغلق عليه نافذة عمره... كان ذلك السلوك يُعد مشيئًا، وتعديًا سافرًا على إرادة الدولة، غير مسموح به إطلاقًا.

التعبير المجازي لم يكن مسموحًا؛ حتى النسائم لا تعبر من ضفةٍ إلى أخرى إلا بأمر يجيزه النظام. فمن يضعف شأنه في عيون الناس، أو يقلل من هيئته، يعد خائنًا وعدوًا للسلطة الحاكمة. خاصةً أن النظام كان يمر بفترةٍ حرجة من عمره وعمر العراق لا يحتمل المزيد.

ولحكمته وبعد نظره، أصغى الجميع له. فقد عُرف العم جبار محبًا للطرفة والحكمة، يلوکها بين شدقيه كالعلكة، ويتداول مفرداتها في جلسات السمر متى شاء. تلك العريكة اعتاد عليها رفاقه، حتى صار بينهم مرجعًا ومنهلاً يغرفون من حوضه.

كما أن عُقد الحياة وسنوات الخبرة التي عاشها في جلسات الدواوين، أثقلت حصيلة فكره بالتجارب، عمّقت ذاكرته بالأحداث والروايات التي مر عليها، تلك التي يمثلها كالسحب

الماطرة؛ تزيده لينا وطراوة وحكمةً وفطنةً، أعطته سمةً ميزته عن أقرانه بقوة شخصيته وعمق تفكيره. إلى جانب ذلك، كان محبًا لمطالعة كتب السلف، باحثًا في مكنوناتها عمًا يزيده علمًا وفهمًا وكياسة.

أضحى واضح الشخصية للجميع بمقياس اتزانه وحصافته ودمائة خلقه وقيافته وسنين عمره وسعة اطلاعه. لذا كان رفاقه من أشد الناس إعجابًا به، يتابعونه ويصغون إلى كل ما يبدر منه في كل المناسبات، إذ كانوا يعتبرونه من دهاقنة عصره، يطلقون عليه صفة الداهية.

دائمًا ما كان يردد أخبار السلف التي استقاها من الكتب والدواوين خلال جلسات السمر، تلك التي كانت زاخرة وعامرة قبل عصر التلفاز والكمبيوتر. وبذلك، حين أشار إلى رفاقه ليصغوا إليه خلال تأبين السيدة فريدة، أصغوا إليه برغبة، لمعرفة ما يدور في خلده، وما سيبذر عليهم من بذور الثمار. كانوا يدركون أنه لا ينطق إلا وفي حديثه مغزى أو فكرة يريد ترسيخها في أذهانهم: خبر نافع، أو تحليل لأوضاع البلد، أو رؤية يغفلون عنها تزيدهم فطنة.

كان حديثه دائمًا ذا هدف وغاية مرسومة، كأنه يجمع لُقى الكلمات في خيطٍ لتنسجم مسبحة العقد، يفكك جذورها بترتيبٍ متين، تعانق فن الإلقاء الذي يجيده بتسلسل الأحداث. يتمكن من قذف فيض النور في مسامع الفريق دون عناء، فينصتون

لحديثه السلس بإصغاء وتمعن. ولهذا، كان العم جبار يُكْتَى بين رفقائه بالشيخ، أو المعلم، أو العمدة.

حيث قال لهم:.....

- حلمت ليلة أمس ببهلول، رغم أنني لم أتخيل شكله من قبل إلا من خلال الصور المعبرة عنه في الكتب والمجلات، رأيت به شكله المطلق، مطابق تماماً للصورة المعروفة عنه وهو يتجول في شوارع بغداد القديمة، رأيت به يرتدي عمامته السوداء ومريول رمادي طويل وبجامة سوداء فضفاضة، ويحتذي بقدميه حذاء الطنبوري الذي عرف به. بلباسه العام كان يود تمييز ذاته عن بقية الناس، فكان يبدو في المظهر أشبه بالهنود في عصرنا الحالي، للدلالة على هوسه وجنونه الغير طبيعي، على الرغم من أنه كان أعقل أهل زمانه وأكثرهم فطنة وذكاء..

- يا ابو صالح، هل كان علمه اكايمي أم من المتصوفين؟ سأل ذلك ثامر...

- أظن أنه يميل إلى المتصوفين لأن المدارس كانت وليدة وقليلة في عهده.....

على كل هذا بهلول تمثل لأمير المؤمنين هارون الرشيد بالرجل المجنون، لزهده الشديد، وليتجنب مجامر السلطة التي أرادت أن تكبله بتسليم دائرة القضاء، والتي لا يأمن حدود عدلها وثقلها وخطورتها؛ طالما تخضع بقراراتها إلى السلطة بحكم تدخلاتها في

إدارة القضاء بإضفاء التهم أو التسهيل والإنصاف التي تبديه ليتوافق القضاء مع رأي السلطة. دائما ما سيطول قراراته عسف ما، بسبب تدخل الحاكم أو الحاشية في إبداء الرأي. وقد تطوله شخصيا التهم جزافا بالتخاذل وعدم التعاون مع السلطة. كان في حيرة من أمره إذا ما رفض استلام القضاء وإذا لم يخضع لإدارة السلطة، أو إذا تأكدت السلطة من سر تخلفه وتهربه عن استلام مهمة القضاء.

لذا مثل دور المجنون الخرف في عين السلطة المتمثلة بهارون الرشيد، لأنه أدرك إذا ما أستلم مسؤولية دار القضاء؛ فإن السلطة ستفرض قرارها ورأيها وسلطانها عليه، أو تتدخل حسب ثقل المصلحة السلطوية، وبذلك سيتدخل قضائه الظالم والجور بحق الأبرياء، سيحكم دون عدل يرضي به وجه الله والناس من حوله، ليقنع به إرادته. هل تعرفون من هو بهلول؟

أجابوه بشكل جماعي:...

- سمعنا عنه يا أبو صالح، ونعرف القليل عن أخباره، لكن ليس لنا معرفة عميقة بشخصيته، هل لك أن توضح لنا شيئا بسيطا عنه؟ قال ذلك جواد.
- بهلول: هو أبو وهب، بهلول بن عمرو الصيرفي الهاشمي، ولد في الكوفة، كان شاعرا وحكيما وداهية من دهاة العرب في فن الحكم وإدارة الحديث

والمعارف والأدب، المرح، الضاحك، لذا بقيت الناس
تستعين به وتداول ذكره وتآلف عليه قصصها لحكمته
وبعد نظره.. مثل دور المجنون أيام هارون الرشيد
مثلما قلنا عندما ود هارون تسليمه دار القضاء، ليتجنب
خبث السلطة وتدخلاتها في محاولة تدوير مسؤولياتها،
وكي لا يكون أداة جز وظلم بين أيديهم.. فقال لهارون
الرشيد:....

- يا أمير المؤمنين؛ أتسلم القضاء لرجل مجنون أهبل.
ههههه.

أجابه هارون الرشيد مستهزئاً:....

- هههههههه، وهل المجنون يطلق على نفسه هذه الصفة
يا بهلول.

ثم أكمل العم جبار حديثه.

في الحقيقة لم يكن مجنوناً، إنما كان حكيماً.. وقد
جاءني بحكمة من حكمه في المنام، ولا أدري مدى
تطابقها مع واقعنا ومدى صحتها وبعدها عن واقعنا،
وهل ممكن أن يحدث في عصرنا هذا ما صبا إليه أم
أنها مجرد أضغاث أحلام وقلق ووساوس وتخاطر
أفكار شهق بها الذهن وانبلجت عنها الفكرة؟ ربما تلك
الخواطر أسفرت عن مردود الأفكار المتداخلة
والمترابكة في مخي، بحيث تمكنت من استخلاص
زبدتها، فوددت أن أطرقها أمامكم وأستمع لأرائكم

وتفسير اترككم لها. يا ترى؛ هل ممكن تقع هكذا أحداث؟
وعسى أن تخدمنا جميعا ونتجنب عقد الظرف الموارب
والظرف المقبل الذي نعيشه.

- تفضل يا شيخ أطرقنا لقد شوقتنا للأصغاء.... (قال ذلك
أبو سعد).

- بصراحة؛ لا أدري أن كانت هي مجرد تخاطر أفكار
راودت ذهني؟ أم رؤيا عابرة أصحتني من نومي؟ أم
عبث وجنون ما تكور في فكري فاهتزت له المشاعر
والبدن؟ كوني كنت قد قرأت الكثير عن بغداد وعزتها
أيام هارون الرشيد وقبله وبعده، وقد أكون قد تهت بين
نوادير بهلول المجنون وغريمه جحا وقصص الف ليلة
وليلة... الخ... أم نحوت نحو ثعلب الأخبار والأحاديث
للأصمعي، أم ركبت مركب الجاحظ وغيرهم ممن
اشتهرت بغداد والبصرة والكوفة بأخبار السلف؟ لكثرة
علومهم وعلمائهم ودقنتهم.

- شوقتنا لسماعك يا شيخ، جعلتنا نتحرق لمعرفة أحداث
الحلم... (ارتفع صوت ثامر متشوقا للفكرة التي يود
طرحها).

- على أية حال؛ رافقتني بهلول في الحلم ودار معي في
أزقة وشوارع بغداد وصار يسمي لي المناطق وكأنه
ساكن فيها الآن، لقد وصف لي منطقة الخشلة وسوق
الصفافير وشارع المتنبي وأبواب بغداد الأربعة وقصر
الرشيد وسطوة جمال زبيدة ومساجد بغداد العريقة
ومدرسة المستنصرية... الخ بغاية الدقة.... بصراحة؛

عشت معه عصر الرشيد أيام العز والبهاء وكنت لا أود
ان أستيقظ من ذلك الحلم البهي. لقد شعرت بفخر
واعتراز منقطع النظير لما وصلت إليه بغداد من
نهضة وعمران في حينها. ها أنا الان أشعر بحزن عن
ما كنا عليه وما وصلنا إليه من مكانة بين الدول،
جعلني أعتقد وكأنّ تلك المعالم حاضرة معنا اليوم
كحقيقة على الرغم من اندثار معظم آثارها منذ أن
عبث بها هولاء اللعين. منذ ذلك الأمد البعيد وهي
صارَت تعاني الإهمال والتصحر والجفاف والعبث
والسرقة، حيث قال لي بهلول وبلغة اليقين:....

- يا أبا صالح كنت دائماً قريباً مني، أشعر بك قد سرقت
هواجسي، مثلما سرقتُ هواجسك دون أن تدري ودون
أن نتفق، لذا أود أن أغنيك بالمحاذير قبل ان تقع عليك
دائرة السوء فتفك وتلف البلد فتهلكك وتؤثر بأهل البلد
فتلهي الجميع عن الحياة، أود أن أخبرك بما سيحيط بك
وبمجتمعك من متاعب وعقد ستدور عليك وعلى أهل
بغداد بالذات من عناء، فعليك أخذ الحيلة والحذر من
الغد القريب الآتي وبشيء من الاهتمام الغير معتاد.

فقلت له:....

- يا ستار، يا موجود، خيراً يا بهلول لقد أفرغتني، ممن
تود تحذيري، كأنك تخفي ورائك سرا كبيراً؟ هيا
أخبرني الوقت لا يسعف، الأجواء في الخارج مغبرة،
والصحف تنشر الفقايع التي تزعق بها نوايا العدو....

قال:.....

- ذاك ما أريد أن أخبرك به وأحذرك منه
- ماهو ذاك؟.....
- أود أن أشير إليك كونك صديقي من العالم البعيد،
وكونك قد أطلعت على أسفاري وأخباري الطويلة،
رغم أن بعضها حقيقة، وبعضها الآخر تلفيق ووهم
محبوك من قبل أناس ركبوا شخصيتي، وآخرون
أرادوا تقبيح صورتي، وهناك من ود أن يشتهر باسمي
بين الملأ. أفعال صيغت من قبل المنافقين والحساد بعد
موتي لغرض التشهير أو التطريف أو الحقد على
صبغة العروبة والإسلام.
- المهم ماذا معك لم أعد اسيطر على نفسي؟
- بإمعانك واطلاعتك الطويل على أسفاري؛ كأنك نقلت
إليّ هواجسك ومخاوفك عصرك دون قصد منك
وهواجس ومخاوف مجتمعتك الطيب.. كأنك تطبعت
بهواجسي وأفكاري مثلما تطبعت بأفكار عصرك
بسببك. مثلما أخذت مني ما أخذت؛ كنت قد نقلت إليّ
صوراً عنك وعن مجتمعتك من وجس وخوف عام
ومضطرب لعالمي المتسامي.. لذا سأقل لك ما أخشاه
عليكم من قدوم الغد القريب، وكما خمنت وكما هو
واضح أمامي.
- لقد ارهبتني يا بهلول نحن مجتمع مسالم، ماذا تريد أن
تقول؟.

- اريد أن أقول أنتم محاطون بوحوش، لقد وضحت لي حجم المبالغة من غل الأحداث القائمة حول بغداد، وأود أن أشير لك بشيء من علم الغيب، بأنَّ بغداد ستبقى متألئة بسحرها إلى الأبد، وستبقى لؤلؤة الشرق تشغل أفكار الناس والعالم أجمع في كل زمان. لما تحمل في عمقها من مكانة لن تقدر بثمن... ستبقى بغداد جاثمة على صدر العصور كجوهرة لا مثيل لها، لا تتأثر بالتعرية قط، لأنها بغداد الألق، ولأن الله خصها بالتميز والمكانة والسحر والموقع...

لكني أود أن أخبرك بأن هولاكو سيعود لبغداد وسيعود معه علي بابا والأربعين حرامي، سيعودون إلى بغداد عن قريب بأشكال ومآخذ ووجوه أخرى تختلف عما كانوا عليه، سيلبسون حلل السياسة والصياغة، سيحتلون البنوك والمصارف والشوارع والمخازن والسايلوهات، سيقتلون الاطفال والنساء ويعبثون في المطابخ والمساجد والمزارع وسييتاجرون بالرفيق... الخ.

أنني أخاف عليك من شرر جنوح غلهم هذه المرة، لقد عدوا أنفسهم بالعدة والعناد والعدد لينتقموا من الق بغداد، بغداد التي نازعتهم في السلم والشداد، سيعودون لها كعودتهم الأولى، لا يرحمون أحدا.....

قلت له وانا مشدوه البال:.....

- بماذا تنصحني؟....

قال:....

- نصيحتي لك أن تتجد نفسك قبل أن تُنَجَّد وتكون من العاجزين، قبل أن تكون صيدا سهلا لسهامهم، أنهم الآن أكثر قوة وتوحشا و غرابة من قبل، أضحوا في حساباتهم كيأجوج ومأجوج، لا تقف أمام تطلعاتهم حواجز قط. أنهم الآن يجتمعون ضد تطلعاتكم، يجيشون الجيوش من حولكم كالديبيب. ينبجسون من ثغور الحقد والطمع، ومن الغل القابع في ذواتهم ومن الجشع والحقد الغائر في نفوسهم. لقد حدوا أسنانهم لنشر الخوف والقسوة والجزع بين صفوفكم، أنهم يتحلون بالسفه والسفالة والهمجية والغوغائية أكثر مما جاء به المغول...

صار يحلل الوضع بشكل يحاول فيه لفت المعنيين إليه، فيما الجمع صار ينصت اليه بخشية، حتى رد عليه ثامر:....

- افزعتنا يا عم جبار، كأنَّ الاحداث التي تتكلم عنها حقيقة.

- أنا أنقل لكم الحلم وقد نأخذ من الاحداث عبرة كي نصون انفسنا وكي لا نقع فريستها إذا ما وقعت. على كل؛ على ضوء ذلك التنبيه المرعب صحت من غفوتي مرتعبا، بقيت أراجع حديثه وحيثيات الحلم مرات ومرات محاولا أن اطابقه بالواقع، محاولا تحليل مغزى حديثه وربطه بالأحداث المحيطة بنا ومعرفة

سر تواجده في حلمي في هذا الوقت العصيب من تاريخ العراق. مما جعلني في حالة يرثى لها من القلق، شاعرا برعشة وقشعريرة دائبة في أوصالي من صلب تفسيره الحالة والخشوع الذي لازمني، خوفا من أن تكون وقائع هذا الحلم حقيقة تطال مجتمعنا!!! ترى أيمكن أن يعود هولاءكو وعلي بابا إلى العراق مرة أخرى؟ هذا الذي أخشاه، خوفا من تتكرر المأساة والنكسات على بغداد، خوفا من العبث الذي ينتظرنا.

ترى؛ أيعقل أن يعود علي بابا إلى بغداد بعد قرابة ثمانمائة سنة من واقعه الأولى، لقد فسرت المسألة بشيء من الجدية.... نعم قد تعود روحه بهيئة أخرى، تتمثل لنا بالطيب والعفيف أو بالمتقي أو بهيئة مصلح أجنبي، أو برجل دين أو سياسي أو معارض أو بغاصب، أو بمنتقم، أو .. الخ.... العيون علينا وتلك الدول المنحطة لا تدعنا نعيش بحال سبيلنا، طامعة بخيراتنا التي لا نراعيها بما تستحق ولا نحصنها بضمير حي. هذا النفط القابع تحت تربتنا، صار وبالا علينا، ربما أخطائنا المتكررة هي التي تعطي للأجنبي الضوء الأخضر في غزونا، ربما تقاعسنا السبب الذي يجعل الأجنبي يطمع بنا.

ههههههه، ضحك البعض دون أن يدركوا غايته، حتى قال أحدهم للعم جبار مستهزئا:....

- يا أبو صالح كأنك تقمصت شخصية بهلول أو تقمص روحك فعلا، أو أنت الذي تقمصت روحه، أكثر ما قرأت عنه.. يا ترى؛ هل أصابك ما أصابه من جنون وهذر لتهذي أمانا، هل وصل سيل جنونه لحد اصابع قدميك؟ هههههههه. ألم يخبرك بهلول عن المجنون يحي دلي أو خالد دلي اللذان يلفان شوارع جلولاء ليل نهار؟ ماذا سيكون شأنهما في المستقبل؟ ههههههههههه.....

وقال آخر:.....

- بالله يا شيخ أسعفنا، نحن نشعر بالمتعة لأحاديثك، ترى ماذا أخبرك عن هولاءكو الجديد، ترى هل يعيش بيننا، هل هولاءكو لازال حيا؟ متى يعود من سفره؟ ههههههههههه.

رد عليهم بشيء من اللباقة والحكمة....

- يا هذا؟ أنه مجرد حلم عابر وأحببت أن أربطه بالواقع الذي نمر به وأستمع لأرائكم. أنا أعلم ان بعض الحلم عبث وهراء، وبعضه رؤيا وإحياء!! ألم يرى النبي يوسف في منامه قصة حياته مع أخوته " يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ". صدق الله العظيم. كان له تسعة أخوة ووالديه خروا اليه ساجدين حين دخلوا مصر ورأوا سلطانه..

- وهل تقارن نفسك بالنبى يوسف يا أبو صالح؟ قال ذلك جواد...

- لا لا أكيد لا أرجو ان تفهم المغزى. نحن بشر، لنا ذات الصفات والخصائص، حين ذكر الله في كتابه قصة يوسف أراد منا أخذ العبرة منها، لأننا بشر قد نمر بذات القصة. لقد أوصلني الحلم لحالة القلق، السؤال الذي بقي يدور في ذهني ويشغل تفكيرى منذ أن صحت ولغاية الآن وهو:....

لو تحققت نبوءة بهلول وهي جائزة وغير مستحيلة مع طمع الاعداء، بعد أن أودت بنا الظروف إلى الانحدار الذي وصلنا إليه، إلى شرر الحصار منذ 13 سنة والذي طاف بنا دروب العناء والشقاء، حتى وصلنا إلى حالة الهلاك والتهلكة التي عرت النفوس وقوضت مساعينا وأحلامنا بالعقد...يا ترى؛ هل سنقعد أمامه مكتوفي الأيدي؟ إلا ينبغي لنا أن نتحرك ضد تحركاته لتكون لنا ردة فعل ضد فعله الذي يود به شرا لنا؟

- يا أبا صالح لقد أدخلت في نفوسنا الجزع، كأنك تفكر بقدم هو لاكو إلى بغداد بشكل جازم... قال ذلك سعيد.

- أنا لذلك طرحت عليكم الفكرة، العدو يتربص بنا... يا ترى؛ لِمَ لا يعود هو لاكو من جديد أن كانت الأوضاع في دواخلنا قد عُجنتُ بالشك وبالخبث وزيف السلوك. ومسالكنَا عُبِدت وجيرت لتمشي عليها عجلاتهم... لم لا يعود علي بابا وهو الذي كان قد طرد منها وجرد من خيراتها، بل جرد من كل مقوماته فيما سبق.

ربما سيعود لبغداد متقمصا وجوه جديدة، لينتقم من ناسها، لأنه يدرك جيدا حجم خيرات العراق.. ولكن ماذا بقي فيه ليعود بعد وهدة الحصار الجائر الذي استمر ثلاثة عشرة سنة ولازال قائما بصيغة العبودية؟.

- أكيد أنه أفلس يا أبو صالح. ههههههه. أفلس وفكر بسرقة المخفي الذي لا نراه... ههههههه..

- صدقت، بالضبط هذا الذي أقصده، هذه هي الحقيقة التي أخاف منها أن يعود لسرقة المخفي الذي لا نراه.. لم يبق شيء في العراق ذا قيمة، لقد دمر العدو المصانع من خلال لجانه التفتيشية التي ضلت تفتش عن مقوماتنا برئاسة الخائن أبو رغال (محمد البرادعي ودعم حكومة مصر الخائنة له)، جعلونا نعتمد بحياتنا على ما تخطط أياديهم. ولم يبق سوى أن يجردوننا من المخفي الباقي بين أيادينا من قيم وعادات وافكار تخصنا، ذلك الذي لا نراه سوى في قلوبنا وعقولنا وهو اجسنا...

- يا أبو صالح ماذا تقصد؟ وما هو المخفي الذي لا نراه؟ سأل ذلك قاسم الجنابي.

- كل شيء ذا قيمه في الحياة، سعادتنا، موروثاتنا، علاقاتنا مع بعضنا، أخلاقنا، تواددنا، لبسنا، فكرنا، قيمنا، التزامنا الأخلاقي، نفطنا القبع تحت الأرض، تراثنا الزاخر، تأريخنا، ديننا، ادبنا، العلاقة بين افراد الأسرة الواحدة والمجتمع، الأعداء يتربصون بنا

وبخير اتنا كلصوص وطامعين، ونحن لا نحس بقيمة ما
تبقى بين أيدينا.

أحدهم سأل العم جبار مستهزئاً....

- ألم يخبرك عن وضع الكهرباء متى ستعود إلينا. (تلك
التي دمرتها أمريكا منذ عام 1991).

وآخر تطرق من جانبه قائلاً:....

- ألم يخبرك عن كهربائه متى ستعود لتحمينا من علي
بابا؟ ههههه. لقد نقلتنا إلى واد آخر لم نفكر به من قبل،
كلامك شبه خيال يا عم.

- أظن الكهرباء لن تعود بإرادتنا، لأن بعودتها ستعود
قدراتنا تنمو من جديد، كما أن هذه المرة عليكم أن
تفكروا بعمق أكبر. كما أظن بأن كهربانة عاجزة عن
مقاومة الشر لوحدها، يجب أن يتكاتف الجميع، أهجس
بها قد كُبلت يديها وأفكارها بقوة الأشرار، هذه المرة
هم عصابة، جماعة، محصنون في بروج شاهقة أكثر
من السابق، والأيام جارية بيننا ستوضح الكثير من
اللغط يا ابو حيدر...

- بماذا تنصحنا يا أبو صالح؟ لقد أدخلت الفرع إلى
قلوبنا.... قال ذلك مهدي والجنابي.

- قبل أن نفترق أود أن أخبركم عن قصة لطيفة فيها
حكمة وقعت بين هولاكو وعالم شاب من أهل بغداد،
فيها ما يمنعنا من الانكسار:.....

عندما دخل هولاءكو بغداد طلب أن يلتقي بعلمائها بعد أن دمر وخرب ما خرب وقتل ما قتل. حينها كانت النفوس ترتعد منه ولا تريد مقابلته كرها لمى فعل في بغداد من تخريب ودمار وخوفا من سطوته. وبعد محييص تقدم شاب أسمه "كادهان" ليلتقي به، وكان صغير السن لم تنبت لحيته بعد، كان هذا الشاب معلما في إحدى مدارس بغداد، وعندما هم بمقابلته؛ أخذ معه جملا ومعزة وديكا، ربطهم خارج مقر هولاءكو، ثم دخل عليه.

حين رآه هولاءكو أستهزأ به، فقال له:.....

- ألا يوجد غيرك يهم لمقابلتي؟؟
قال له الشاب بثقة:....
- إذا كنت تريد شخصا ضخما فهو موجود خارج المقر)
يقصد الجمل)، وإذا كنت تريد شخصا ملتحيا، أيضا
موجود خارج القصر (المعز) وإذا تريد شخصا مرتفع
الصوت موجود في الخارج (الديك).

حينها أدرك بأن المتحدث ليس رجلا عاديا، فقال له:....

- أخبرني؛ ترى ما سبب قدومي إلى بغداد؟

أجابه الشاب جوابا عميقا إذ قال له:....

- أعمالنا وذنوبنا هي من أحضرتك إلى هنا، لم نقدر نعم الله الذي أنعم بها علينا، لقد اسرفنا في المعاصي

وأخذتنا الدنيا والغرور بأنفسنا، تعلقنا بالمباهج
والأموال والأراضي ففسدت غاياتنا ونسينا نعم الله
وضعف الدين بيننا قدر انحدارنا.

سأله هولاكو مرة أخرى:.....

- قل لي؛ من يستطيع أن يطردني من بغداد؟

قال له:.....

- إذا عرفنا قيمة النعم وشكرناها ورددناها إلى الله، وإذا
ابتعدنا عن الخلافات فيما بيننا، وقتها لن نستطيع
مواجهتنا بجيشك الكبير.
حينها تركه هولاكو وصار يحاول بث الفرقة بين
المسلمين لضمان السيطرة على بغداد.
علينا أن نعرف قيمة أنفسنا في الشدائد، أن نتحد لنكسر
العدو ونجبره على التراجع، كثروا الأعداء علينا هذه
المرة ونحن لازلنا نتفرج.

قال أبو مريم وهو يهمس بأذن قاسم الجنابي:....

- والله كل كلامه حقيقة، وأنا أتوقع الأسوأ، والله العم
جبار داهية وحكيم، هو بهلول بعينه...
- أنظر لحالنا من منظر قريب، فمنذ عام 1980 ونحن
مشغولون في حروب تأتينا من الخارج، نحن في
تراجع مستمر نحو واقع أسوأ مما نحن فيه...

- كأننا نمشي إلى الوراق دون أن نتقدم خطوة واحدة للأمام، دون أن تكون هناك بادرة أمل في الأفق تعيد لنا توازننا وحيواتنا، اليوم الذي يمر علينا يكون وقعه أسوء من سابقه، والحاجات تكون أغلى مما كانت عليه في اليوم السابق، كأنَّ الغد محمل بأعباء العاقبة.
- صدقت يا أبو مريم، وأنا صرت أخاف من حديثه، لأنه نبهنا على ما لا نتوقعه، النفوس تعرت وتغيرت، واللصوص والنصابين زادوا وتنوعوا، وأنا خائف أن يصل بنا الحال إلى غدر الجار بالجار، خائف من الغد المظلم، الله يستر.

يعتبر العم جبار داهية القرية مثلما اسلفنا، حيث انه يقرأ الحدث قبل غيره، قبل أن ترمش عين الحقيقة، قبل أن يبرز الحدث إلى الواقع، وقبل أن تسطع الواقعة نتيجة الخبرة والتجربة. ومن خلال اطلاعه وتتبعه الدائم لمجريات الأحداث على ساحة الكرة الارضية، وتولعه بشغف عملية التفسير والتحليل والقراءة ومصاحبة تطورات الحدث، أنه الشغف بعينه، إذا ما أخذنا سنه السبعين وتجاربه القديمة في المطالعة وأحاديث السلف والدواوين التي يجيدها.

لذا كان يحلل الحدث ويربط خيوط العقد بما يسعى إليه الفكر ولما تسعى إليه العيون، وتلك التي يزيغ عنها عيون نظام الحكم في بغداد أو يسكتها كي يتجنب قسوته ويفل بنفسه وكي لا يوجب الوضع والحالة في نفوس الشعب.

لقد بزغت الفكرة في رأسه من خلال كم القرارات الأممية المتوالية التي أصدرتها بحق العراق دون وجه حق، تلك التي تسيطر عليها أمريكا بجبروتها. القرارات زوقت بالوان الشر، كانت قد سطرت جوانب الباطل والظلال على جسد العراق بحقد وضغينة واضحة، صبت سموم الحرد والبغض في جداوله لأضعاف قدراته وكسر شوكته.

وقد وجد من خلال اطلاعه بأن كل الطرق المتشعبة والمتفرعة مما يدور في محيط نشرات الأخبار العالمية لها غاية واحدة في حُبِّ الشر، جميعها مسيرة بشكل عام سواء تدرك ذلك أم لا تدرك، مخطط لها لتلقي الجهود في بؤرة واحدة في بغداد. العقدة التي يود العدو تفكيكها هي عقدة نظام حكم العراقي، لئلا يتسنى لها استباحة الوطن الكبير، لأنه أصبح في موقعه شوكة مؤلمة في عيون مصالح الغرب وبالذات أمريكا وبريطانيا، بسبب تجاوز النظام على مصالحهما النفطية وتهديده المستمر أمن إسرائيل.

لذا بات من الأجدر بنظر تلك اللمة، التخلص من نظام عرقل مصالحهم الاقتصادية والسياسية، بإضفاء صبغة دولية على تحركاتهم، وبمباركة شلة من الخونة وعجف دول التحالف.... تلك الأمور جعلت العم جبار يفكر في كيفية تنبيه أهل القرية بما يستقرأ في أروقة السجلات السرية لتلك الدول، وبما يحاك ضد العراق والأمة العربية جمعاء، واحتمالية وقوع المحذور منه على رؤوس الأبرياء. ربما سيودي بمستقبل البلد إلى التهلكة والهاوية...

في محاولة تنبيههم، ود زجهم في تكتلات وتجمعات صغيرة متماسكة تدافع عن نفسها، أمام هول الكارثة المتوقع حدوثها. ليحفظ لهم كرامتهم من الدنس المجهول القادم والمرء للبعض كضوء الشهاب الساقط في دماسة ليل العراق.

ذلك المجهول القابع خلف الاسوار واضح تقاسيم وجهه في مخيلة كل عراقي؛ الكل يترقب الأوضاع عن كثب كشيطان أخرس. ذلك المجهول يحاول جلد كل شخص قابع خلف حاجز الصمت بشيء من الرهبة، ينتظر إتاحة الفرصة لنث هباب سخطه على تلك التجمعات، نتيجة كم الأحداث المتعقبة فيما سبق والتي شغلت العراق وحلت على رؤوس العراقيين بالفزع. الاحداث تفرض تواجدها في ساحات الوعى كشر لابد منه، تلوف خيوط العسر على الرقاب، منذ أن نزف جسد الاقتصاد عام 1980 حتى يوم سقيفة العم جبار، والذي أشار إلى التهديد القادم والأقوى ضد قدراتهم وكياناتهم وتواجدهم.

تلك هي جزء مما عُد مسبقا من قبل أمريكا وبريطانيا في الخفاء من كوارث محتمل حدوثها مستقبلا، مثلما كان يتوقع العم جبار، والتي تبدوا في واقعها أحداث جاهزة على طبق، حيث بدأت تنهار جداريات القلعة في عيون الشعب، وهي على وشك السقوط التام. تآكلت الأسس في غمرة الأحداث المتسارعة، اختطف العناوين من بين سرب القرارات الفردية الرعناء لحاكم لم يصغي إلا لنفسه، لتمحي كل بادرة تؤدي لطرق الثناء والسعد.

لقد كان العم جبار كمن بذر حبوب الفطنة في حقول افكارهم
الجرداء، لزراعة البلادة التي يتصفون بها والسذاجة التي
يتغطون بها، والخطرة التي يتحلون بها، أملا في إيجاد
صيغة تكفل سلامتهم وسلامة ذويهم.

العم جبار اختصر المسافة بين العين والفكر لهؤلاء، جعلهم
يقرأون المشهد أفضل مما كانوا عليه، على الرغم من أن
معظمهم تجاوز الحدث دون أن يعطي أهمية جليلة لرواية
الحلم وتنبيه بهلول.





هوية عبير وأبوها وامها

ارتبطت عبير وأخويها أحمد ومحمد كبقية أطفال القرية بالعم جبار الطيب منذ نشأتهم الأولى، لما كان يديه من رعاية ومحبة لهم جميعًا. تعلقهم به جاء نتيجة انجذابه لهم وانجذابهم إليه، بعطفه ومرونته وأسلوبه السلس في سرد الحكايات المشوقة والغريبة التي كان يغدقها عليهم في أوقات الفراغ، فسَهَلَت قصصه الشجية ذلك التقارب ومحت الحواجز.

كان يخص الأطفال دائمًا بطرافة الحديث وغرائب القصص النادرة التي تشغل أذهانهم، إضافة إلى احتواء دكانه على ألعاب متنوعة وحلويات، مما يحتاجه الطفل لتنمية ذكائه ومهاراته الفنية. كما كان يبتكر لهم ألعابًا للتسلية من الموروث الشعبي، بعض الألعاب يبيعها لهم من تلك التي يجلبها من بغداد، وأخرى يصنعها بيديه، يشغلهم بها في لعب فردي أو جماعي، كتلوين الصور، وهواتف البلاستيكية، وأخرى تراثية كتقاطع الكلمات، جر الحبل، أو مطاردة اللصوص، فيجدون فيها متعة نفسية وفائدة فكرية وحركة بدنية.

أكثر ما يجذب الأطفال هو أسلوب العم جبار الشيق في طرق الفكرة، كأنه يداعب فكرهم بأنامل القصص ورقة المواقف المرنة، مستقيًا مادته من كتب السلف أو مما حفظه عن ظهر قلب من جلسات الدواوين القديمة. لطرافته وحلاوة حديثه وسلاسة قصصه وابتكاره أنواع اللعب، كان الأطفال يتهافتون إلى دكانه، خصوصًا في أمسيات الصيف والعطل، حيث

يجتمعون في الساحة أمامه للعب الجماعي وسماع قصصه الطريفة، فيتحول المكان إلى مهرجان صغير من الفرح والبهجة.

ولم يكن الأطفال وحدهم من يرتادون دكانه؛ بل كان الصغار والكبار يتجمعون حوله لقضاء حاجاتهم وقتل أوقات الفراغ، يستمعون إلى أحاديثه الشيقة في جلسات سمر تمتد حتى منتصف الليل. كان يوزع الهدايا البسيطة من بسكويت وحامض طلو ليزرع روح المنافسة بين الصغار، وفي الوقت نفسه يصرف منتجات دكانه، فيفيد ويستفيد.

صار دكانه محورًا للقرية، أشبه بمقهى شعبي أو ديوان صغير، حيث يتفنن العم جبار في إثارة الحاضرين بقصص مثيرة من الماضي، مباريات ثقافية، أو مطاردات شعرية، فيدخلهم في أجواء المرح والدعابة والتحدي. وأحيانًا ينحى بمناقشاتهم نحو السياسة وظروف الوطن، أو يشغلهم بجهاز التلفاز الذي وضعه في صريفته لنقل المباريات والأخبار والأفلام. وخلال سنوات الحصار، استغل لعبة الدمبل لجاذبيتها لتكون مادة أسبوعية يشغل بها رجالات القرية كتسلية، بينما كان يجمع ريعها لمساعدة العوائل الفقيرة العفيفة في كشط آثار الحصار من اجسادهم، مما زاد من محبته في قلوب الجميع.

لقد رص جوانب دكانه بدكة من البلوك على شكل حرف L، فرشها بالحصار والبسط اليدوية ليستقبل ضيوفه، وسقف

المكان بمظلة من القصب تقيهم حر الصيف. في المساء، ومع زقزقة العصافير وهديل الطيور بين أشجار الفواكه والنخيل، وتحت أضواء النجوم والقمر، كان أبناء القرية يتجمعون عنده للتسلية وتبادل المعرفة وتناقل الاخبار، كما يمارسون ألعابهم الشعبية كالدومينو والنرد والدامة، أو يشاهدون الأخبار، فيغدو دكانه قلب القرية نابض بالحياة.

بخبرته كان يستقطب أبناء القرية، في الوقت الذي فيه يصرف بضاعة دكانه عليهم بربح غير محسوس، حيث دكانه يقبع في مركز القرية في نقطة استقطاب يرنو إليه الجميع في أوقات فراغه، لاستراتيجية الموقع المشرف على ساحة وسطية يتجمهر بها الناس إذا ما تطلب الأمر لغاية ما.

هكذا صار الأطفال يترددون على العم جبار بشكل روتيني شبه يومي، يتبضعون من دكانه حاجاتهم من نساتل وعصائر ومشروبات غازية وحلويات وأنواع الكرز والعباب متنوعة، كالدمى وكرات اللعب ورشاشات الماء وما شابه ذلك... الخ.. يكاد معظم الأطفال يتجهون لدكانه في أوقات الصباح قبل شروع وقت المدرسة، ليتبضعوا منه ما يبتغون وهم ذاهبون لمدارسهم، وفي المساء يشغلهم بلعبة جماعية يتسلون بها قرب دكانه لسماع قصة من قصصه الطريفة....

في تلك الأوقات العصيبة من تاريخ العراق التي تشبعت برائحة الموت وأزمات العقد، فترة المقارعة والنشجات وتهديدات الحروب التي تشد ذهن الطفل إلى فكرة المقاومة

والدفاع عن الوطن، كانت مجمل الألعاب التي يجلبها هي ألعاب قتالية، فيها الكثير من العنف والمجازفة، تلك هي الرائجة في الأسواق من سيوف ومسدسات طارقة ورشاشات مائية وإشارات ضوئية، وبنادق كلاشنكوف ودبابات وعساكر وطائرات وأشكال أخرى كثيرة مصنعة من لدائن بلاستيكية وخشبية وأخرى من الأستيل.

تلك الألعاب تشد ذهن الطفل إلى واقعه المحتدم. تجعله يفكر في خوض معتركها كالتى يراها في الأفلام أو في صور المعارك التي باتت شائعة، ليشارك في تمثيل أدوارها بفرق تمثيلية تمثل فرق عصابات مجرمة متخفية تلاحقهم فرق أخرى من الشرطة، بين شعب ودهاليز القرية..... أخذت تلك الألعاب تنتشر وتدخل أمزجة الأطفال بسبب ما تحويه من فكرة وحركة لتوالي الحروب في أفلاك مخيلاتهم وفي أجواء حياتهم الحقيقية.

أحيانا يزجهم برياضات التحدي كسباق الجري لمسافة 100 متر أو سباق مارثوني يدورون به حول القرية، أو في لعب الطائرات الورقية أو في لعبة الطائرة بعد ربط شبكة الطائرة بين جذعي نخلتين قريبتين عن بعضهما بجانب دكانه، أو يقسم المجموعة لفريقين في ممارسة كرة القدم وهكذا دواليك أضحى المكان مركز استقطاب عام في القرية.

العم جبار يعتبر صاحب بقالة الأشهر في القرية؛ لما يتميز به من صفات ومرونة في التعامل والجذب التي يتقن بها، إضافة

لما يتميز به دكانه من حاجات متنوعة تخدم القرية بشكل عام. فهو بأسلوبه يكاد يسيطر على الكبار والصغار، حيث يتقن فن الألقاء والعزف الراقي في ترتيب الأحداث القصصية للباقة وحسن تعابيره السلسة وعمق ثقافته.

تلك الأمور جعلته موضع استقطاب للكبير والصغير، جعلته يفتن أذهانهم باحاديث الباطن من أخبار السلف والحديث مما تفرز الاوضاع الأنية في الوسط الثقافي من أمور عامة وتوقعات مستقبلية تمس حياتهم يطور بها ذهن السامع.

كما أنه يتميز بالوجه السمح البشوش واللحية البيضاء إضافة إلى الأسلوب الممتع، بذلك أصبح شكله مألوفاً للجميع بدشداشته الرصاصية وطاقيته التي لا تسقط من رأسه واليشماغ الملفوف على رقبته.

لانتقائه القصص الغريبة من قصص الملوك والحروب والمغامرات الشجية، وبالذات قصص ألف ليلة وليلة التي كان يستقطب بها الاطفال ليزرع في عقولهم مبادئ الخير والحكمة، رابطا الماضي بالحاضر والمستقبل، مركزا على ابطال التاريخ لحضارة وادي الرافدين والدين الاسلامي الحنيف، والخالدين في سجل التاريخ، محرزا تطوير العلم والفن والشعر والابداع في المجالات العلمية والثقافية بين الصفوف الاطفال عبر تجارب آلاف السنين من الوجود... إلى جانب كل ذلك كان قد وفر لهم مرادهم مما يستسيغون، البقعة تعتبر مرتعا جديا لأطفال القرية. كما تجده دائما ما يرتع لسانه

بالنكتة اللاذعة والطرفة المسالية، مما يجعل المستمع والمتلقي يستسيغ طرحه ويغوص معه في عمق الحديث والمجادلة، خاصة هؤلاء الأطفال المغموسون بالبراءة، يبحثون عن صيغة الفرفشة والمتعة والضحكة والطرفة اللينة في أحاديثه، ليحفظوها ويتداولونها فيما بينهم في مدارسهم ومع زملائهم... لذا تجدهم ينصتون اليه بإمعان ليحفظوها عن ظهر قلب مع طرحهم لأسئلتهم المكررة لزيادة المعرفة والمجادلة.

كانوا يتحلّقون حوله، يحوطونه بنصف دائرة، يكونوا قوساً من الهيصة والبهجة حوله، كأفراخ الحمام الجائعة ينتشون فرحاً فيما بينهم وهم يتبعون تسلسل أحداث القصة لمعرفة نهايتها، ينتظرون نقطة الانقلاب والنهاية بشغف، وبالذات تلك المفاجئات التي تتخلل الحدث والتي يتقصدها العم جبار تأخيرها لأثارته، يترقبونها بإمعان، لترسم على وجوههم الدهشة والضحكة....

كان يدرك مواقع تلك النقاط المثيرة من الأحداث، لذا تجده يعمد على تزويقها وتأجيلها قليلاً حتى يشد انتباه السامع ومن ثم يطلقها في الفضاء على حين غفلة، ليرى حجم الصدمة والاندهاش المرسوم على وجوههم مع ارتفاع أصواتهم بكركرات أو بعلامات تعجب وانبهار تثير حفيظتهم.

كانوا ينغمسون في تجاذبات الحدث بانفعالاتهم الصببانية اللاإرادية، تلك التي ترسم على وجوههم علامات براءة واستفهام دون إرادة، والتي يبعثونها خلال تصنّتهم له على

شكل طفح صوتي أو صرخة لا إرادية أو هيصّة وانبهار بوقع الحدث ووقع المفاجأة.. ذلك ما يجعله يسر بتواجدهم، مما يجعلهم يترددون عليه ويرادون دكانه بشكل دائم، وخاصة في حالة تواجدهم كمجموعة في ساحة اللعب أمام دكانه وبالذات في ليالي الصيف الهادئة.

لقد شغف العم جبار برعايتهم، سعى من خلالها إلى بناء ذهن الطفل وتهنيئته للمستقبل، تلك الهواية التي ولع بها منذ أن كان يافعا. بسلوكه الجميل كان قد لمس قلوب الأهالي، هكذا أصبح في موضع جذب واحترام وتقدير وثقة أهل القرية. موضع استقطاب ومراجعة وأبداء المشورة في حل الغاز القضايا.

لعمره السبعين كان يُعد المرجع المهم لهم في كل ما يخص عقد أهل القرية، يلجؤون إليه بحل المشاكل المستعصية، متقبلين رأيه في معظم الأحيان.

لوقاره وتبجله ومفهوميته وثبات شخصيته، ناصبوه الثقة المطلقة، إضافة لما كان يقدمه من خدمات جليلة لأبناء القرية على مدى عمره المنصرم. كان قد ساهم بجمع التبرعات لمساندة الفقير وإعانة العازب على الزواج وكل ما يحتاجون إليه من مواد أساسية ومؤون لمنازلهم من صوابين وعطورات ورز وسكر وشاي وأنواع الزيوت التي يجلبها لهم من بغداد، موفرا عليهم كلفة مشاوير الذهاب والعودة وهكذا دواليك.

منذ أن ظهرت التكنولوجيا تراجعت عجلة الدواوين إلى أن غارت في بطون الذاكرة، أنصرف عنها الناس بشؤونهم

البعيدة عن تلك التجمعات العفوية، شدتهم ببرامج التلفزة من أفلام ومسلسلات وطرب، حيث وجدوا فيها فسحة وراحة أفلحتهم عن حضور دواوين السلف التي كانت تربي وتنمي الفطنة في ذهن المتلقي بالعبر والحكم. حيث حلت بدلا عنها المقاهي والتي بدورها تراخت وتقلصت بعد ظهور الموبايل والكومبيوتر والنت، والتي حولت تلك المكتبات والكتب والثقافات لشاشة صغيرة توضع في الجيب.

أضحى الإنسان في زمن التكنولوجيا مقيداً بهوس المعلومات والألعاب الإلكترونية، نادراً ما يقرأ كتاباً أو يشارك مجتمعه، فانزوى تدريجياً في ركن الوحدة، مبتعداً عن الألفة التي كانت تمنحه قوة وبهجة وبساطة وتعاوناً. حلت الفردية محل الجماعية، فانتشرت الأنانية وكتمان المشاعر، وظهرت عقد نفسية يفرزها الانعزال. صار الفرد يستقي ثقافته من مواقع التواصل بدل التماس المباشر مع الناس، فتبدلت الطباع وقلت الرحمة.

لكن العراق حُرم من هذه التكنولوجيا بسبب الحصار الذي دام ثلاثة عشر عاماً، وهي فترة تطور فيها العالم بما يعادل قرناً كاملاً. لم يعرف العراقيون الموبايل أو الحاسوب أو شبكة الإنترنت إلا بعد الاحتلال. وسط هذا الحرمان ظل العم جبار مختلفاً، محتفظاً بعريكة الماضي، محباً للناس بصدقه وأمانته، رابطاً بين الأجيال بزرع البهجة والمبدأ في النفوس.

جمع أخبار السلف وطرائف جحا وبهلول والأصمعي، وقصص الملوك مثل هارون الرشيد وزنوبيا وكليوباترا، وحكايات ألف ليلة وليلة من علاء الدين والمصباح السحري إلى علي بابا والسندباد، إضافة إلى قصص مشوقة كالأميرة والمؤذن، الصياد والسמكة، جزيرة الأقزام، والملك والذهب. بهذا صار محل استقطاب دائم، يلجأ إليه أهل القرية للرأي والمشورة وحل النزاعات، كأنه مختار عصري وشاهد على مسبحة العقد الاجتماعي.

ورث هذه المهنة عن والده، فوجد فيها رزقه ومكانته وشخصيته، وحافظ بها على احترام الناس له. أنفذته من شبح الحصار، إذ كان يجلب منتجاته من سوق الشورجة ويضيف عليها أتعابه ليعين نفسه وأهل القرية، يساعده ابنه صالح إلى جانب عمله في الزراعة. كان قد ظلل الفسحة أمام دكانه بمظلة من الحصران والخشب، فصار أشبه بمقهى مفتوح يرتاده الكبار لتبادل الأفكار، والأطفال للتسلية والتعلم.

في إحدى المرات تجمع عنده عدد من أطفال القرية لشراء كرة قدم من دكانه، كانوا قد اتفقوا على الاشتراك في دفع قيمتها من مصروفهم اليومي... فلم يبيعها لهم مقابل المادة.. ولكن العم جبار أقترح عليهم اقتراحا مقابل إعطائهم الكرة دون مقابل، حيث قال لهم:.....

- أود أن الابعكم لعبة، أن فلع أحدكم بها سأهديكم الكرة دون مقابل، ما رأيكم هل أتفقنا.

- اتفقنا...

الكل استجاب للعم جبار، فرحوا جميعا بفكرته، هم يعرفون أسلوب الجذب التي يبتدعها، لذا صاروا يتقفزون أمامه كالعصافير المبلولة، مبهورون باقتراحه، يودون معرفة شروط لعبته باهتمام. فقالوا له:....

- هات ما عندك يا عم هيا.... هيا نحن جاهزون .

قال العم جبار وفي يده علبة بسكويت:....

- سأعطي كل واحد منكم بسكوتة واحدة بشرط...!

- اشروط يا عم...

- كل فرد منكم عليه أكلها بعيدا عن لصلصة عيون رفاقه والناس المارقين به، بعيدا عن أنظار الناس جميعا، دون أن يراكم أحدا، يجب الاحتفاظ بالسرية.. إذا ما اكتشفت بأن أحدا منكم خالف القاعدة؛ فلن أهديكم الكرة، وسأبيعها لكم بسعر أعلى من قيمتها الحقيقية، وسأخذ ثمن البسكويت منكم أيضا.... هل اتفقنا.....

- اتفقنا، أحلا لعبة نحن جاهزون.. (قال ذلك يزن)

- لا تنسوا بأنني سأضع مراقبين سريين عليكم، بمجرد الأخلاء بشروط اللعبة يسقط حقكم بالكرة.

ثم وزع عليهم البسكويت لكل طفل بسكوتة ودعاهم ينطلقوا باتجاهات مختلفة على أن يعودوا إليه بعد عشرة دقائق، ليشاهد مدى نجاحهم بالاختبار .

في تلك الأثناء كانت عبير برفقة والدتها فخريّة تتبضع من المحل، وقد لامست كيفية تعامل العم جبار مع أولاد القرية، فسألت أم عبير العم جبار باستغراب.....:

- يا أبو صالح على ماذا نويت؟ بماذا تفكر؟ ماذا تبغي من هؤلاء الأولاد؟
- لن يتأخروا يا أم أحمد وددت أن ألاعبهم، إذا ما وددت معرفة القصد انتظري هنا حتى يعودوا.
- والله سأنتظر، لا شيء يشغلني، ولكنك بأفعالك حيرتني، وزدتني شغفا في معرفة دهائك، أريد أن أتعلم منك شيئا من العبر.
- خذي هذا الكرسي وأجلسي حتى يعودوا، سأحضر لك ولأبنتك الجميلة قارورتي ببسي كولا... حاول خدمتهم لكنها ابت.
- لا يا أبوا صالح أحسبها مع المواد التي اشتريناها.
- وهو كذلك... هههههه. لا تقبلين الضيافة، هههه.
- لا ولكن لا أريد أن أثقل عليك فكرمك سابق لطفك وعائم بين الناس.

وقبل أن تكمل تبضعها عادوا الأولاد جميعا مجتمعين أمام دكانه، حينئذ سألهم العم جبار واحدا تلو الآخر، أين أكلت البسكوت؟ فكانت إجاباتهم مختلفة كالتالي....:

- بالغرفة وأغلقت الباب على نفسي. قال ذلك حسن.
- وأنت يا وليد.

- خلف تلك الشجرة..
- وانت يا يزن؟
- خلف الدكان.
- وأنت. يا ماهر
- فوق الترة لم يكن هناك أحدا يشاهدني.
- وانت يا سلطان.
- هههههههه، في التواليت وأكيد لم يكن هناك أحدا معي .

الكل صار يضحك. هههههههههههه.

- أكيد لم يراك أحدا فأنت ذكي...
- وأنت يا أسعد.
- لم أجد مكانا فاضيا أأكل به البسكوت، فكل الأمكنة مراقبة ولا بد هناك من يراقبني، لقد فكرت كثيرا بذلك بحيث أينما أذهب سيراني الله، لذا عدت بالبسكوت ولم أأكله.
- أحسنت يا أسعد، أنت الفائز، أنت تفكيرك جميل وتستحق الكرة، الكرة لك ولكن هي ملكا للجميع لتستمتعوا بها، أنتم جميعا عليكم التعلم من أسعد، أينما تذهبون فإن الله يراكم، هل فهمت يا سلطان: لا تأكل في التواليت مرة أخرى ههههههه. حاسبوا أنفسكم على أعمالكم وأقوالكم دائما، بل حتى على تفكيركم، لا تبغضوا أحدا ولا تستلذوا بالنميمة فهي من الكبائر، تجنبوا الإساءة للآخرين لأن هناك دائما من يراقبكم وهو الله عز وجل.

حينها أثنت أم أحمد على فكرة العم جبار قائلة له:....

- جزاك الله خيرا، لقد أفدتني وعلمتني درسا في الكرم والأخلاق، الله كم أنت كبير وحكيم، الله يكثر من أمثالك، لازالت الدنيا بخير طالما هناك من يتمثل بك، نعم الظروف تغيرت ولكن الذي فيه طبع الخير لن ينزع طبعه، ولن يتنازل عن أصله.
- هذه الدنيا قصيرة يا أم أحمد، لا تستحق المغالاة بها، كل شخص يحمل كتابه في يمينه، وأنا عن الخير لن أنحرف قيد شعرة، هكذا علمتنا السنين وعلما الدين. أبو المثل يقول أزرع خيرا تحني خيرا.
- والنعمة بالله، الله يطول بعمرك ويعنيك لخدمة أهل القرية، أنا عن نفسي استفتت من حكمتك أكثر من الأولاد. ثم ودعته عائدة للبيت.

بقيت تلك الوقفة من العم جبار شاخصة في ذهن عبير، وبقي ذلك الطفل المسمى أسعد محل أعجابها، حيث تأملته كثيرا فيما بعد ووضعت نصاب فكرها وعينيها، وقد سألت عنه فيما بعد أخوها أحمد الذي لن تخفي عنه أسرارها، وقد أشاد بأخلاقه وطبعه ..

لم يتخلف أسعد بهواجسه عن هواجس عبير، هو الآخر أعجب بفتنة عبير، ظل يتبع خطواتها وأثيرها في ذهابها وإيابها من المدرسة دون أن يكشف سره، كانت سببا في تعلقه بأخيها أحمد، بحيث زادت أصرة العلاقة بينهم بعد أن هجس بقلبه

يرهف بمجرد أن يرى ملامح عبير تطفح في الطرق، أو حين يسمع باسمها في المحفل .

كما أعجبت بفضل العم جبار على تهذيب الأطفال وزرع الحكم والمبادئ والطاعة والمحبة بقلوبهم وأذهانهم، دائما ما كانت تذكر قصصه وتتحدث بها مع زميلاتها في المدرسة أو في الطرقات مع رفقتها أو مع أهلها.

قلما تجد شخصا خيرا عجنته السنين بأحاديث الدواوين كالعم جبار، بحيث يجعل المتلقي يستسيغ كلامه.. لذا تجد أولياء الأمور لا يحاسبوا أولادهم حين يتأخروا عنده، أصبحت تلك عادة لدى الطفل في زيارة دكانه، في نفس الوقت هي حجة يتبجحون بها أمام أولياء أمورهم، حين يتأخرون، لأنهم سيكونون بحالة نشوى وفائدة. في الحقيقة كان بأسلوبه يعتبر مدرسة إلى جانب ما يتعلمه الطفل في المدارس من معلومات فقهية وفكرية وأكاديمية وعلمية تخدمهم في المستقبل.

هكذا كان يتابع كل صغيرة وكبيرة تخص القرية وتخص الوطن، لذا تشعر بأنه كان أشبه بشيخ ومرجع لفض قضاياهم، بات دكانه أشبه بمزار دائم، حافظ لأسرار أبناء القرية وأخبار تحركاتهم بشكل عام، أنه البئر الذي يستسقون منه أهل القرية.

لذا كان في محل استقطاب دائم في أخذ الرأي والمشورة وحل العقد ومشاكل وفض النزاعات التي تحصل بين أبناء القرية فيما بينهم وهكذا هلم جرى، كان بمثابة مختار عصره والشاهد في مسبحة العقد.



مثلما توقع العم جبار، دخل علي بابا والأربعون حرامي بغداد بعد شهرين من واقعة الحلم المذكور، لا باتفاق ولا بإذن، بل على ظهر الدبابة الأجنبية. كان دخولهم إعلانًا للفوضى، إذ انقلبت الحياة رأسًا على عقب، وتلاشت الحدود بين الحق والباطل، بين الأمين واللص. شرذمة من القتلة والحرامية استباحوا الأرض، يسرقون النعم تحت ضوء الشمس، فيما المحتل يبارك فعلهم ويمنحهم مفاتيح البلاد. هكذا صار الحلم نبوءة، وصارت بغداد مسرحًا للنهب والخراب.

ما أن دخل المحتل أرض العراق في 19/3/2003 حتى دق ناقوس الخطر، وتبدّل نمط العيش رأسًا على عقب. أُجبر الناس على مسايرة ظرف قاس، صاروا يبتكرون لأنفسهم طرقًا جديدة للبقاء. عائلة قاسم الجنابي، بصغر حجمها وضعفها، اختارت أن تستتر بالأرض والفلاحة، أنزوت خلف أفق المساء بعيدًا عن المعمة الدائرة من حولها، لتتفادى المحذور وتقاوم الفاقة التي تفشت في أرجاء البلاد.

هكذا حاولت أن تحصّن ذاتها بما هو ممكن، بدأت تبحث عن رزقها في جوف الأرض، تواجه المستحيل المحيط بها، وهي تنتزع حقها من بين أنياب الوحوش الكاسرة التي أوصدت أبواب النعم بوجه الجميع. استغلت أرضها لتكون زراعتها سندها وفعل مقاومة صامته، محاولة لإبقاء الروح حيّة، ولإعادة شيء من البهجة لذاتها والهيبة المفقودة.

كان الحكم في بغداد قد قوض مساعي الناس قبل السقوط، إذ فرضت دول التحالف بقيادة أمريكا قيودًا خانقة على العراق بفرض الحصار الظالم، جردت الشعب من القوة والطاقة والأناقة ومن أبسط النعم. لم يلمسوا من تقلب الأحوال سوى الخوف على حياتهم البريئة المخنوقة بالروتين، والخوف على الأرض التي ورثوها من تعبهم وميراثهم. حاولوا الحفاظ على ما تبقى من ريع الوداد لمجاعة الظرف، لكن معاكسات الزمن تكالبت عليهم، فاعترت حياتهم وأعرت رغباتهم البسيطة.

صارت تلك العائلة تبحث في عمقها الصغير عن فسحة للعيش بين مخالب الزمن، عن مسالك نجاة وسط دروب السخط والهوان، لتزح عن كاهلها أعباء أثقلت أرواحها وأشعرتها بالذل والمهانة. ومع ذلك، ظلّت تحاول أن تدرأ الصعاب بما تملك، حتى وإن كان التكافؤ معدومًا أمام قسوة الأيام.

مع دخول المحتل حدود العراق؛ دخلت العقارب والثعابين والحشرات الأزقة والشوارع، سقطت الأقنعة وتفشى الفساد في البقاع، كركبت الأمور بين الوسط وشاعت غبرة الجياع، أضحت الفوضى عائمة في ذات الشخص نفسه، راغت في المجتمع المراع. لم تعد هناك قيادة تدير الأمر بعد سقوط النظام، تفشت الأزمات وكبرت الاختلالات في البلاد، وأثقلها وطأة وغلا على المجتمع هو فساد النفوس وتصعد الأخلاق، في زمن شاع فيه الانحلال واختفت به الأحلام والرغبات...

كان الفساد قد عمَّ كل القطاعات، أضحى يجري بغل في العروق كالدّم، تفشى في البيع والشراء وفي التعامل بين الناس. سيطر على دوائر الدولة قاطبة تلك التي باتت تستند على ابتزاز الناس في تمشية معاملاتهم، على حجم الرشوة المدفوعة. وهكذا هلم جرى.. مما أولدت تلك الأوضاع خوفاً بين صفوف العامة وفقدان الثقة التي كانت سائدة بين الناس، إلى جانب توسع افق الفاقة وإفلاس الجيوب نتيجة قلة فرص العمل المتاحة.

لقد لعبت المادة لعبة السحر بين الفقراء والضعفاء من الناس بعد أن دك الحصار الجائر حصونهم عبر ثلاثة عشرة سنة من القحط والعجاف، ثم بعد ذلك فرض المحتل غله، ليصب زيت سخطه الملتهب بين الصفوف، قلب موازين الأوضاع، صارت الوشائج بين الناس ضعيفة، شفافاً، يتفتت جلدها من نفخة ومن غصة، نتيجة تخمر عقول الناس بنتن الفساد الدائر في البلاد وتآكل أسسها.

الرافة التي كانت سائدة بين الناس خف بريقها، وإن تسترت بملاءة الدين، إذ اختنق لونها رويداً رويداً حتى تماهى بصبغة الغايات والمصالح. تآكلت جدرانها وغدت الأسس رخوة، حتى بهتت وشقت.

تلك العائلة البسيطة تكالبت عليها الأقدار، تكبلت بعقد الظرف، بيست جذورها تحت شمس الأوضاع، فيما القيادة عاجزة عن مواجهة الأزمة التي امتدت سريعاً على مساحة الوطن.

الريبة من الفاقة التي كانوا يخشونها قبل الاحتلال تخمرت وتفسخت، وانتشرت بين الصفوف جراء الحصار ونكد المحتل. قدراتهم المحدودة تصحرت مع تقلص مجالات الحياة، وازدادت القيود إحكامًا مع توالي الأيام. بعد الاحتلال اظلمت السماء، فسدت بيوض الأحلام، وتفحمت الآمال جراء تفشي الفساد في كل القطاعات. كل محاولاتهم تبخرت مع دخان العجز، مثلما تلاشت مصالحهم أمام طغيان المصلحة العامة التي لم تعد تُجدي.

كل شيء جنّ وتغير لونه ومعدنه وجوهره، مثلما توقع العم جبار بليلة وضحاها. كان حلمه دعوة لتضامن أهل المنطقة، لتحسين النفوس خلف إرادة واحدة في مواجهة الغزاة، لكن العفوية التي اعتادوا عليها جعلتهم يستسلمون دون أن ترفأ رغباتهم، حتى شفت وتبخرت جداول أحلامهم مع استسلام النظام للمحتل.

صار الناس يرنون إلى العم جبار، يبحثون عنده عن كيفية تدبير رزقهم وترتيب حياتهم وسط تقلبات الظرف، ليستسقوا منه المعرفة والمعروف في مواجهة الشح والفاقة والموت المتربص بالعراقيين في الطرق وخلف الجدران. كان مرجعهم في زمن الشك وبات رفيقهم في اليقين، زمن ورّع المحتل فيه بذور الحقد في حقول النفوس الضعيفة، فصاروا يلجؤون إليه كضفة تحفظهم من الغرق في الفتن والنفاق الذي وجد له منافذ عند البعض نتيجة الفاقة.

كانت قد استأثرت عائلة قاسم الجنابي بالأوضاع الجديدة وبالهيجان الذي أصاب جسد الوطن بعد الاحتلال، حالها حال العوائل الأخرى المظلة بالجحيم والمكلة بالذل والهوان الذي لاح الجميع. التمسّت غبرة العصف التي أحدثها المحتل، والتي أغشّت قدميها وأفق نظرها. كانت قد استأثرت بشر الغيوم فتسترت بالحياد كغيرها من العوائل الكادحة البسيطة التي لا حول لها ولا قوة إلا بالله، تلك التي لا تستطيع مقارنة الظرف لضعفها وصغر قدراتها وقصر قامتها.

لم تكن حياتهم سوى نمط روتيني بسيط، يتغزل بحلم قُمت بالبساطة ورضع من ثدي سعادة مرحلية، على حساب سنين عجاف أبيضست شغافهم. لم يلتمسوا من تلك السنين سوى هوس الخوف على الشعلة الرقيقة الباقية من شمعة الحياة، وعلى الأرض المباركة التي جمعتهم على النعمة والألفة، لتيسر لهم عيشة كريمة تليق بهم.

كانت تلك الأحلام مرفقات حياتهم المؤلمة، لكنها اختبأت تحت وطأة الشك والمشقة، بين معاكسات الظرف وفداحة القهر. ومع تكالب الزمن، فريت أمانهم وتعرّت، نتيجة مغالطات النظام السابق بعنجهية رجاله، وعبثية المحتل الغاصب الذي فعّل جدلية الفوضى، فصار المستقبل هشاً، والأحلام تبخرت مع دخان العجز.

تلك العقد التي لحقت بهم جراء الحصار والاحتلال والتسيب الأمني زادت من غصة الحياة وشجون الفاقة، إذ ضاقت

المجالات التي يمكن أن يبدع بها الفرد. أصابهم ما أصاب البلد من قحط وذل وهوان، حتى التصقت عقد الظرف بهم كالغراء، وزحزحت ثقتهم بالغد تحت وقع زمن مهزوز مريض، خلخل الصبر، عرى العواطف، وكشط الرأفة عن القلوب.

أضحى البؤس سمة عامة تعتلي الوجوه، ضاع التمايز بينها، وتساوت الحالات عند الجميع. الكل شرب من ذات الكأس، وقبع تحت قبة المطرقة والسندان، يبحث عن ثغرة في الأفق تنجيه من وهدة التهلكة.

تلك العائلة الصغيرة وجدت نفسها تركب مطية الزمن العابث، محاصرة بالخبيثة، والمرارة تلوك ألسنتها. هجست بذواتها خيمة تعصف بها ريح صرصرة، تتقهقر في فلاة متصحرة.

تسللت إليها المشقة بلا إرادة، ظلف العيش قلّص مجالاتها. أضحت الأيام وخيمة، بطيئة، وقحة، حادة كالسيف، إما أن تقطع أعناقهم أو تجردهم مؤنهم، كعربة حصان منهكة تجرهم إلى ميدان الفقر والقهر كبقية الخلق.

لتجنب زنقة الظرف وغربة الوطن، تمسكوا بجذوة الأرض وقيم الماضي، رغم أنها فقدت بهجتها وهويتها. صار الخطر يتشظى في الأفق كقدر لا مفر منه، كشهاب يخاف الجميع وقعه، أن ينزع أحلامهم ويجرفهم إلى منغصات العقد كسيل جارف.

من الأزمات المتفجرة والمارقة بين العيون، من الفقر الذي صار يدق أسافينه في العظم.

اجتاحت الأحداث الحدود بسلاسة، جاءت السيول من حيث يعلمون ولا يعلمون، أدخلت الرعب عبر النوافذ والأبواب المفجعة. راجت المخاوف في القلوب والعقول، طفحت في قوارير الذات كمواد سامة، حتى صارت الأعباء تبرزغ من باطن الفكرة، من قلة الخير والخبرة، ومن حجم الفوضى الدائرة في الأزقة والشوارع. من الأزمات المتفجرة والمارقة بين العيون، والفقر الذي يدق أسافينه في العظم، جعلوا الحياة أثقل من أن تُحتمل، كأنَّ الزمن نفسه صار عدوًا يتربص بهم في كل زاوية.

تكررت الأحداث على شكل لفائف محشوة بالفاقة، تغلغت في متطلبات الأسرة، امتصت النعم من الجحور، حتى فقدت الأسرة مرتكزاتها داخل البيت الواحد، وفترت صلتها بين أفرادها وبالمجتمع. صارت العلاقة بين الأخوة رهينة المصلحة الفردية، بعدما عجزت الأسرة عن تدبير فرص السعادة لأبنائها.

ومع اشتداد الظروف، صعب عليها السيطرة على أفرادها لتلافي منغصات الحياة، فيما كانوا يشاهدون جنود المارينز يتجولون في أزقة القرية ومزارعها بعجلاتهم، يجتاحون المدن بلا رادع. نصبوا نقطة تفتيش على مدخل القرية، على بعد مئتي متر فقط من دار قاسم الجنابي، لتصبح الحياة محاصرة

بالخوف، والبيت الصغير شاهداً على زمنٍ يفتك بالروابط والآمال.

حرب شعواء ابتدأت من داخل الأسر، مع عدم القدرة على التكيف مع الظروف المستجدة، مع تدني قيمة العملة المنحدرة دون تعويض، مقابل مرتبات ضعيفة لا تتجاوز عشرة دولارات في الشهر مع تحسن طفيف بعد الاحتلال. مع عجز دائر في تدبير لقمة العيش مقابل الغلاء المتصاعد، مع سطوة المصالح الشخصية على المصالح العامة، مع الأنانية السائدة وحب الذات، مع شروع نغمة الطائفية التي بدأت تطفح في وتين الوطن بعد سقوط النظام البعثي.

تلك الحالة نقلت المعاناة من داخل البيت لخارجه، أو بمعنى أصح من خارج المجتمع لداخله ومن ثم لداخل الأسرة، مما ولد أزمة في الأزقة والشوارع، هكذا جنحت الفوضى لتعم القرى والمدن والبقاع كافة.

مع شروع الفوضى طفح زيت الخطر على واجهة السطح، نفث شرره في الأجواء، أفسد الماء والهواء. صار يزحف بجهمه في جوف الفُكر كدودة خبيثة، بعد أن شكل خطراً تراءى للجميع عن بعد، كخيطة هلامي غائر في جوف النسيان، مثلما لمح لذلك العم جبار قبل الاحتلال بأشهر. بدا الخطر يزحف على سطح الحياة والأيام كثعبان. خشن كثيراً ملمس الظرف، بات يستشعر به الظن قبل يقين العين.

بات الناس يراقبون همجية بعضهم، يترقبون القادم بقلق مستمر، حتى بدأت الثقة تتلاشى، وكل يميل حسب هواه أو طائفته. ضعفت القدرة على مواجهة التحديات، وتتابع موجات السخط ومطبات، فارتاد العراقيون واقعاً مرّاً دون إرادة.

حالات هلع وخوف مضر سكنت النفوس، وأجواء قاتمة قطنت حدقات العيون. حلّ الظرف بينهم كزائر بليد، زرع النكد في العقول، ونزع الثقة من القلوب، حتى صار المجتمع غريباً عن ذاته، منشطياً بين بين أوجه الانتماء..

ما عادت ناموسية الوطن تقنئهم لسعات الحشرات الضارة القادمة عبر الحدود. تغلغل القلق في أتون الغد، كبر في الظن والبال، حتى صارت الحياة كرة متدرجة على سفح الزمن، مليئة بالشؤم والنكد، والخوف من الغد القادم.

أضحى واقع المساكين مزريراً، متعلقاً بكنف الظرف، كقشة تتحكم بها تيارات العواصف الهوجاء. كان لدول الجوار ودول المحور دور في زعزعة أمن العراق، إذ دفعتهم كراهية نظام البعث إلى مشاركة المحتل في تدمير أسس البلد. المحتل فتح صنادير الخبث والمكر، لتندفق منها أقوام كأنهم يأجوج ومأجوج، عبثوا بحقول الحياة كيما شاءوا، تاركين الوطن مكشوفاً أمام رياح الخراب.

كانت عائلة قاسم الجنابي قد رسمت خطوطاً وهمية لملاح الغد، ضمن حدود أحلامها البسيطة. مضت تتأمل السعادة في

عيون الأيام، لكنها لم تلمحها، إذ أضحت تلك السعادة نجومًا بعيدة في جوف المساء. ومع ذلك، بقيت أحلامًا يانعة، تتجسد في براعم أطفالها: عبير، محمد، أحمد، وهديل، الذين وعدهم الوالدان بالثقة رغم قسوة الزمن.

احتمت العائلة بما تبقى من شعل الغد، على النزر من فتائلها، تنير لهم ما تحت أقدامهم. تأملت أن تنال الوصل مع أبناء القرية، بتعاونها وتراحمها، كألقة تخفف أعباء الزمن. لكن المنغصات التي جلبها المحتل عبثت بالقيم والأحلام. ومع ذلك، كان وقعها أخف في القرية مما هو عليه في المدن الكبرى كبغداد، إذ استند الريف إلى موروثة متجذرة في الفكر والسلوك، من زراعة وألفة وتقاليد وأعراف غائرة في جذور الحياة، تحفظ أبناءه من الانحراف عن خط أصولهم العام. بذلك تمكنت تلك الأعراف من تخفيف وقع الضرر عليهم، وجعلت من الأمل، وإن كان بعيدًا، بُعدًا أكثر قدرة على البقاء.

ومع ذلك؛ ما أن غربت شمس الوطن؛ حتى سُرقَ الدفء من العيون، فرضت الحروب الصماء أبجدياتها على حيواتهم، أوجدت غصة في النفوس ورعشة في الأبدان، وأوجاع في الروح والنفس، ونقص في المؤن والتعليم وما إلى ذلك من انحدار في القدر وانحراف في القيم.

لقد صبروا مجبرين على الجلد والفاقة، كصبر الشجر على تقلبات الطقس. جرفتهم أحداث الحروب إلى وهدة اليأس، فأولدت إلى مخاوف من رحم الزمن، في تناسل لا ينتهي،

تعدى آثار الحصار والدمار والاحتلال والطائفية إلى الجرائم والسرقة والعبودية.

الحروب الخارجية غدّت أخرى داخلية، هيجت جمر الجوع وسطوة القتل والنصب والاحتيال، حتى صار الفرد ضعيفاً اقتصادياً ومتهتكاً في مقوماته. كل ذلك انصب على رؤوسهم كقدر لا مفر منه، جعل الحياة أثقل من أن تُحتمل، وكأن الزمن نفسه صار عدواً يتربص بهم في كل زاوية.

تداعيات مقيتة خلفها العدو الحاقد الطامع بخيرات البلد من جهة، وسوء تدبير نظام الحكم السابق المتسلط من جهة أخرى.. كلها اجتمعت وتكالبت على عاتق فكر المواطن البسيط، لتعبث تلك التداعيات بالقيم والمبادئ الإنسانية، لتعكس أثارها على سلوكيات الفرد وأخلاقياته التي فتت خيوط المجتمع.

عاشت عائلة أبو أحمد (قاسم الجنابي) في ظل تلك الأجواء المكهربة بتحولها من سكون إلى صمت، ومن صمت إلى تمعن، ومن تمعن إلى حيرة، ومن حيرة إلى خوف وهلع، ومن هلع لرعب، ومن رعب لوجل، ومن وجل لجلد، ومن جلد لياس وخواء وقنوط وسكون في سلسلة تقلبات وتغيرات طويلة لاحقتهم بدنيا وفكريا واقتصاديا وثقافيا في ظل انتماء قدسي للوطن.

بقي القلق يدور في محور تقلبات تلك الأحداث والظروف، معلق في قيد أعمالهم، يقودهم بألية العبث والروتين نحو مرفأ

الأسوأ والأصعب والأشد قدرا وفتكا وظلما، طالما لا تغيير
ظاهر في بنية أوضاع الوطن.

الحياة المرفهة أصبحت مرهقة، ثقيلة، جافة، يابسه، ينقصها
الإحساس بالوجود. حياة وجلة، صاخبة، مريبة، تختزل الشكل
المناطق بها للعبثية الموجودة في كل الأمور، للصيغ الميتة التي
كان يتبعها المحتل، وتلك التي يتعامل بها جوقة المهرجين
والطبالين من ذيول وخونة مارقين على رقاب الشرفاء
والوطن، همهم تفضيل المصلحة الذاتية على المصلحة العامة
والوطن، تلك التي لا روح فيها ولا نفس، في ظل حياة ميتة
عبثية.

عاشت تلك الظروف بحذافيرها على وقع الخبر وخشونة
الزمن المارق بهم، تحملت القساوة والقرف والصبر، لبست
أسملا من ألبس الحزن والآلمة، تحملت من قسر الزمن وغله
وفضلاته. تلك الحالات القسرية صارت تتجدد في رحم
المصاعب، مضت الحياة تتنقل بهم من كوة لهوة، ومن هوة
لمغارة، تتعقب هواجسهم المربكة حشرات سخط، وديدان شك،
وعقارب التباس، وثعابين ارتياب، بما لفظها ظرف الاحتلال
في الوسط، ماضية بهم لزنقة العناء وهوس الهم والغم
المشاعة.

مفاهيم جديدة طرأت في حياتهم، تولدت من أثر الفواجع
الرائجة في الأزقة والشوارع، غرست في الذهن جنون
صمت، اقشعت نور الشمس عن بهجة الصبح، باتت المفاهيم

لا ترتقي لحسن المعاني، لا تروقها حسن النية والغاية والخاتمة. لا تتوسم بها كمعادلات حسابية تحسم الأمر بالحق والعدل. أضحت الصورة مشوشة، فلتة، ليس لها رأس ولا دليل ولا وجه لتتعرف عليها. غدت الأوضاع فالتة بين الناس، لا يشكمها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أضحي العنف سيد المواقف حسب قانون الولاء والجاذبية المشاعة، وحسب قاعدة الغاية تبرر الوسيلة.

إضافة إلى العنف، تفشت جدلية النصب والاحتيال والسرقة كصيغة ملازمة للفوضى، حتى أصبحت مهناً بارزة أذابت وشاح الطيبة والعفوية والعقلانية التي كانت سائدة فيما سبق.

اليوم، في أحد برامج الفيسبوك، اعترف رجل أمام الصحافة بجرأة وصراحة بأن عمله "نشال" — أي سارق جيوب — وعرف عن نفسه وعن مكان عمله في الشارع الفلاني بشكل علني، دون خجل. لم يجد عملاً آخر أجدر من ذلك، فاضطر أن يكون لصاً يتلصص على جيوب المساكين ليدبر رزقه. هكذا هلم جرى، وكان الفوضى شرّعت أبوابها لتجعل من الانحراف مهنة يومية... هكذا هلم جرى.

ولّد الانحدار العام للدولة قسوة وعنجهية عند البعض، بحيث بات الفرد لا يخجل من أن يطلق على نفسه الصفاة المذلة، كلص، أو قاتل مأجور، أو قواد.. حتى وصل حال البعض إلى أن يفتك بالبراءة ويقتل الأطفال لسرقة أعضاء أجسادهم مقابل قشور من المادة يملأ بها بطنها. اليوم سمعت لقاء مع أحد الأشخاص يعيب ظاهرة الاستجداء في الشوارع بعد أن

صارت مهنة لكثير من الاطفال والنساء، حيث قال بالحرف الواحد بأن يستنكر تلك الاعمال وهي ظاهره غير حضارية، وأنهم يزامونه في العمل!!!!.....

وعندما سأله المذيع وما هو عملك أنت؟ قال :،،،

- أنا استجدي المعونة في الشوارع!!!!!!....

هههههه، يعيب عملهم وهو يعمل بذات الكار. يا للمصيبة.

وجدت عائلة الجنابي التشبث بالأرض والتعطر بكافور تربتها ومراقبة الأوضاع عن كثب أفضل وسيلة تجنبهم عبثية الانحراف. فلا مناص من الانزواء خلف حجاب الستر، ولا طاقة لهم في مواجهة لفائف العقد التي باتت تتجدد في سيفرهم، التجارب علمتهم الصبر، جعلتهم يتشبثون بواقع الأرض كالنخلة الصامدة التي لا تهزها ريح ولا يقشعر لها بدن.

تلك الأرض جعلتهم يتنافسون على إصلاحها، يقدسون تربتها، كانت قد ذلت الصعاب أمامهم ايام الحصار، حينها تحسسوا جلودهم الناعمة، لذا طافوا حولها كطواف المسلمين حول كعبتهم، باتوا يحجون إليها في كل موسم، يحرثونها، يزرعونها، يحصدون منتجاتهم المنوعة، يبيعون قسما منها ويدخرون الباقي، يلتمسون نتاج عبادتهم وتحسين قدرهم. باتوا يزرعونها أنواع البقوليات والخضر لتقيئهم شر الفاقة والمذلة والمهانة، ولإدامة سر الحياة، إضافة إلى أنهم شرعوا بتربية بعض الدواجن التي لا يكلف تربيتها شيء من المادة في القرى.

كانوا فيما سبق قد حفروا عددا من الآبار الارتوازية لمواجهة قبيض الصيف المستعر وجفاف الأنهر وتحدي الحصار الجائر بعد أن شاعت الدول المجاورة على قطع منسوب الانهار التي تنحدر من أراضيهم. الطرف أجبر قاسم على العمل كحارس في مؤسسة زراعية لمخازن البطاطا الحكومية التابع لقضاء المحمودية، ليسد ثغرة من كوات الفاقة التي توسعت زيقها.

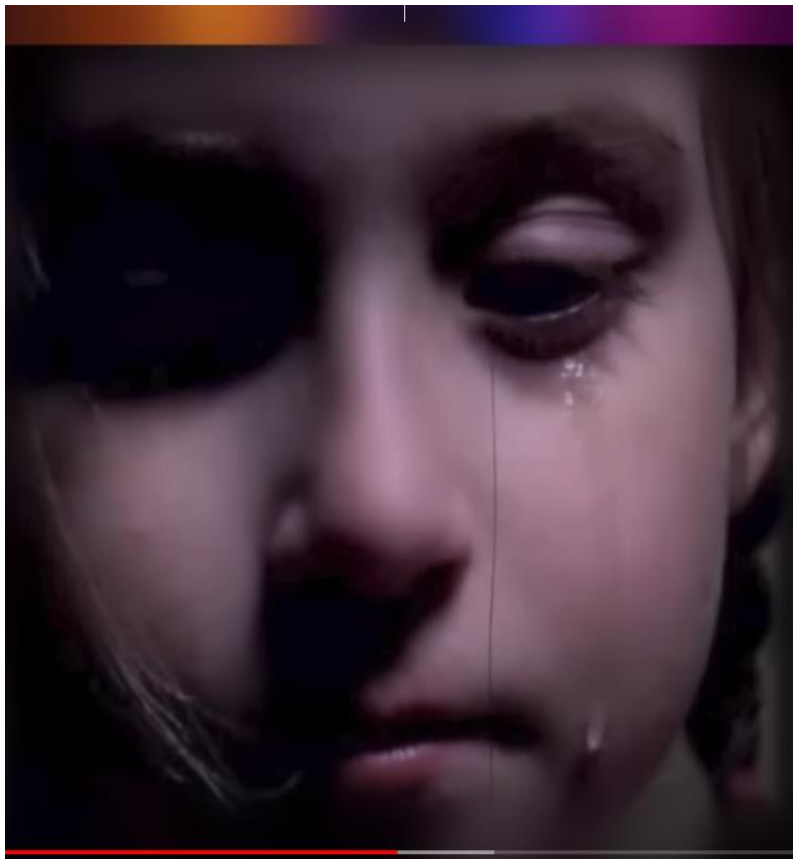
القسوة التي قدم بها المحتل، تركت عصارة حنظلتها في أفواه الشعب، فأصفرت الوجوه وتآكلت الجذور، كلحت وجهمت حتى قُطبت. أضحت ورسه كأوراق الخريف المتعلقة بالشجر دون أن تجد أملا في تجديد رونقها في دورة حياة جديدة..

جبست الأثواب على الأبدان، حُشنت جلودهم، سمرتها المشقة وحرارة الشمس اللاهبة، أرهقتها تلك الجيوب الغبية التي باتت تجوب البقاع بحرية مطلقة تحت أمرة المحتل. ذلك ما جعل زيق الفتق يكبر، صارت الحالة يصعب السيطرة عليها، بحيث كلما لظم جرحا تفتق آخر في أماكن جديدة.

بقيت العيون عطشة، غارقة في تأملاتها المستحيلة، وجفت ومن ثم صممت وهي تنتظر بحزن إلى السماء دون أن تبرزغ الشمس من جديد، دون أن تستطيع تغيير شكل الواقع، عجز الفكر وعجزت الإرادة من ردم تلك الفجوات المحيطة بهم.

هكذا بقيت تلك العائلة المسكينة تراقب تطورات الأوضاع بصمت وعن كئيب، في محاولة منها تجنّب ذاتها خبث نوايا

جنود المحتل وعصابات اللصوص المستفحلة التي باتت
تتحرك وتتجول تحت حمايته.





لقد جاء المحتل بصرة الفساد، وبأنواع وأشكال القذارة، جاء بحزمة المشاكل والمنغصات، ما أن وطأة قدمه أرض الوطن؛ حتى حل صرة المشاكل والعقد في الوسط، فنثر البغض والكراهية والطائفية والعداء بين أبناء الشعب الواحد، بحيث أشعل موقد نار الفتنة تحت قدور الطوائف جميعا، لقد عمل بحرفية تحت مقولة "فرّق تسد"، عبء الأجواء بفايروسات الكره البغض من لدانة فكره، وثنائه وفسوقه وفسواته وضراطه؛ حتى أستطاع أن يلغم الأجواء بغازاته المسمومة وغاياته المظلة، جعل العناء يفترش الطرق، فأصيب من أصيب بالرّش والعشو والرمد والجلد لتقرغ له الأجواء..

جاءنا بالفوضى والطائفية والتجرد والخواء والفرقة والافتتال، جعل الطلائع تختنق بوباء التيه والعقد، وبالتوقع الخاطي، بالنظرة الفردية، وبتفسخ المجتمع وانفلاته وبالمصلحة الشخصية. نشر وباء الحقد والضغينة بين الطوائف والقوميات والأديان باستخدام الهيمنة والتجويع والتقريب للسلطة، حتى تمكن من فصل ألوان الطيف عن بعضها، همش البعض وراعى البعض، أضحت ألوان الحياة باهتة في نظر الجميع، ما عادت تروق المواطن العفيف الشريف. أرهقت الأحاسيس. ما عادت الرؤية تحتمل العبث النافذ من محيط الفساد، تلك التي تركت دكنة الحنق وندبة الشك تلتصق في فكر ونظر الكثيرين من أبناء الشعب. طفحت قسما منها على شكل ندب في الوجوه وأخرى غارت في جوف عذابات النفس والجسد والنسيان.

صار التئمر يتبع المصلحة الشخصية والصبغة الطائفية، اضحت الطائفية تفرض نفسها على حساب الشهادة والدرجة العلمية والمنفعة العامة. قُرِبَتْ طائفة وجردت أخرى من مقومات الوجود والسيطرة. بتلك الأساليب الخبيثة، القذرة زرع الفوضى، ليتسنى له العبث والسيطرة والسرقه كيفما يشاء، حتى تمكن من إغشاء بصر الغالبية من التابعين بغبرة ليل ادامت بقائه.

بتلك الخدع تمكن من تنظيف البنوك والسايلوهاات والمتاحف من مؤنها ورصيدها وتراثها، ليبقى البلد جريحا ينزف في واقعه، يترنح تحت رحمة الغاصب في رقعته، ليبقى يعرف تحت رحمة وشفقة الذئاب.

لقد خطط لكل ذلك قبل المجيء، لم يدع مجالا إلا وعبث به، أقصى العلماء، دمر مؤسسات الدولة المدنية والعسكرية، جرد وزارتي الدفاع والداخلية من قوتها، غير مناهج التربية والتعليم ليزرع في عقول الشعب أنواع الدجل والعبث. عبث بالدستور، أطفأ الأنوار بعد أن شل الطاقة الكهربائية في أرجاء البلد، دمر مصادر الطاقة في الناصرية والدورة وبيجي وغيرها، لم يدع مصنعا إلا وعبث به؛ كي لا تقم للبلد قائمة، كي تعود الفائدة لمصانعهم ومنتجاتهم المستوردة...

بدخوله كان قد دُمِرَ كل شيء؛ بحيث لا يمكن من إعادة المصانع وتشغيلها. بتلك الأساليب الخبيثة جعل الروح عاجزة على أن تتمسك بتربة الوطن والدفاع عنه، الجميع نزع رداء

المبادئ، بل توجهوا لتأجيج الصراع فيما بينهم متمسكين بالنزعة الطائفية.

بتدميره المصانع كان قد جرد الأذهان من الفكر، حول شكل الأبداع إلى عجز دائم، حول كل شيء إلى عبث وخراب وقمامة، حتى أوقف مصانع الألبسة والنعل والبلاستيك ومعامل الأدوية التي لا دخل لها بألة الحرب ولا بأسلحة الدمار الشامل التي جاء يبحث عنها في مطابخ بيوتات الناس، لقد لأك الأوضاع بقذارة فكره ومنهجه، سير الأمور مثلما يشاء.

لقد جاء بفكرة الصهاينة، وبنية اللصوص، وبخبث الطامعين وبنية الفاسقين. دمر منابت الحياة من أرض وشجر. لوث الهواء والماء والتربة بأسلحة الدمار الشامل الممنوعة، بحيث جرد البلد من مقوماته، ومن كل أمل لاستعادة عافيته. بدخوله انتشرت أنواع الأمراض في المجتمع وبالذات الفتاكة منها كالسرطان والسكر وغيرها..

اليوم بالصدفة شاهدت مقطع فيديو مع القاضي الأمريكي المشهور **فرانك كابرियो** المعروف بالرفافة، وهو يوبخ امرأة عراقية مريضة بالسرطان لأنها قالت له:.....

- أنا طبيبة وقد أصبت بمرض السرطان جراء القصف الذري والنتروني والكيميائي التي شنته القوات الأمريكية على العراق، أنا هنا دون عمل ولا أعرف

كيف أدفع أقساط مدارس أولادي. حينها وبخها قائلاً لها:....

- أمريكا أمة عظيمة، تحتضن الفقراء والمساكين، تساعد من يبحث عن الحرية... الخ من كلام فارغ لا صلة له بالواقع، وهو يدرك جرم أمريكا، لكنه يمجد عظمة أمريكا كأعظم أمة دون أخلاق وقيم، وهو يدرك بأنهم أخس أهل الأرض مكانة وأكثرها شراً، لم يدخلوا العراق إلا ليسرقوا خيراته ويدمروا شعبه، ها هو رئيسهم المدعو ترامب يسرق الدول الخليج العربي علناً باستخدام القوة والتهديد....

كان هذا القاضي الطيب ظاهرياً والخبيث داخلياً أعمى، لا يرى خبث أمريكا وحجم أضرارها بحق الشعوب الضعيفة إلى جانب أمها العجوز بريطانيا... هي من تزرع الفتن هنا وهناك لتبيع أسلحتها، كأنه لم يسمع رئيسه ترامب الذي قال علناً "بعض الدول العربية غنية، ولأمريكا الحق في تقاسم خيراتها"....

لولا الحرب الظالمة التي شنتها على العراق ماكنت هذه السيدة تصاب بالسرطان؟ وما كانت تتشرد وهي طبيبة وما كان ترامب يتجرأ على قول مقولاته المخزية، أنهم فعلاً شعوب تافهة وحقيرة منزوعي الأخلاق.

على أيه حال، البلد أصبح تحت المطرقة والسندان لا يستطيع أن يقف على قدميه. المرتزقة التي عبرت الحدود التصقت

بأذئاب المحتل لتكون يده الطويلة في الاماكن التي يصعب اقتحامها والوصول لها.. لقد عاثت فسادا في الارض، دخلت في كوة وجحر كل بيت، بذرت المصائب لتحقيق أهدافها وغايتها، صارت تتبع الضباط والعلماء والمنافيين والمعارضين لتواجد المحتل، تبعتهم بالتهديد والوعيد والقتل، كانت قد فرشت ذاتها على جسد الوطن كالبكتيريا العفن، صارت تبث الوشائات والرزايا والتجني والقتل والدمار، بل أنها لم تكتفي في ذلك حتى تجاسرت على المنشآت الخدمية والمصانع..." سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَذْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (28) " ص.... أحرقت كل شيء؛ حتى المساجد والمصاحف والمكتبات الوطنية التي تضم كتب تاريخية نادرة تمجد تاريخ العراق وعلمائه واحداثه ليطمسوا الثقافة والتاريخ في غل أنفُسهم، جعلوها نثار في مهب الريح، دعسوا على كل شيء ينم بتطوير البلد؛ حتى بتنا نشم العفونة تفوح من كل زاوية ومكان، من كل حذب وصوب؛ بحيث صارت محاولة ترميم الصدع بين الطوائف من المستحيلات.

كبرت الفجوات على جميع الأصعدة، حتى صار الفرد لا يستطيع تجنب نفسه من السقوط في وهدة الطائفية، كما صار من العبث محاولة ردم أية فجوة تطفح على الطرق. لقد صعب الأمر على الناس بترميم ذواتهم، ضمن التقلبات الظرفية المرعبة.

امتدت يد الخبث على نعومة الجسد، بحيث لم تدع روحا تنفس إلا وصادرت شهيقها وزفيرها. جعلت الأرواح البريئة

مجسات حزن تتطاير في الفضاء كـ اسراب الطيور، جعلت ارواحهم محابس في بنصر الفقيه واصابع المحتل يلوك بها الأقدار كيفما يشاء ويخلعها متى شاء.

بدأت اسراب الحمامات تترك أعشاشها في هجرات مفتوحة، بعد أن شلت الحياة في عيون العجزة والمرضى وحتى الشباب الاصحاء، تلك الأجساد بقيت تنزف شجنا دون معين، دون سند، لا هي نفذت بذاتها مع الطيور المهاجرة، ولا هي تحررت من قيود الفوضى الدائرة في البلد. أضحت تدور في فلك المحتل في معمعة لا تهدأ كالحيوانات السائبة. قابعة في دياجير الخوف دون أن تستطيع رفع صوتها، تعيش كالديدان في الأماكن الرطبة. تحتار في تدبير قوت يومها وأمنها، حتى صارت تكره عودتها للحياة دون إرادة.

تحت تلك الظروف بقيت عائلة الجنابي تتجنب الاحتكاك خوفاً من العيشة المجهولة، محافظة على صمتها وصيامها دون أن تنتظر عيداً في مسارات الأيام أو فرحاً يرفع عن كاهلها سخط الروتين. بقيت تحارب بإمكاناتها البسيطة شتى أنواع الجهل والقهر والمهازل التي تولدت من جراء سخط الحروب، تلك التي تمثلت لها كزحف الجراد العابث بالحقول.

هذه العائلة المسالمة كانت تقطن داراً مُحَكَّمة، في قصبات مدينة المحمودية، في أرض مباركة جنوب ناحية اليوسفية على بعد ثلاثين كيلومتر جنوب بغداد. أرض معجونة بسماد الخير، ترتعش بمجرد أن تلامسها مسحة الفلاح ورفشه،

ورثها قاسم عن والده، أضحت سنده الوحيدة في الحياة بعد أن تقطعت بهم السبل.

تلك الأرض هي منهل السعادة ومصدر الرزق في السراء والضراء، فيها نمت وكبرت ذكرياتهم وهوسهم ومشاعرهم، منها شربوا قيمهم الأصيلة واستقوا ثقافتهم، غرست في نفوسهم المحبة الصادقة والألفة الحميمة والنخوة، صار التخاطر بينها وبين الأرض على أشده في تلك الأيام الصعبة، بحيث بات أحدهما يحتمي بالآخر ويتحمل وزر صاحبه، مثل الحبيب والحبيبة..

صار يزرع فيها غزل الشوق مع تباشير الصبح، فهي لا تحتاج سوى لعطف مساحيهم ومجارفهم وأيديهم الخشنة، لتربت وتنفض الغبرة عن وجهها، تتبع المعطيات الجديدة. هم بحاجة لتلك المعطيات لتزيين النفوس وجدران المشاعر بالسعادة والطمأنينة وديمومة الرزق، لمجاعة عصف التغيير الحاصل في المجتمع، فكانوا يحصدون منها ما يكيلهم ويحفظهم من كلاله الفاقة والشر الدائر في البلاد، ليحتفظوا بما يزيدهم ثقة بالحياة وديمومة البقاء وإدامة الخير بين أياديهم، ليبيعوا جزءا من المحصول لإدارة مشاغل الحياة ويأكلون الجزء الباقي منه.



قاسم الجنابي وزوجته فخرية والدا عبير

تعتبر قرية السلام أو قرية عبير التي سميت باسمها فيما بعد، أو القصبه التي يسكن بها قاسم الجنابي والمشتتة بيوتاتها هنا وهناك بين أجمة وبساتين المحمودية؛ هي أشبه بفكرة متعددة الملامح والآراء والتفسير تطفوا فوق سطح الذهن كحلية جدلية من الطبيعة. تهجس بتلك البيوتات الغائرة في عصف المروج النضرة، كمراكب صيد منتشرة في البقاع، طائفة فوق بحر واسع من سحر الخضرة المتاخمة لحدود بغداد على ضفتي شواطئ نهري دجلة والفرات، والتي تسمى بحزام بغداد الأخضر.

تلك البيوتات المتناثرة تزرع بصفة الموقع والسياحية، فهي كانت بحاجة لاهتمام الدولة بها لمسح واجهتها من غبرة الإهمال، أرض مرحة، طيبة، سليمة، نابضة، رائبة بالحسن والبهاء، ترتعش من لسعة النسائم، تعتبر كمصطاف قريب لأهل بغداد، وخاصة في أيام العطل والأعياد الربيعية حين تكتحل عيونها بالأزاهير الربيعية الملونة والشمس الدافئة والهواء العذب.

ففي الوقت الذي تعتبر كأرض خصبة تعين أصحابها على الحياة، فهي بذات الوقت تمد أجواء بغداد المزدهمة والمكتظة بالسكان والمعامل بالهواء النقي والأوكسجين، كما تعتبر مصدا للعواصف الترابية القادمة من الغرب والجنوب، مثلما هي مصدر رزق دائم لسكانها من خضار وفواكه وحبوب.

كما تعتبر مجالا واسعا لتخفيف من وطأة الضغط النفسي لأهالي بغداد، حيث تنتشر بين مروجها مواقع فسيحة للراحة والاستجمام الطبيعية، دون تدخلات البشر، كما هي مرتع لتربية لأنواع الحيوانات من الضأن والبقر والجاموس والدواجن تكون مصدرا للبيض ولإنتاج الحليب ومشتقاته، إضافة لمناظرها الخلابة ومروجها التي تضي راحة للنظر وملجأ لتهدئة النفوس.

هذه البويرة ولكبر حجمها استغلت من قبل رجال المقاومة كملجأ ضامن لحياتهم وتحركاتهم، أضحت نقط انطلاق رجالاتهم لضرب جند المحتل، ومخبأ لدفن أسلحتهم، لقربها عن بغداد، حيث استغلت للمناورة وتنفيذ العمليات الانتقامية وكذلك في عمليات الغش والاختفاء عن أجهزة الرصد التي تقوم بها القوات المحتلة برفقة الذبول من القوات المساندة للمحتل والمؤتمرة بأوامره ضد المقاومين..

لذا زجت القوات المحتلة قواتها في المنطقة بشكل مكثف، للعبث بها وحرقها إذا لزم الأمر. ردمت آبارها الارتوازية، اعتقلت الكثير من رجالات القرى، سبيت بعض النسوة بمساندة بعض قوى الشر الدخيلة التي صفت لجانب المحتل، والتي تعمل تحت مسميات عديدة من أجل فرض نفسها بقوائم طائفية لتسنم مواقع في السلطة. تلك القوى التي أصبحت يد المحتل لتأجيج الطائفية، أملا في تشتت تلك الكيانات وبعثرت تجمعاتهم من أجل أن تخف وطأة المقاومة على قواتهم وفي

السيطرة على بغداد وأطرافها، والتي صارت تنطلق منها وتؤثر بهم بشكل مباشر.

هذا ما جعل القوات الغازية تنصب نقطة تفتيش قرب قرية عبير لإدامة سيطرتها على المنطقة مثل ما اسلفنا.

تتكون دار قاسم الجنابي من غرفتين وصالة واسعة، الدار مبنية من آجر الاسمنت (البلوك) و الطابوق، بناء رصين مسلح بالإسمنت والحديد، توسط أرض زراعية تخص العائلة، تحيط بالدار طريق سابلة بمحاذات جدول مائي يمر بالمزارع قريب عن الدار. ترتع في حوضه نباتات العشي والبردي والقصب وبعض أشجار نخل بالإضافة لبستنة أعناب وفواكه تغمر المنطقة. كانوا قد بنوا خلف الدار مرفقا من طوب اللبن لتربية الدجاج والبقرة، المرفق محاط بسيج طيني بارتفاع متر يلتقي بجدار الدار من الجانب الأيسر، يوسطه باب من الألمنيوم (الجنكو)، فيما باب الدار الرئيسي رصين، يتكون من صفيح الحديد المطلي بصبغة رصاصية اللون، مصان بمزلاج قفل من الداخل، فيما أبواب الغرف كلها مصنوعة من خشب الزان القوي.

كانت تلك العائلة قد عاشت تحت ظرف متأزم مقلق، نتيجة تدهور الحالة بعد احتلال البلد وانحدار خط أمنه نحو هوة الفساد، بحيث تحول حالها من جور وفاقة خلال أيام الحصار إلى عذاب وشجن وشحة وعوز ورعب بعد الاحتلال كحال العوائل العراقية الأخرى قاطبة.

كما أن فصائل المقاومة باتت تنشط في تلك المنطقة، تسيدت الوقائع الإعلامية، لما لنشاطها من تنام ملحوظ وتأثير مباشر على ربك حركة العدو وملاحقة عناصره بعد سقوط النظام، خاصة تلك المقاومة كانت قد فرضت نفسها في المناطق السنية بشكل عام وفي حوض بغداد أو ما يسمى بحزام بغداد الأخضر بشكل خاص.

كان نظام السابق قد كدس الأسلحة في جميع أرجاء العراق قبل سقوطه، في محاولة منه صد هجمات القوات المتحالفة. بعد سقوط النظام؛ انتهكت تلك المخازن من الأسلحة من قبل العامة، أضحت متاحة بيد أبناء الشعب والمليشيات المستحدثة.

لذا أنتشر سوق السلاح في كل مكان بحيث صارت الناس تتجار به في الأسواق لخصها وكثرتها حتى تمثلت بغداد بتكساس. حينها بدأت تظهر تجمعات مختلفة هنا وهناك، بعض هؤلاء ذات توجهات دينية وأخرى ذات توجهات وطنية وقومية و علمانية، وأخرى مناوئة منقادة بتوجهات دولية أو إقليمية أو طائفية.. فظهرت مسميات لجماعات غريبة ترميزية ودينية طائفية، ترمز لبعض الفئات والجهات الفكرية، ومن خلال تلك المسميات يستطيع الفرد معرفة توجهاتها ونواياها.

ظهرت تلك التجمعات المتناقضة في وسط الفوضى مما شاعت تلك الفوضى لتعم أرجاء البلد، قسما منها مدعمة من قبل أجنادات خارجية وأخرى اعتمدت على تغذية نفسها بنفسها لتعميد أركانها، لذا ظهرت أكثر من ثمانين فرقة ومليشيا وقوى

مسلحة تدل على حجم الفوضى الدائرة في البلد. معظم تلك الفرق لها توجهات مصالح شخصية، بعضها مسيرة من قبل دول الجوار لغاية في نفس يعقوب، استمرت تلك الفرق في بحثها عن الحالة الشخصية والمناصب، والقليل منها أتبعَت الوطنية بحثاً عن مصلحة الوطن.

بعض هذه الجماعات لا تعترف بالحكومة المؤقتة كصفة شرعية، نتيجة قبولها الدامغ بالاحتلال، وبعضها تعاونت مع اجندات خارجية، وأخرى وجدت فرصة في توسيع قاعدتها ومراكز نفوذها فسارت مع التيار تنفذ أوامر الغاصب المحتل. لأنها عرفت من أين تأكل لحم الكتف. وأخرى أنظمت مع المقاومة، طفحت بعشوائية، وجدت منهلًا لتغذية روافدها وتقوية عضدها، فظهرت بشكل عصابات همجية دون منهج.

لقد برزت المقاومة من منطلق تحرير البلد من أيدي الصوص، فيما تعللت القوى المناهضة والمناوئة إلى تجريد البلد من المقاومة بحجة درء النظام البعثي، وقد كانت للمقاومة بمختلف تسمياتها شأن في بلورة الحراك على مختلف أشكاله بطرد المحتل، لذا صارت معظم التفجيرات تنسب إليها حتى لو كانت بفعل المحتل والفرق التخريبية، لتشويه سمعة المقاومة وأضعاف مراكزها والتي غدت تحظى بصفة المقبولية من قبل أبنا الشعب الوطنيين، وبصفة الكراهية والذم وعدم الرضا من قبل الفئات الأخرى المناوئة لنظام الحكم السابق.

كانت المقاومة قد عززت من تواجدها بانتماء جل أعضاء حزب البعث وكوكبة واسعة من ضباط الجيش إليها جراء قرار حاكم العراق المؤقت برايمر بتسريح الجيش والشرطة من الخدمة، دون أن ينسب لهؤلاء ضمانات عيش وحقوق تقاعدية تعويضا لما فقدوا من مناصب، بالإضافة إلى أنهم وجدوا ذواتهم بين كماشة الملاحقة والتصفية من قبل الجماعات المنفلتة بالإضافة لظلف العيش، وجدوا أنفسهم خارج قوس الدولة، جُردوا من كل مقومات الوجود والشخصية والمستقبل..

اعترفت الحكومة العراقية المؤقتة بقيادة بريمر بفعالية تنظيم المقاومة، ذلك الأمر الذي بات ينظر إليه المحللين على أنه مسوغ لقوات الشرطة العراقية المتكونة حديثا والعاملة تحت قيادة المحتل من شن هجماتها على المقاومة برفقة المحتل، وبتنظيم حملات مdahمات واعتقالات نالت الكثير من رجالات المنطقة دون حق. وقد شملت تلك الحملة معظم مناطق العراق وبالذات بغداد والمحافظات السنية المتأججة حينها، لشدة معارضتهم تواجد المحتل على أرض الوطن..

صارت تنسب إليهم تهم الإرهاب، وقد دست بين رجالات المقاومة مندسين من عناصر القاعدة والصحات التي تدعما أمريكا، وذلك لكشف عناصر المقاومة وإشاعة الفتنة الطائفية وتعميم الفوضى، تلك كانت البذرة الأولى للفتنة الطائفية التي انحدرت بعد تفجير مرقي الامامين الحسن العسكري وعلي الهادي في سامراء من قبل زمرة خارجية في 2006/2/22.

عناصر القاعدة كانت قد شنت هجمات واسعة على قواطع شُعب سنية وشيعية على حد سواء، لزرع البلبلة وتغذية الفوضى بين صفوف الشعب، قابلتها قوات تابعة للمليشيات المستحدثة بنفس المنهاج وكأنها على اتفاق مسبق... كانت القوات الأمريكية قد اعترفت في أكثر من حادثة، بوجود العديد من الفرق المسلحة، كما أُجريت العديد من الاتصالات مع بعضها لعقد اتفاقيات سلام وهدنة دون استجابة..

من أبرز مشكلات التاريخ هي قضية التوثيق وذكر الحقائق المتعلقة بالأحداث، خصوصاً في فترة معاصرة الحدث، أو الفترة التي تلي وقوع الأحداث الجسيمة، رغم وجود الشخص الحية المؤثرة في الحدث، والأطراف الفاعلة. ولكن الأحداث دائماً ما تكتب بأيادي المنتصرين المسيطرين على المشهد، أو الأقوياء الذين بين أيديهم تلك السجلات ودون ذكر الحقيقة، تسجل حسب موازين القوى، ومحاولة النكاية بالقوى المقاومة الضعيفة، لذا يأتي السرد مخالفاً للحقائق.

من أبرز المآسي التي شهدتها أمة العرب والمسلمين في تاريخها المعاصر، وربما عبر تاريخها الطويل، مأساة الاحتلال الأميركي البغيض للعراق؛ حيث كانت على مستوى الكلفة البشرية الأعلى في تاريخ الإنسانية بعد الحرب العالمية الثانية؛ حيث ذهبت بعض التقديرات إلى أن الأزمة في العراق في مرحلة ما بعد الاحتلال الأنجلو الأميركي أودت إلى مقتل نحو مليون ونصف عراقي! معظمهم من المدنيين.

وتُعتبر قضية المقاومة، وطبيعة الأدوار السياسية التي لعبتها أنشطتها المسلحة في توجيه دفعة الأمور بعد الاحتلال من بين أهم القضايا المرتبطة بهذه المرحلة السوداوية من تاريخ العراق، والتي ظللتها نكايّة الحرب، وبقيت تنكث رماد الذل على العيون. فترة أختلط بها الحابل بالنابل، أشدت بها العصف الطائفي المقيت بين السنة والشيعة من جهة وبين المقاومة وقوات الاحتلال من جهة أخرى.

تلك المقاومة بدّ تناميها كانت قد زعزعت تواجد المحتل. وعلى مرأى من الشبكات الإعلامية أضحت القوات الأمريكية تنقل جثث قتلها التي تعدت الآلاف إلى أمريكا دون أن تنبس بشفة. وكأنها تورطت في دخول المستنقع العراقي بالذات السني منه، لذا صارت تستنجد بقوى الظلام التي ركبت الظرف لتجمع قواها نحو المقاومة.



مع دخول عام 2006 كان قد مضى على احتلال العراق فترة ثلاث سنوات، حينها أصبحت عبير فتاة يافعة، يانعة، تلفت الأنظار بسنيها الأربعة عشرة ونصف سنة، حيث ولدت في أيلول عام 1991.

أضحت جذابة كضوء يجادل ريعان نشأتها، كوردة تلفت الانتباه لفتنتها الحادة. لشعشة أنوثتها النابضة في جسدها الرخامي الممشوق وضفاف سحر جمالها الأخاذ؛ كانت قد طفت بين الفتيات والملا بسر الجاذبية الذائب بقدها المياس، وبندرة تفاصيل ملامح الوجه بشكل لافت للنظر، قياساً لأقرانها وزميلاتها من حيث القوام والبهاء والطلاقة.

كانت تبدو في الظاهر أكبر من عمرها الحقيقي، أكثر الفاتنات فتنة، هيفاء، غيداء، خشنة، متألقة ومتأنقة في لبسها وشياكتها، نافذة في دراستها، رخيصة في سلوكها، تبدو للناظر كشعلة وهاجة وهي تنير مرحلة الثامن من مراحل الدراسة التأسيسية في مدرستها. حينها كانت منشغلة بعالمها وبذاتها، برقتها وأنوثتها وأناقته. تشع القابيل زميلاتها المراهقات. فترة أجبرتها على ارتداء الجاذبية والعفوية في قيافة حسناتها وتكوين ألقها كحجاب يجليها إلى مرحلة الأناء والاحترام والتقدير. جعل التميز صفة تميزها بين أقرانها، قمر يهاند النجوم، مثيرة للجدل، لما خصها الله من حسن جذاب.

كانت قد اكتسبت صفات المدنية بشكل ملموس وتمرس دون عناء، كون العائلة تعيش في بقعة محاذية للعاصمة بغداد، فالاهتمام بالذات هي قاعدة عامه وديدن كل فتاة.

ذلك ما جذب انتباه شلة الحثالة من جنود المارينز الأمريكيان، المرابطين في نقطة التفتيش المحدثّة قرب قريتهم، والتي تعتري طرق التلاميذ في ذهابهم وإيابهم لمدارسهم في داخل قضاء المحمودية..

ذلك ما دعاها تشكي أمها تحرشات جنود المارينز الكلامية وإيماءاتهم المفتعلة خوفاً من المحظور، كونهم أشعروها بفتنتها وكونها تدرك بأنهم ثلة من الحثالة المجرمون.

كانوا يتقصّدونها في محاولة كسب ودها ومحاولة جذبها لوكرهم... شعرت بوجس منهم مراراً، نتيجة تماديهم بنظراتهم الوقحة التي طالت رهافة الجسد وبهاء الوجه، وبالذات حين كانت ترنو لمراكز العلم بشغف وبراعة برفقة زميلاتها وبالذات صديقتها المقربة مريم. كانت في إطلالتها تبدو كشمس تحقن الصبح بدفء سحرها والقها الواضح، حيث تجد في مدرستها عالمها وتسلّيتها وتعليمها وحاجاتها في لضم سلسلة تكوين ذاتها.

كانت حين تسير؛ تسير بخطوات منسقة، حمامة تلفت النسور إليها، لنسق خطوات قدميها وطراوة بشرتها ولمعان ساقها، فتحرك في العيون مستشعرات النيات الوقحة. تزكم الأنوف بعبق طيبها وشذى حسنّها. ذلك ما جعل شلة الحثالة من

الأمريكان يجعلوها هدفا في نصاب أعينهم وغاية لأنفسهم
الوسخة.

باتت تتضح نيات جنود المارينز يوم بعد يوم مع تزايد تلك
المعاكسات التي تبتعتها، حيث وجدوا في تناسق الجسد
الممشوق وإذكاء الأنوثة، مرتع لإطفاء نار الشبق الملظة في
دواخلهم وخلدهم، صارت مركز جذب وتسلية يتأملونها في
جلساتهم. صاروا ينتظرون مجيئها وذهابها بعين الشبق، لما
لها من وقع في نفوسهم، بانث الفتنة تبهج قوامها، تسبر الأنوثة
في أعين معجبيها.

أخذت تشعر بتلك الأبهة والتنماز وهي تسترسل فتنها
وأنوثنها كنسائم صبح وبغفوية دون تخطيط، حتى صارت
تتدرج في مباهجها على اللسان والنوايا دون إرادة، كانت
تشعر بذلك من خلال المدح الدائم التي تتلقاه من زميلاتها
واساتذتها والمقربين منها ونظرات الشبيبة.

ذلك ما اودع في قلبها خيفة وهي تستطلع فتنها في مرآة
المعجين بها. غدت تشعر بذاتها كغصن ذاوٍ تحت وقع عزف
نسائم النفوس العطشة، تحت وقع ريح صرصرة تجتاح أجواء
حيثها البرية. غدت تصدح بتلك المحاسن اللامحة ككروان
غريب، ملفنة انظار الصقور إليها، وهي تهيم في وسط تلك
المروج كزهرة توليب مغنوجة بالجادبية، مغشية بصفرة ثوبها
المزركش بين الفتيات. أخذتها النشوة، في ذات الوقت كبر
خوفها مما يصرفه خيالها حيال شلة جند المارينز.

حينها انتبهت عليها والدتها، حذرتها من مخاطر الأعجاب
والحسد، حيث المرأة أكثر معرفة من الغير بجنسها، انتبهت
إلى فتنتها، فتغلّث بها قائلة لها:....

- في عين الحسود عود يا أبنتي، بسم الله وما شاء الله، لقد
كبرت بسرعة البرق، صرت تجذبين الانتباه بشكلك
الجميل وجسدك المتناسق الملفت للنظر، يكمن في
عينيك الواسعتين سحر غاف يرتع بهالات المساء
الغائرة في ظلالها، أرى الحسن يتلأل بواقعه تحت
نظراتك العفوية المجنة، يبرز سره في ملامح الوجه
بحيوية وألق كالشمس الصبح، كالبهجة الملظة في
ورق الشجر..

- الله الله يا ماما هيا اسمعيني المزيد من شعرك
ومشاعرك الجياشة، فأنا لا أشعر بحالي إلا من خلال
نظراتك الثاقبة..

- أراك ناهدة، ناعمة، بضّة، ترفّة، خجولة، ملهمة،
يعتصر سحرك حياء غاف في عينيك، وتلك ميزة.. يا
أبنتي كوني حذرة من عيون الذئاب المتلصصة بك في
الطرق، حافظي على هذه النعمة التي خصك بها الله
من لسعات الدبابير، البنت لا تملك شيء أعز من
الشرف والحياء المغروز في فاكهة فتنتها وسر جمالها،
فلا تعبثي بها لكائن ما.

- ما هذا الغزل الواضح يا ماما، أين كنت من قبل؟.

- كنت غير منتبهة كونك تكبرين في حضني وأمام عيني، لا أدري لم لفت نظري اليوم، لقد ميزك الله عن أقرانك، كملك بآياته، جعلك ملكة بين الفتيات، أغناك بزينة العقل والجمال، فزاد من فتنتك حبة ومن هيافة الروح حبة، فصرتي في نظري شجرة فواكه. حافظي على فواكهك، كوني حريصة على نفسك من عبث الآخرين وأوهامهم، دعي عقلك سيف على عواطفك أينما تكوني، صوني جمالك من سواد الزمن، يحفظك الله من شرر الغد.
- يا أمي أنا كلما أرى نفسي في المرأة أفكر بكلامك هذا، أحاول أن أجنب ذاتي المطبات، أبتعد عن المحيطين بي، حتى اختصرت علاقتي على مريم وبعض الطالبات العفيفات.
- هو ذاك المراد منك، لا أحد يقدر قيمة ما فيك، الحسد يقتل الصداقة ويبعثر الثقة ويرسم العقد لك، أكيد الكثير من البنات يحسدنك والكثير من الشباب يتمنوك، كوني حذرة، ولا تتبعني خط الهوى.
- نصائحك أوامر يا سيدتي، دعيني أقبلك.

كانت تلك الكلمات قد انعكست بوقعها على وجهها مبدية ابتسامة خجلة، فشرعت أضواء الكلمات تبهج قلبها وتفيض على حسن ثغرها ورقة وجناتها، فبانَتْ مزهوة بحمرة الخجل وطيف الحياء كوردة الجوري أثناء المساء. انعطفت الصورة

على تلك الشفاه الملطخة بالنار بابتسامة ساحرة، افضت عن زج
الرضاب الغافي بزوايا الفم لترطيب ثغرها. فقالت لأمها:....

- صديقتي يقلن لي أنت تشبهين أمك، فهذه الفتنة من هذا
الجمال الساحر (مؤشرة على وجه أمها)، لذلك أختارك
أبي يا فخريّة عن سائر بنات العشيرة. أكيد كنت لعوبة
فلعبت بفكره وعقله، هههههه.

- صدقت، لكن هو الذي كان يتبعني ويطلب ودي
ورضاي، حتى أرسل لأبي قوافلً من الخاطبين يرجون
خاطري ورضاي. ههههههه. حيث كان له منافسين
أشداء في المحفل، لكني أحببته رغم فرص السعادة مع
هؤلاء كانت أكبر، لكرمه ودمائة خلقه، ولكن ماذا أقول
للقسمة والعواطف؟

- هيببي.... يعني أنت غير راضية بأبي؟
- ليس كذلك، الحمد لله، ولكن هذه الحياة لا تكرر نفسها،
فأن طرأت أمامك عدة فرص، حاولي أن تنتقي
وتختاري الأنسب، كي لا تتألّمي وتندمي، فعقد الحياة
مترابطة بعضها ببعض، فهي سلسلة لا تنتهي.

كما أن أحمد كان قد شب بين الفتيان، صار رجلا يعتمد عليه،
صار شابا يافعا أبّن السابعة عشرة، إضافة لذكائه وفطنته في
مجال الدراسة؛ كان حريصا جدا على مساعدة والده في
زراعة الأرض وحرثها. أضحى مميزا في المرحلة الثانوية
بين الطلاب كطالب علم لا يختلف عن أخته عبير بشيء، بات

يشعر بأنّ عليه مسؤولية تبييض وجه العائلة وتحسين موقعها المستقبلي. حينها نهبتها الأم قائلة:.....

- كوني صديقة أخوك، سريه بأسرارك، فهو سندك في الحياة من بعد والديك.
- أنه ليس أخي فحسب، أنه صديقي يا يمه، نحن دائما نتداول أمورنا المستقبلية معا.
- أحسنت، الله يحفظكما من كل مكروه.

في تلك الفترة كانت المقاومة قد نظمت ذاتها، صارت تشد أوزارها وتنظم صفوفها وعناصرها بشكل فرق وجماعات ملفتة للنظر، وقد أنظم عدد من رجالات القرية تحت نفوذها بشكل سري، وكان ثامر وصالح وأبو فراس من بين ابرز رجال المقاومة.

صارت ضرباتها توجع العدو الغاصب المدجج بأنواع الأسلحة الفتاكة، بدأت تخترق صفوفه بأسلحة تفوق إذكاء أسلحته الفتاكة، وذلك من خلال عمليات الخطف والانتحار المتكررة التي شنته عليه بقسوة.. ترى كيف لهم أن يواجهوا من يشتهي الموت اشتناء الحياة، من جاء يقاتلهم بجسده وعقيدته ودينه، أنها قمة المقارعة، قمة الإصرار في ترتيب الأشياء.

فالمقاوم يضع الموت في نصاب عينيّه، وهو يروم الشهادة، تلك هي العقدة التي لا يمكن فلها وفهمها من قبل العدو، وهي قمة الجنون والعجز بالنسبة لأسلحة العدو وفكره. حسب

معتقدات الدين الإسلامي فإنه يعتبر شهيدا من يدافع عن وطنه،
أنه اليقين والشرف والجنة، فالوطن دار قرار واستقرار...

" (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون
به عدو الله وعدوكم) صدق الله العظيم-

على عكس ما يفكر به الجندي الأمريكي الذي جاء من أجل
ترتيب وضعه الاقتصادي، لذا فهو لم يأتي إلا من أجل القتل
والسلب والشهوات الجنسية التي تشغل باله، لذا تجده يرتعش
من اسم الموت خلال المواجهات.....

هكذا صارت المقاومة تشق صفوف العدو وتوقع به المزيد من
الخسائر، بدأت أصدااء الخسائر تعلن على الملأ في الصحف
والمرئيات. صار لها صدى في نفوس المواطنين الشرفاء
وأهاليهم في أمريكا، صار لها باع وقامة يلتف حولها أفرادا
من الوطنيين من الشعب.

أضحت المقاومة تجذب لها عناصر جدد كل يوم، حتى تشعبت
وزادت فرقها وأنشطتها القتالية. أصبحت أكثر دقة وفتكا
بالقوات المحتلة، كما باتت تزرع الرعب في النفوس العفنة من
الذين أزروا المحتل وراء المناصب والمغانم..

حاول العدو المحتل الاعتماد على النفس الطائفي والقومي
بكشف زمر المقاومة، من خلال بث جواسيسا من الخونة بين
رجال المقاومة. كان المحتل قد وصف المقاومة بالإرهابيين
والقاعدة لتفريق صفوف الشعب بين سنة وشيعة وعرب

واكراد، بحجة تنظيم القاعدة السيئة الصيت، تتبع النهج السني وفي الباطن تتبع مخططات اسيادها في بث الفوضى بتفجير مناطق سنية وشيعية في ذات الوقت على حد سواء.

لقد نجحت فيما بعد بمساعدة العناصر الجديدة التي وظبت ذاتها كميلشيات تحت إمرة المحتل دون أن تدرك بذلك. بذا صار المحتل يخلط الأوراق على الشعب، صاروا يطلقون على المقاومة تسميات مخلة غير لائقة بهم كمجرمين وقتلة، من خلال تفجيرات افتعلها المحتل اسوة بالقاعدة بين الأحياء المختلفة الشيعية والسنية. تارة يتهمون بها رجال المقاومة، وتارة الميلشيات المستحدثة الشيعية، وذلك حسب مواقع التفجير، وحسب ديمغرافية البلد لزرع الفتنة الطائفية..

والحقيقة الجندي الأمريكي جاء دون رغبة، لا صالح له في ذلك، لذا لا يمانع من أن يبيد العشرات من الأبرياء لمجرد شك يطال ذهنه، أو بمجرد أن تطرق أذنيه صوت أزيز رصاصة عابرة. لذا أضحت المقاومة تتجنب ضرب جُنود الاحتلال في الأماكن العامة، كي لا توقع ضحايا بين الأبرياء من الناس، من نساء وأطفال وشيوخ لا طاقة لهم، هؤلاء الذين يحتمون بهم الامريكان والبريطانيين في الشوارع.

كانت قد حصلت مناوشات في مواقع عدة، تم قصف تلك المواقع من النقاط المحدثه للعدو بالأسلحة الفتاكة وعن بعد، راح ضحية تلك المواجهات أبرياء في الأعظمية والدورة ومدينة الثورة والشعلة وفي ديالى والفلوجة، لذا تجد المحتل

يتجنب الاحتكاك ويتصرف على ضوء الاحتمالات الأكثر أماناً! أي بمعنى آخر؛ أنه يفضل الإبادة العشوائية الجماعية على المواجهة الفردية، فهم ليسوا أصحاب قضية أو مبدأ، معظم قواتهم مكونة من مرتزقة تجمعوا تحت راية الدولة من أجل المادية والسرقة، أو من أجل نيل الهوية الأمريكية.

لذا تجد احصاءات قتلاهم فقط تخص هؤلاء الذين يحملون الجنسية الأمريكية، أما القتلى من العناصر المرتزقة الذين جاءوا من أجل السرقة ونيل الجنسية الامريكية، فإنه يفوق عدد قتلاهم أضعاف ذلك.

ضعف الإمكانية القتالية لدى المقاومة ناجمة عن ضعف أسلحتهم التقليدية أمام الماكنة العملاقة الغربية، الفتاكة. إضافة للاختلاف التكويني للمجتمع العرقي العراقي، وانغماس جزء من هؤلاء إلى جانب المحتل تبعاً لما تركه النظام السابق من تركة بحق القوميات والطوائف بشكل عام، والتي وجدت في معارضتها للحكم السابق سبباً لتتخذ في صفوف قوات الاحتلال، لأجل نيل مطالبها وتوسيع مجال أفقها في عالم السياسة والدين...

لذلك تفرق الشعب، بين مؤيد ومعارض ومقاوم حسب اختلاف الأيديولوجية والطائفية، ذلك ما أدى إلى ظهور فرق عديدة من الطابور الخامس بين صفوف الشعب، أوشكت بتحركات المقاومة ونشاطاتها وحجمت من فعاليتها لصالح مصالحها وصالح المحتل.

كانت المقاومة قد حولت حياة جنود الاحتلال لجحيم. حيث الحياة دون تضحية لا ترتقي إلى الإباء، ينبغي أن يعيش الإنسان عزيزاً مكرماً في وطنه، يجب أن لا نخضع للمحتل الذي لن تهمة مصالحنا ولا يهتم بعقيدتنا وشؤوننا إلا بقدر استفادته وسرقته خير اتنا.

لروحية الانتقام والمعنوية العالية صاروا يببرعون في خطط صيد جنود الأمريكان والإنجليز. لتلك الروح القتالية العالية، تمكنوا من قهر أسلحتهم الفتاكة، حتى غدت الأمور تنعكس صورها في الشارع الأمريكي....

أذكر حالة اختطاف تعرض له جندي أمريكي من المارينز، حين كان يقف في وسط جموع من البشر في أحد شوارع بغداد وهو يتصل بقيادته، وقفت خلفه عجلة باص صغيرة ذات عشرة ركاب، نزل منها جنودان من أبطال المقاومة مفتولي العضل، وقد تمكنوا من تكتيفه وتجريده من سلاحه وإكماله ومن ثم سحبه خلال ثوانٍ من بين رفاقه لداخل العجلة دون ضجيج، وما أن أغلق باب العجلة الجانبي؛ حتى انطلقت به في مسارات الطرق، غائرة في شوارع بغداد، تاركين رفاقه في ذهول مشتتين وهم يبحثون عن صاحبهم دون جدوى.

هكذا كانت الجرأة ماثلة في قلوبهم والحكمة ماثلة في أذهانهم، في مقابل قلق وخوف قابع في قلوب اعدائهم من المارينز.

أصبح النصر المؤزر الذي تغنى به رئيسهم القذر (بوش) المعلن في يوم 2003/4/9 في خبر كان، تحول لهزيمة نكراء

أمام أصرار المقاومة على التحدي والمتابعة والمواجهة خلال السنوات اللاحقة، صارت طائرات الأباتشي وطائرات النقل، تتقل جثث قتلاهم بشكل يومي وبالعشرات، وخاصة من بغداد وضواحيها.

من جهة أخرى غيمة الشؤم ظلت تمطر أجواء العراق بيؤس الأخبار من شماله حتى جنوبه، تلك الأنباء كانت تدوي بين صفوف الشعب بالتفجيرات التي صاغت مرافق الحياة، والتي صار يسمع صداها في الأزقة والشوارع، وفي محابر القلم، وفي أتراس العمل، وفي صدى النفوس والفكر.. حيث تلاطمت موجات تفجيرات المقاومة بتفجيرات القوى المندسة تحت راية السلطة، بتفجيرات المحتل الغاصب بذات الكيفية.. نالوا ما نالوا خلالها الأطفال والنساء والكهولة حصصهم من تلك الأحداث الجسيمة بشكل مخزٍ.

أيّما تذهب تجد للحرب أثر معتبر هنا وهناك، تشم عطن الجريمة في كل مكان. صبغة الدم لاكت المرافق، سادت الأجواء، لطشت جدران المساجد والكنائس ودور العبادة بأشكالها ورموزها من خلال التفجيرات المتتالية التي لحقتها، وتلك التي شملت المدارس والملاهي. خارت وتوسعت المسافة بين الطوائف فانجرفت خلف الشعوذة والدين باحثة عن ملجأ لها، حتى تغطمط الشك وانتشى الخوف بين الازقة والشوارع وداخل حدود الأسرة الواحدة.

هكذا تفشت الفوضى، انتشر الهرطقة بشكل عام وعبثي بين صفوف الشعب وبالذات عند ذوات العمائم السود، كثرت البدع وزادت قصص الخرافات في الانتشار لتعلق على النفوس والأفكار بشكل مدروس من قبل أجندة خارجية خططت لتدمير الفكر، طفحت العقد وتكشفت المفاصد وتعاضمت الفرقة بين صفوف الشعب لاختلاف المذاهب؛ حتى اشتدت أجراس القلق في نفوس البعض على تقسيم العراق. هكذا صارت المفاصد تتسع وتلتصق بشرذمة السلطة لتزيد من سلطانها ومردودها العكسي، لقد تفننوا بسرقة الدولة من خلال سرقة الفكر والتفكير والأمل والرجاء.

لقد تحملت الحياة أعباء الفوضى دون مشيئة أحد، غدت أماكن الصلاة تعتمر بالأشجان والأدعية والتراويل الكنسية والجنائزية، فيما تلاشت المراقص والنوادي والمقاهي والمباغي من الطرق لتعود بشكل آخر تحت غطاء مستتر بعد أن لحقتها التفجيرات في عقر مراكزها، لتقوم فئة البغي بافتتاح مزارات لها تحت غطاء الدولة، أنتشت العتمة في الأجواء والوجوه، بسطت الأوجاع على الأبدان، أضحت خطط الفساد الديني والأخلاقي، وخطوط التنافس على المراكز الدسمة، شبه متوازية في ميدان النفس، ومتفاوتة بين الفئات المتبارية حسب إرشادات المحتل.

خطان من العند والكرهية رافقا وجود المحتل، حيث طالبت يد الباطل المدعمة من قبل المحتل شأنا ورفعته عن أيادي الحق المنسوبة إلى الوطنيين. أضحي لنصاب الحق لفائف من العقد

يصعب فك نسيجها، بسبب صنف الدهاقنة المندسين بين صفوف الساسة وخدم الساسة المتعجرفين الذين يبيحون الفساد في حوض الوطن. صارت العقد تتشابك كخيوط العنكبوت، تنتشعب في حياة الفرد، مثلما التفت على قدم المحتل وعناصر الحكم البريمري المهلهل، التفت على أقدام الوطنيين والمساكين والغارمين والركع السجود من أبناء الوطن.

أضحت الحالة الجائرة، سائدة، كالحمل في الجسد. كانت المقاومة قد امتدت عروقها لمعظم أرجاء الوطن بمدنه وقراه، بينما تركزت في بغداد والمحافظات السنية لايدلوجية الفكر المناهض للمحتل. صارت القوات الأجنبية تخاف ظلها في تلك المناطق، فلا تمانع من قتل شيخ أو طفل أو امرأة إذا ما صادفوه في طرقهم، لدرء الخطر ولتجنب مفاجآت الطرق غير المتوقعة... صارت الألغام تتفجر تحت عجلاتهم، تترصد حركاتهم، تتربص بهم، مثلما صاروا يتوجسون من الخيال والظلال خيفة.

حين حاول عبدالهادي تجاوز رتلا من ثلاث عجلات همر لبطء سيرها وهو القادم من البصرة لبغداد، رفع جندي البريطاني قذيفته مصوبا على عجلة عبدالهادي، محذرا إياه من الاقتراب أكثر من اللازم، حينها صرخت زوجته عليه قائلة:....

- دخيلك لا تتهور بعجلتك، دعنا نتأخر ولا هذا الكلب يغدر بنا.

صارت تلومه على عجلته وهي في وضع نفسي مضطرب.

هكذا صاروا يتوجسون خيط الخيال، لشدة بأس المقاومة التي أنظم لها جنادها من الوطنيين الأشداء، أصحاب بأس وقوة والايمان والدين، حتى صارت المقاومة تقتحم عليهم مواقعهم مثلما تتصيدهم في الطرق كالجربيع. كانت الفلوجة بؤرة المقاومة شاهدة على التاريخ.

جنود الاحتلال لم يراعوا القواعد التي صيغت ووضعت من قبل الأمم المتحدة لخدمة الإنسانية أثناء الحرب العالمية الثانية. هذه القوى الغاشمة، المحتلة، المعبئة بالعيوب، والمهترئة أخلاقها، لا يزيدها سلاحها الفتاك سوى فتكا وعجھية وقرفا بين العامة من الناس، سوى عدم احترامها لعادات وتقاليد وعقلية الشعوب المحتلة أراضيها؛ لاستهتارهم بهم وعدم درايتهم بماهية تلك الشعوب المغتصبة أراضيها وطبيعة أخلاقها، لذلك تعقدت الأمور سواء من الناحية النفسية أو الأخلاقية أو المادية.

هناك ما لا تفهمه من أسرار الشعوب، وما لا تشعر به بتاتا- خصوصا تلك الماهية التي تتجذر بثقافتهم وقيمهم وأخلاقهم، حيث الأنا التي يتحلى بها كل فرد من أبناء الوطن والموروث الحضاري السحيق والوطنية البراقة التي تربي عليها، وبهرجة الثقافات المتعددة، وعمق الموروث الديني وبالذات الإسلامي منها؛ تلك الجذور العميقة في مبادئها وقيمها وأخلاقها- هي

التي أوجدت الفارق بين الغاصب الفقير الحافي والمغتصبة أرضه العفيف الغني الشريف.

تلك القيم هي التي زرعت العقد في ذهن المحتل، لجهله وضعفه وفراغ ذهنه، حيث أنا الفرد العراقي هي أنا خضراء، لا يؤثر بها طقس ولا نار ولا زمن، مستخلصة قيمها من زبد إرث الموروث العقائدي والديني والثقافي، من رس الحضارات العريقة عبر آلاف السنين، تبقى تلك القيم شاخصة بالعراقي كالنار الأزلية، تلمح الوجوه القبيحة الحاقدة والحاسدة لأرثنا وخيراتنا. لذلك عندما احتل العراق جاءوا بشرذمة ليس لها علاقة بالعراق ليحكموه ليكونوا عوناً للمحتل.

تلك السمات العريقة مغروسة في خلايا الجسد، أشبه بجينات الوراثة خص بها الله الشعب العراقي، جينات كونتها الطبيعة والتاريخ والتربة، تولدت مع أول بذرة وضعها الله في أحشاء الأم، جرت في عروقه كالدم مع عمق الوجود. فهي سليلة الأنبياء وحضارات وأساطير موروثية، تلك هي صفات المتجذرة بنا، صفة ليست مكتسبة، مثل لون العين والبشرة يتغنى بها العراقي، ويشرب منها الطفل، كالحليب لبناء الجسد والعقل.

الأسطورة تقول بأن العراق هو مهبط آدم بعد أن جرده الله من نعم الجنة، وهو مهد النبي أدریس ومهد نوح ومهبط نوح بعد الطوفان، فيه دفن وقبر هو وأبنة النبي شيت، وقبر النبي یونس وذو الكفل وأیوب، وفيه ولد أبو الأنبياء خليل الله النبي أبراهيم

وزوجته ساره في مدينة أور في محافظة القادسية، وهو مهبط الملكين هاروت وماروت في بابل كما ذكر القرآن، وفيه عاش نبي الله دانيال في بابل، وفيه ظهرت فكرة الديانات، وفيه جذرت الإسلامية والمسيحية واليهودية والصابئة والأيزيدية.. الخ، وفي العراق قبر رابع الخلفاء الراشدين الولي علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، وقبر سيد الشهداء الحسين ابن علي وأخوه العباس أبو الفضل، ولا يخفى على أحد حضارة سومر وبابل وأكد وآشور و... الخ من حضارات وعصور ذهبية مرت على العراق، وفيه العصر الذهبي للدولة الإسلامية حين كانت بغداد عاصمة الدنيا ومنبر العلم وعاصمة الثقافة والمجد لإمبراطورية تمتد من الصين لجنوب فرنسا لأواسط أفريقيا، مدينة السلام وقبلة العالم....

كل ذلك أشرب من لبنه ابن الفرات ودجلة عبر آلاف السنين.

انتمائه للعروبة، وتشربه من قيم الدين وشرائع الله والعادات والتقاليد الأصيلة، غدى طبع فيه، غدت عجينة مختمرة في ذاته، غدى طبعه كطبع الإسفنجة، تمتص الشوائب دون أن يتغير لونها ورونقها، والعراق هو أصل العرب كما يثبت التاريخ في جذورهم السومرية والآكدية والبابلية به شرع النحو وقواعد اللغة ونقطت الحروف وسويت المبادئ، لذا ترسخت مبادئ البداوة والحضارية في الفرد العراقي لتمييزه عن غيره بالفكر والكرم والشجاعة والإيثار.

للقليم الأنفة التي ورثها عبر العصور دور في رسم شخصية الفرد العراقي الفذة، النرجسية، حيث دائما ما كانت الأقدار تضعه في المحك، حتى اشرب من تجاربها المر والشهد، تعلم الصبر على النائبات، تحمل الويلات دون أن تחדش طبعه الأصيل، لذا تجده يرى ذاته فوق البشرية.

كان قد أكتسب طبعه من طبع الزمن الغارب ولجة المصاعب وبرد شتائه ونار صيفه، تحمل المهانة والذل دون أن يكسر عوده الصلب، تمرس على الصعاب كنمر أرقط، دائما ما كان يخرج من المحك أكثر قوة وصلابة...

لذا فهو دائما ما يتواجد في المحك، دائما ما يكون على تماس مع الحدث فيما يخص الوطن الأكبر، على استعداد من أن يضحي بدمة وماله على أن لا تصاب الأمة بالضعف والهوان، على أن لا يسمع أنين شيخ أو امرأة حرة جراء ذل أو مهانة، أنه ابن تربة نقية، ابن قيم أصيلة، بذوره ملئت الشرق والغرب قيما وعلماء وعدلا منذ فجر التاريخ، يكاد لا يوجد رمز في العالم إلا وأن تكون جذوره عراقية الأصل إلا ما ندر.

لذا صارت المقاومة شرسة - بحيث لن تمر عجلة همر في شارع ما، أو مدرعة أو عجلة نقل؛ إلا وأصابها لغم أو رشقة رشاش.. ناهيك عن رشق الهواوين الثقيلة والخفيفة التي صارت لا تبطل زعيقها على مواقع العدو اينما وجدوا، إضافة لتفجيرات الأحزمة الناسفة على تجمعاتهم.

هكذا جعلوهم يلعنون يومهم الأسود الذي قدموا به للمحرقة التي أشعلوا نيرانها بأيديهم، وأشد ما أزعجهم هو ذاك السلاح الفتاك المعد بالأحزمة الناسفة. قمة التضحية والبطولة حين يمتلك عدوك سلاحا فتاكا ولا يستطيع مواجهة من يأتيه وهو يحمل كفنه بيده، حيث تتغلب الإرادة والعزيمة على الأسلحة الفتاكة، سلاح عقيم لا تنفع معه التكنولوجيا المتطورة. باتوا يلوكون في وحل الحيرة التي اصطبغت بدمائهم النتن.

أذكر حادثة حصلت في مدينة جلولاء، بعد أن أطبقت القوات الأمريكية يدها على احتلال العراق، وبعد إعلان كلهم الخنيث في واشنطن النصر المؤزر عبر أثير الأعلام، نزلت مجموعة من جنوده إلى السوق لتتبضع، كانت قد رصت آلياتها على الشارع العام من دبابات وعجلات، كانت بحدود عشرة آلية عسكرية، كما يقدر جنودها وضباطها بأكثر من 30 مقاتلا...

داهم هذه المجموعة شاب فقير برمانتين، فقتل منهم اثنين وجرح اثنين، قبل أن يقتصوا منه ويردوه شهيدا.... هذا الشاب الهادئ الدمث الخلق، المغموس بالبساطة والطيبة؛ ليس له سوابق ولا مشاجرات ولا له انتماء لجهة ما، ولا مشاركات في قضايا الفساد، شاب يافع أبن العشرين من العمر، لم يستخدم السلاح من قبل ولم يدخل لصفوف الجيش، إنما دفعته غيرته للنيل من المحتل.

لن يصدق أحدا بأن يكون هذا البطل هو إبراهيم ابن الزبال حنتوش، أبن رجل فقير جدا، يعمل في دائرة البلدية لكنس

وتنظيف شوارع المدينة.. ناهيك عن قناص بغداد! الذي جال
وغال فتكا وقتلا فيهم. ناقما، شافيا، بحيث لوحده تمكن من جز
أكثر من 645 رأس عفن من رؤوسهم، ولم يتمكنوا منه حتى
أعتقل بشكل عشوائي ومات داخل السجن بمرض السرطان
الذي كان قد أصيب به دون أن يعرفوا شخصيته.

ملحمة عبير



لم تكن عبير قاسم سوى فراشة تتغنى بالزهور، تمرح في المروج مع الطيور، هيفاء غيداء، تداعب ملامحها في المرأة صباحًا ومساءً. تسرح في حقول مفاتنها، تهيم بابتسامتها الوضّاءة، ترصّع وجنتيها بحمرة شفيفة، كميلة تعنى بألق قوامها الرشيق، شهلة العينين، حاملة كالمراهقات، هائمة في بحر الخيال، متألمة جمال أحلامها. تداعب ذاتها الأسيرة، ترنو إلى حياة سميرة، تتأمل صفاء الأيام والساعات، تتغنى بالنخل والزرع والفلاة، تهجس أن وجودها ضرورة، لتضفي على الحياة فتنّة تفتنها.

هكذا نشئت ورده متميزة بين الورود، ترتع على ضفة جداول العاطفة بين فتيات القرية، هجست بفتنتها قد لمست ذاتها، حين وجدت ألقها وجاذبيتها تتلأأ بعيون الغير بصفة التحدي. شعرت بالذات ترقص مع مروج السنابل، مرحلة، جذلة، حبورة، كأنها كوكب.

في عملها مع والديها غمرتهما سعادة من لون الحياة، بلون الخضرة المتدفقة في المحيط المفتersh، بسحر جني الثمار والرزق، بحيوية العنب والرمّان الريان، والحمضيات المقتطفة من بستانهم الصغير، بشموخ تلك الأشجار المزروعة في حوض مجرة بغداد؛ حتى وجدت ذاتها قد أخذت فتنتها من طيبة الأرض وسحرها وهواها، أرض مباركة، كفكرة لمحة غزلت أعين والديها ومحبيها. ما أن شبت حتى غدت صيغة

متكاملة لجملة شعرية، تبهر من يدقق النظر في وزنها وقوافيها... ما أن شُبت؛ طفت فتنتها تميز وجدان من ينظر بوجهها، غدت عقدة في الوسط تميد السحر والتفسير، طرأت ترتجي عالما فسيحا من الهدوء والاستقرار، غافية في طوية الزمن كالأسرار.

برهاقتها برقت في عيون الناس كصورة شعرية نابضة في الوجدان، حالة غريبة شغلت رفيقاتها اللاتي انشغلن بفتنة ملامحها الندية، غدت تعابير رقيقة في ندى الشوق، بل صارت حلقة صمت عند الكثيرين من الشباب شغلت تفكيرهم، للأناة والورع والحلم الكامن فيها، إضافة للسحر القابع في وجهها، لذا شغلت فكر وظن المتأملين من الوالدان والمحبين والمعجبين بها.

ما أن كبرت وشبت حتى طالت بدلالها النخل، نبتة مغنجة بالألق، مدللة، سعيده، ترتدي البراءة المزركشة مطرزة بغنج الوالدين وأعجاب المقربين. ملهمة بالبهجة والفرح والضحكة الرنانة الصدحة بصوتها الكرواني، وخاصة في مناشدتها طيور البراري المهاجرة التي تحط بين ظهرانهم بين الحين والحين كالحرير واللبع والقلق والسنونو والعقعق، صارت تغدق بغريد العنادل وتهدل بهديل الحمام والطيور الصادرة، تمرح بعشق الهداهد والشقراق للحياة، تسرح بغزل الوروار وطيور الحب للورود، هكذا صبغت روحها بلون محيطها من شجر وزهر وطيور وخير، جعلت من ذاتها فصل ترافة ولهو بهيج.

في مشيبيها تهجس بتبختر واضح مغنح بالألق كاللمعة
المغنوجة في الجوهرة، كبريق النجوم الناهدة في جوف سماء،
ذلك الودق البارد لدنّ ملامحها بالجابية، صبغ شفيتها الندية
بحمرة الخجل، طلا عينيها بظلال الحياء، صارت تقدح الفتن
كالقداح، تقحم خلجات النفوس المظلة كشمعة، بتلك التنهدات
عبرت النفوس، لصفة السحر المعتاد.

مع تواتر الأيام تخطى شعاع الألق حاجز القرية، لتقدح شرر
فتنتها في عيون ستيفن ورفاقه من جنود المارينز في نقطة
التفتيش القريبة من القرية، هؤلاء اللذين ناصبوا القلق
والشبق والرغبة.

مع مرور الزمن، ارتقى حسننها درجات الحسن، أخذ الطول
ويشتط بقامتها، والحسن ينبثق من زهر مفاتنها، فبانت في
العيون الشبقة كغصن بان. تزينت باللدانة والرقعة والجابية،
اختزنت العذوبة في صرة بشرتها المائلة لسمرة شفيفة، حتى
صارت بين رفيقاتها تسطع ككوكب دري، لمالها من درر
مبثوثة كزينة في معالم وجهها المنسق، والمصاغ بمقاييس
الفتن الدقيقة... شعرها الفاحم أضفى هالة من الحسن والجابية
على قامتها، لترتقي بشفيف سمرة بشرتها درجات السمو
والألق. غدت في نظر الجميع آية من الحسن، كشمس تضيء
النفوس...

مثلما شغلت الناس بفتنتها؛ شغلت قلب أسعد بذات الفتنة؛ حتى
غص في داخلها كالسر المكنون في الجابية. مثلما هيجت

نيران الشبق في قلب ستيفن المسؤول عن حضيرة جنود المارينز في نقطة التفتيش الامريكية، الذي أصر مع رفيقه على النكاية بها، كونها لا تعير لاهتماماته أهمية.

حين أحتلت القوات الأمريكية البريطانية العراق، كانت تحمل في نفاسها شذى حلمها الجميل لغدها القادم، ركبت مركب الخيال الذي جال بها في اروقة المستقبل، خيال أمتد بها لسقف الحلم الذي أنبرت صورته تتنهد في الحلق، وذلك حين حلمت بيوم زفافها لحبيبها المؤمل، وبخرجها من الجامعة بتفوق... أحلام الاعتداد بالنفس رافقتها، صاحبها، رسمت لها لوحة الغد مشرقة، جعلتها شمعة تسرج صفحات محبتها وعائلتها بمستقبل بهيج.

على مضي سني عمرها الفتى ووعيها النابغ؛ نظرت بعين اللطف لقامتها بين زميلاتها وبعين تائهة ظلت ترتاد طرق الظن والأحلام تبحث عن مسارات أهدافها، هكذا بقيت تلوذ لود الجياع بين أجواء الوطن المتقلبة والمتدحرجة، تتأمل تسلق سلالم الغد بالعافية والإيباء.

هكذا كانت تعيش تحت ظلال أحلام سادرة تتلاعب بها ريح صرصرة منبثة من اجواء الوطن، أحلام بسيطة، لكنها عميقة تغمدت الذات، تهجس بها كنبيض نجوم بعيدة المنال، بعيدة عن جادة الواقع، لكنها قريبة من الناحية العملية والفكرية والفلسفية، فهي أقرب من حبل الوريد لذاتها، تكاد تلتمس ثنايا النجاح وأفق بروجها بروحها العفيفة..

حينها كانت لاتزال يغطي جلدها حشفة رقيقة من بُردة البراءة والألق، لم تزل فكرة، صغيرة، لم تتجاوز مرحلة الوله، الاحلام خفيفة كفراشات تطير أمام حدقات العين مع هبة الريح، عصافير تنتقل من غصن لآخر تبحث عن شجرة تأويها من الخطر...

كانت في الحادية عشرة ربيعاً، حين حصلت على درجات التفوق في النصف الأول من السنة الدراسية للعام الدراسي 2002-2003 ، كان ذلك قبل أن يحل الاحتلال البغيض بشهرين، تميزت على مستوى صف الخامس الابتدائي في مدرسة الخنساء الابتدائية... لتفوقها وتميزها، أهدت لها إدارة المدرسة مجموعة قرطاسية وأقلام وكتب ورزنامة احتفظت بها كدلالة على تفوقها من جهة، وكدافع معنوي لتزيدها إصراراً وشطارة، تشد من أزرها في مواصلة التميز بين التلاميذ من جهة أخرى..

دائماً ما تنظر لتفوقها كدلالة عز وافتخار، تجهر بالتباهي بنفسها، حالة نشوى فاضت في جوف مشاعرها الرقيقة، ذكرتها على أنها طالبة ذكية يجب الاهتمام بها، كنوع من التعبير الطفولي وكدلالة ملموسة عضدت بها طفولتها ومكانتها بين والديها وأخوتها.

احتفظت بالأقلام والدفاتر وعلقت الرزنامة على جدار الحائط تحت ساعة جدارية ألمانية أنتيكة، رقاصة، نوع (جراند فازر) في غرفة المعيشة، وكانت تهجس بعلاقة حميمية مع تلك

الساعة رغم قدمها، لما لها من أرث في شكلها ومنظرها وصوتها من حنين تشدها إلى طفولتها - فحين تنظر لها كانت تتأمل عالمها ومستقبلها وتفوقها، جعلتها ترتبط مع الوقت بأصرة حنين ومحبة. دائما ما كانت تردد مع ذاتها " الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك".

فيما بقيت تلك الروزنامة دليل شطارتها، تذكر الآخرين بها متى ما تمنعوا بالساعة لبيان الوقت.... لقد شعرت والدتها بذلك، أثنت على ذكائها وشحذتها في مواصلة تفوقها، لتبقى ككويكب ملفتة للأنظار في دائرة محيطها. فقالت لها:....

- حبيبتي يا عبير، أنت ذكية جدا، وأنا أرى النور ساطع بين عينيك، وأرى لك مستقبل باهر مرصع في جبينك، واضح المعالم، يعتلي القمم.
- شكرا يا ماما، ها.. ماذا خطر في بالك؟ أوضح لي ما وراء ذلك؟...
- مستقبل مشرق بأذنه تعالى، له خطوط واضحة كخيوط الشمس، في ظل مخك النظيف وشخصيتك الرزينة.
- وأين الهدية؟ كل ذلك الإطراء دون مقابل..
- ألم اقل أنك ذكية، مهما صعب الزمن سيلين ويتأين أمام قدراتك، لأن الشخص هو الذي يحدد مستقبله بنفسه وحسب قدراته وبعد تفكيره. أهنيك على دقة تفكيرك وقوة ملاحظتك ورفعة أخلاقك، فأنت ذي أناة وإمعان، ذلك ما يجعلك سليمة الذهن. لو استمررت على شاكلتك بهذا الأسلوب والسلوك والحلم وأنت تبحثين عن لغز

الحياة بمسلك الشطارة؛ ستتألقين الغد ببسر، وستتألقين بين زميلاتك؛ ستمسكين بقبس الشمس، سترسمين خارطة مستقبلك بأنامك الترفة وبنور عقلك النير، سيكون لك وهج عظيم يغطي على وهج الجميع كما هي الشمس حين تبتلع النجوم في وضع النهار.

- وانا على وعد سأكون عند حسن ظنك.

- وأنا على يقين من ذلك، أهجس بمستقبلك ماثلا أمام عيني، أني فخورة بك، وسيفتخر بك أبوك وأخوتك وأهل القرية، لأنك نبع صاف متدفق من حنايا الصدق، يسقي عطش محبيك. أني أدعو الله أن يأخذ بيدك لبر الأمان، فقط كوني حذرة في تعاملك مع الآخرين، لا تتخط المحاذير قط. خوفك على نفسك هو أول درجات سلم النجاح، ثم بعد ذلك اهتمامك بكتبك وبابسك ونظافتك وترتيب أشيائك وحشمتك، أني التمس صفائرك الحلم، بل أعيش في كنفه. أهتم بنفسك؛ سيهتم بك المجتمع أيضا. أتمنى أن أراك شخصية بارزة في المجتمع، لها ثقلها بين الناس.

- شكرا ماما، لقد غمرتني بعطفك، أغنيتني فرحا وسرورا، جميل أن يرى الشخص قامته بين عيون الآخرين، فما بالك إذا مارأى ذاته بعيون الكامرة الحساسة، أعني الأم الحساسة. لأنك أكثر الناس صدقا معي وأقرب الناس إليّ يا كامرة ههههههههه، فأنت تدركين جيدا طموحي، وتلتمسين قدراتي العقلية والذهنية والبدنية، تحبين لي الخير.

- أكيد فأنا امك، وأفتخر بتربيتك. وللعلم هذا رأي أبوك أيضا.
- أنت لك دورا كبيرا في ترتيب أشيائي وبروز عقلي، وتنعيم ذهني، وأبي نادرا ما أجده يهتم بخصوصيتي، لكنه متابع جيدا لإرهاصاتي وحركاتي.
- هم الرجال هكذا قليلي الكلام.
- انت الأول في حياتي، بيدك الحنونة تسرحين شعر رأسي يا كامرة. ليدك وقع السحر في تهذيبي وتدريبي على الحسنى، شكرا لك يا أعظم أم، يا أغلى كامرة هههه... أعدك بأني سأستمر بتفوقي، أتمنى أن أحصل على أعلى الدرجات لأكون طبيبة أو أستاذة جامعية أو مصلحة اجتماعية كما تتمنين، لأفرح قلبك، وربما أكون وزيرة، فاللاتي أصبحن وزراء لسن بأفضل مني.
- يوم المنى يوم أن يكون لك شأن في المجتمع، أنشاء الله يا بنتي يتحقق مرادك، إذا ما تمنى المرء سيبنى خطوات أمنيته بتمهل ودقة حتى يصل للهدف المراد، ربما يكون طريقك طويل، لكن تأكدي بأن كل الطرق هي قصيرة أمام الإرادة والعمر، وكل الطرق تبدأ بخطوة.. وها أنت قد ابتدأت مشورك وتجاوزت الحلقة الأولى الأصعب في حلقات المشوار، ألا وهي حلقة الثقة بالنفس، هنيئا لك على ثقتك العالية بنفسك.

كانت عبير قد عودت أن تقطع ورقة تؤرخ اليوم الفائت من رزنامتها المعلقة في وسط الساعة الجدارية مع تباشير صبح كل يوم جديد، وقبل وجبة الإفطار؛ لتعرف جيدا انزلاق التاريخ في الفترة الحرجة من عمر العراق، وعمرها الذي بات يمر على الأذهان دون أن يراعى له أهمية، أو إمعان..

لذا كانت منذ أن تجاوزت العاشرة من العمر وكما علمتها الأستاذة نوال في مدرستها أن تدون التواريخ المهمة في دفتر ملاحظاتها، لتتذكر الوقائع الشخصية التعبيرية والعامّة والمهمة في حياتها. ففي عملية تدوين التاريخ وتسجيل الملاحظات البارزة؛ فأنها ستذكر الذات بالأقدار وتنعم الذهن بما فات، تدون الوقائع كي لا تنسى.....

تكمّن في العملية دوافع ذاتية لمعالجة كل ما تفرزه الأيام من منغصات، عسى أن تعالج ثغرات حياتها بذات الكيفية وبالممكن من الذي تستطيع بها أن تنعش ذاتها. عسى أن تلم بكل ما يرافق تقلبات ظروف الناس، تلك التي باتت تزيد من الضغوطات على النفس المقيدة.

بدأت الحياة تتحدر على مستوى الفرد والمجتمع في ظل الحصار المفروض على البلد من قبل دول التحالف، أضحت في تراجع مستمر على مستوى المعيشة للفرد مع ازدياد خط الفاقة والفقر من الجهة الأخرى لعتلة المعادلة، مما ولد حالة اختناق شبه عامة.... ما عادت تطفح البسمة على الوجوه ولا الخضرة تسيد البسيطة، هناك نقص حاد في منسوب الأنهار

والجداول عما كانت عليه من قبل، حتى نفضت البساتين ثمارها وتقلصت أعدادها وبالذات اشجار النخيل التي نضبت، فيما الأشجار قد نضت خضرتها للتوافق مع التصحر الممتد في كل ما يخص الحياة على ارض الوطن. نتيجة انشغال الناس بالحرب وتدبير لقمة العيش متحدية قسوة الظرف...

كانت عبير قد ولدت بعد حرب أم المعارك أو عاصفة الصحراء كما يسميها الحلفاء بأشهر، نشأت خلال أيام الحصار على الفاقة، رغم صغر سنها قد تعلمت بعض المصطلحات البغيضة من ظرف الزمان والمكان مثل: الحرب، الحصار، الشحة، الفقر، الجلد، القحط، الشهداء، الرعب، الفاقة، العدو..... الخ من كلمات بغيضة... كانت ترتعب في داخل نفسها من تلك المسميات التي تطرق أذنيها وخاصة تلك الأحاديث الجانيية التي كان يتطرق لها الوالدان أحيانا في مراجعة شؤونهما وشؤون البلد، في مراجعة شرور الأحداث الدائرة حولهم وبين أبناء الشعب من حين لحين، يزعجها، يؤرقها.

كان والدها قد شارك خلال حرب إيران، حاله حال معظم العراقيين ولسنوات عدة، حتى كلت طاقته، ثم أقحم كجندي في معركة أم المعارك في الكويت، ولم يسرح من الجيش إلا بعد أن إنهار سور الجيش واستسلمت وحداته للقوات الغازية، وذلك بعد الانكسار والغدر الذي تعرض له الجيش الباسل على يد الأمريكان أثر الغدر الذي تعرض له الجيش بعد وقف النار عام 1991، بعد أن كانوا قد اتفقوا على السلام والانسحاب من

حدود الكويت؛ لكنهم غدروا بعد الانسحاب. تعرض الجيش لقصف مكثف من قبل طائراتهم الحربية، حينها تمكن من الهرب والزحف مع الزاحفين مشياً على الأقدام نحو مدينة الكلاء ثم العمارة برفقة أمر وحدته، هكذا حتى تمكن من أن يصل داره منهكا بدنيا ونفسيا ومعنويا بعد اسبوع من المعاناة والسير على الأقدام.

كان قد افتقد صبره وهو يرى قامة الجيش تنكسر وتذل أمام همجية طيران العدو، في واقعة تعتبر من أكثر الوقائع أجراما في تاريخ الحروب، تلك الواقعة وقعت بعد أن تم الاتفاق على وقف إطلاق النار بين العراق وأمريكا والتوقيع على أمر الانسحاب من حدود الكويت بين القيادة العراقية والأمريكية، لكنهم انكلوا الاتفاق وغدروا بالجيش المنسحب.

كان الجيش قد كتم مدافعه ودباباته إلى خلف ساحباتها، مما أدت الغارات إلى تدمير وأحراق جميع آلياته المنسحبة مع قتل آلاف من المقاتلين الأبرياء، وبذلك أوقعت خسائر جمة في صفوف الفرق المنسحبة.

كان قاسم قد روض جلده على الكدر والصبر والجفاء والهوان، حيث بقي طوال تلك الفترة كبندول يترنح بين العوز والحلم، ظل يعيش لحظات قلق بين لحظات الغيبش وجواء الغسق، دون أن يتيقن من هوسه، تائه في دائرة الفكره، بين صمت وجفاء..

منذ أن سرح من الجيش صار عصاميا، يهتم بأرضه ورزقه، في الوقت الذي به يبست ونشفت جذور الموظفين بشكل عام،

جراء الحصار والاحتلال. والذي نتج عنه منغصات عدة، جراء الأزمات والعقد المتكررة والتي ولدت من رحم المجتمع. تلك العقد ألتفت خيوطها على رقاب البسطاء من أبناء الشعب، كبلت أياديهم وأجسادهم بالويلات، التف عليهم كأخطبوط متوحش، أمتص دمائهم الزكية حتى أصفرت الوجوه وخرت القامات وتساقطت الاوراق، لضعف الأساس الذي كانوا يستندون عليه من جهة، وهبوط قيمة العملة امام الدولار من جهة أخرى، في ظل جلد سليلط ساط عليهم. حيث اصبح الدولار = 3000 دينار في الوقت الذي به كان الدولار يعادل دينارا واحدا..

لذا كان قد أحب الأرض وعشقها، تلك التي انتشلتها من همجية الفاقة. حافظت على كرامته، ذرت عليه من عطفها وخيراتها بقدر جهده المضنى المبذول فيها، حيث دائما ما يكون الجزاء على قدر العمل.

كانت عبير ترتقب تلك الأخبار، تنتبه على مؤثراتها وتبعيتها التي لاحت عائلتها، والترسبات التي نفضتها السنين الغابرة، تلك الاحداث فتحت مسارب حسها، رست المثل في ذهنها، رغم لكع المنغصات التي أثرت على سلوكها وبدنها، حاولت بما تستطيع أن تمحي أثر تلك المنغصات بغراء المثل والعادات الحسنة، كونها ابنة ريف متأصلة بالقيم. حاولت أن تزيج النكد باللطافة والطرافة، مثلما جارت البخل بالكرم والسخاء.

تنبهت عبير على ما يحيطها من أخطار، وما رصدته من كيد خارجي كاد بأبناء العراق، بقيت على صلة في متابعة مسلسل احتلال العراق المتجددة حلقاته مع والديها وصديقتها وأخوها وأسأتذنتها في المدرسة.. عُقدَ جسيمة لفها الغرب على عنق العراق لتدميره، تعاون على لفائفها الأبرص والأجذب والأجرب والقذر والخسيس والقواد مع الرئيس بوش رئيس الولايات المتحدة المجرم وتابعه الخنيث توني بليز رئيس وزراء بريطانيا اللذان اتفقوا على تدمير العراق في سنة 1991، استمروا بفرض الحصار على مدى ثلاثة عشرة سنة.... حين وصل بهم المطاف إلى شواطئ يوم 19\03\2003 ، طووا صفحة العراق وبدأ العد التنازلي لاحتلاله...

ففي ذلك اليوم توقفت عبير عن قطع أوراق التاريخ من الرزنامة، تركتها مخرومة، مهانة، معلقة المصير بين رياح الشؤم والهوان مع تسجل ملاحظاتها عليها وذكر الأحداث الدائرة لكل يوم من أيام الحرب.

في ذلك اليوم شنت قوات التحالف هجوما لاجتياح العراق واحتلاله.. بدأت تعد الأيام وتتابع الأحداث من خلال الراديو بعد أن أغلقت المدارس في عموم البلاد. مضت في تلك الفترة تسجيل الأحداث التي جرت خلال أيام الاحتلال. بقيت تعد منعصات الأيام، من قتل وجور وتجاوز على حرمان الناس، ومن صخب المدوي وفرقعات الطابور الخامس ولسان

المعارضين الذين صاروا اليد المعيلة للمحتل في اسقاط نظام صدام.

تابعت شؤون الحرب حتى توقفت في 09\04\2003 يوم سقوط تمثال الصنم في ساحة الفردوس في بغداد، لقد تركت تلك الأوراق معلقة في الروزنامة، مبدية ملاحظاتها عن كل يوم مضي بما حمله من نتائج ومنغصات وفتك في قامة الوطن، وثقت ذلك في سجل الأحداث التي طفحت للعلن، وعلى ما سمعت وتسمع، حتى أصبحت تلك الوريقات كنز ذكريات مؤلمة لا تسامح بها العدو على ما فعله من أفعال شنيعة بالشعب وبالعراق بفعل صواريخه المدمرة وقنابله الممنوعة دولياً.

سألها أخوها أحمد يوماً قائلاً لها:....

- لِمَ توقفت عن قطع أوراق التاريخ من الروزنامة يا عبير بعد يوم 19\3؟
- في البداية كنت أحسب الزمن العابر كشيء من الروتين الذي يجب أن نتعامل معه دون اهتمام، حسبته مجرد أيام تمضي وتتساقط كأوراق الشجر، كنت لا عرف موقعي ومكانتي من هدة الحياة. مع بدأ الحرب عرفت أهمية هذا التاريخ المشؤوم وقيمة الأحداث العابرة، لأنه في هذا اليوم مست لعنة الزمن قيمي وكرامتي كعراقية، أحسست حينها بأنه علينا أن نعيد التعامل مع الذات والتاريخ والواقع، أن نعيد بناء أنفسنا، كي نعيد

لأنفسنا توازننا، كيلا ننحدر مع الطوفان إلى الهوة
السحيقة التي يريد أن يدفننا إليها العدو، وعسى أن
نواجه غطرسته بغطرسة يستحقها، وإلا يكون عامل
الموت أهون علينا من عامل الحياة..

- من أين لك هذه الأفكار، لازلت صغيرة؟
- حين تكون جزء من القدر تفيض بك المشاعر وتتوسع
بك مدارك الذهن، ستعلم بأن حالة الاحتلال هي دلالة
على شل الزمن في الوطن، أقصد شل أقدامنا
كعراقيين.
- منذ بدأ الاحتلال ما عدت أجهر بالمستقبل ولا أعدّه
ميسر كما كنت أتخيل فيما سبق. طارت تلك الأحلام
من رأسي كالطيور المهاجرة. طالما يكون حاضري
مزيف، مهان، فلا أمل بحياة كريمة. لم أعد أجري
أبصر بوجهي في المرأة، ولا أشعر بالبهجة في
تصفيف شعري وفتن ملامحي والوطن منكوب،
صارت الأيام تكشر أنيابها عليّ، تود افتراسي.
- والله صدقت هو هذا احساس بالضغط..
- ماتت رغبتني بالحياة على أعتاب الاحتلال، فقعت
البهجة منذ أن اغتصبوا العذراء بغداد... أيرضيك يا
أحمد أن ننسى هذا اليوم المشؤوم من حياتنا وهو يكرر
علينا أيام المغول...
- طبعاً لا أنه يوم نحس، يوم جردت فيه الروح من
الجسد.

- أنه يوم ظلام دامس، مسفوك بالدم والذل والمهانة، وسيدوم طويلا. فالיום لا يختلف عن يوم سقوط بغداد على يد التتر، ذكرني بيوم دخول هولاكو لبغداد، حين دمر كل شيء فيها، أحرق كتبها وقتل علمائها وهدم بيوتاتها ومساجدها وأذل شعبها، وسرق خيراتها وأغتصب نساءها ودنس أرضها... الخ..... هذا ما سيحدث لنا.. هل نسيت ذلك التاريخ المشؤوم الذي دمرت به حضارة الأمة الإسلامية على يد شلة من الهمج من التتار.. اليوم عادوا التتار من الجدد بوجوه أمريكية وبريطانية.
- أنه يوم أسود في تاريخ العروبة والإسلام يا عبير.
- ثم أني بدل أن أقطع الأوراق صرت أسجل ملاحظاتي عليها، الملاحظات لتذكرني بمرارة الاحتلال، أرى فيها وجه هولاكو القبيح بوجه بوش وبلير القبيحين، تكرر الحدث بوجوه جديدة وبأسلحة جديدة.
- من أين لك كل هذا الفكر؟ يخيّل إلي أنك ستكونين صحفية بارزة لما لك من دقة وخيال..
- أمنيّتي ذلك، ولم لا... ألم تسمع ماما وبابا حين يتحدثون؟ ألم تنتبه على ما يجري في الشارع وفي الإذاعات، ثم أن الأستاذة رجاء كانت قد وضحت لنا أموراً جمة عما حصل واحتمال ما سيحصل مستقبلا، شرحت لنا التاريخ بشكل ممتاز وعميق، أغنتنا بمعلومات خارجية غير مدونة في المنهج، لقد توسعت لتفتح أفاق أذهاننا المغلقة، دعتنا نفكر لما بعد المصيبة،

لننتبه لما سيأتي به الغد في حقيته، ها قد تحققت كل توقعاتها، كأنها قرأت صحف اليوم الأسود في مخيلتها تماما وبحذافيره كالعم جبار.

- كل أنسان مثقف له بصيرة يقرأ المستقبل، لأن الأحداث تبني على بعضها ولا تنزل من السماء كقطعة جاهزة، الحروب المتتالية شغلت المنطقة ولا بد لها من أسباب ومسبب، ولا بد فيها خاسر وغالب ومغلوب، ثم المصالح تلعب دورا فيها.

- صدقت، لذا أني أحاول أن أربط الأحداث بما أشعر، لأكون فكرة عن القادم، وأنني لا أرى انبلاجا في الأفق، لأن نتائج الاحتلال فوضى، والفوضى تؤدي إلى عبثية والعبثية تؤدي إلى زعزعة الوضع وإلى انفلات صفوف الشعب. كما ترى الأرض غير مستقرة تحت اقدام الطوائف، تهجس خلف هذا الهدوء يكمن إعصار في النفوس، فالفوضى التي افتعلها المحتل في مسالك الشعب المتشعبة، لا ترمي إلى سكون أبدا، ولاختلاف الأديان والمذاهب والأفكار والنية والمصالح، لها وقع غل مع انعدام الثقة بين أبناء الشعب.

لم يستقر العراق على مر التاريخ، تعاقبت عليه الثورات والانقلابات والحروب والغزوات، خشي تأريخه بالأحداث الدسمة، فيما دكت الحضارات أسافينها في عمق التاريخ، تفشت أسرارها في روح الفرد، فصارت أرضه مستنقع ثقافات

وقيم وعلوم جمة، أكاديمية وروحية وإنسانية وفلسفية ودين وعلوم بحته لا تتضب، لذا زاد عليه الحقد، مما ولد غزوات وحروب للنيل منه. أضحى بأحداثه أكبر ساندويشة معرفة في التاريخ وبين الأمم، لذا يتهافت عليه الجياع حسدا وشماتة وبغضا.

ما كان ليستقر العراق إلا والدماء تصبغ ثيابه، هكذا تمرّد على التاريخ، ومنذ فجر السلالات، مر بأحقاب كانت قد غزلت له المكائد بغل من قبل الطامعين والحاقدين، ميزه الله عن سائر البلاد بالخير وأغنائه بالفكر واصطفاه بالموقع الجغرافي وسط العالم، فامتدت به الحضارات ليشع نوره على الشرق والغرب.. علم الإنسانية القراءة والكتابة والعدالة والفيزياء والطب، والفلك، لذلك صار مرتع جيد للغزوات والمناوشات.

على مر الزمن كان مسرحا ومعبرا لكثير من الأقوام أمثال العيلاميين والكشيين والأخمينيين والمغول والرومان متمثلة بالإسكندر المقدوني إلى جانب الفرس والساسانيين والمغول والأتراك والإنجليز وأخيرا جاء الأمريكيان بغل الاطماع وبفكر الصهيونية.... سلسلة طويلة من الحقد امتدت لعشرة آلاف سنة وأكثر، ولكن بعد كل كبوة كان ينفض الغبار عن نفسه وينهض من جديد... ألم يقل الرسول الكريم محمد صل الله عليه وسلم بأن الله قد وضع في العراق علمه وخزائنه. صدق الرسول (ص). كل العلوم الموجودة في الكون اساسها العراق وضع لبنتها في العراق وفي كافة المجالات من علوم فلكية وعلمية وإنسانية ولغوية وتصوف ديني... الخ . لذا كان

وما زال معبرا وممرا لقوافل الغازين، سيبقى العراق هامة
العرب كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه (العراق
جمجمة العرب وكنز الرجال ورمح الله في الأرض).



الفصل الثاني

2006/2/22

1- يوم أسود

كان العراق قد شهد في يوم الجمعة، في العاشر من شهر آذار 2006\03\10 يوماً دامياً من العنف الشديد، كان من أشد الأيام وقعا على الشعب بعد إعلان احتلاله في 9\4\2003 ، ذلك ما تناقلته الأنباء السمعية والمرئية في أعلام الدولة والخارجية منها، مثلما نشرت الصحف وبرامج التواصل الاجتماعي تفاصيل الخبر على الملأ.. جاء ذلك الانفجار بعد تفجير مرقد الامامين على الهادي والحسن العسكري في سامراء في 2006/2/22 من قبل فئة باغية شلت به الواقع العراقي، لتبدأ الحرب الطائفية بين السنة والشيعة....

في 10/3 كان قد سقط أكثر من 60 شهيدا وجرح أكثر من 240 شخص من الأبرياء في سلسلة تفجيرات شهدتها بغداد وبعض محافظات الوسطى، فضلا عن العثور على أكثر من 10 جثث مجهولة الهوية في أحياء متفرقة من بغداد، من الذين قتلوا غدرا على الهوية.

تلك التفجيرات وقعت بالتزامن مع استئناف محاكمة الرئيس العراقي الأسير صدام حسين وأعوانه، في الوقت الذي به بدأت محادثات شكلية حول تشكيل كتل انتخابية لإعادة هيكلة الدولة على يد الغاصب المحتل الأمريكي البريطاني، وحسب برنامج ترسيخ الاحتلال الذي أعدته الصهيونية. لتدخل الدولة في نفق

مظلم من الملابسات والمراهنات والصراعات على كراسي السلطة بين الأحزاب والطوائف والدخلاء والمنبوذين وشرذمة الخونة والفاستق وشفلة التعبانة وقلة من الوطنيين للحفاظ على ما تبقى حي من الوطن.

لتحشر تلك القوى ذاتها في عنق الزجاجة من جديد بعد أن فرض المستعمر حيثياته على الوصوليين من لصوص وسياسيين ورجال الدين متخندقين معه، ولتشرع مرحلة جديدة من العبث السياسي الطائفي المقيت بمصير العراق تحت وصاية الحاكم الأمريكي برايمر.

حينها كان قاسم الجنابي قلقا جدا على أخيه هادي الساكن في حي الميكانيك من مدينة الدورة في جنوب بغداد الذي طالها تفجير الجمعة الدامي. الأخبار المتضاربة كانت قد شرخت فكره ولسعت فؤاده، خوفا على أخيه من يد الغدر الأثمة التي عبثت بالأمن والأمان في كل أنحاء العراق. فالكوارث صارت تحل تترا؛ تصب جام غضبها على رؤوس الابرياء والمساكين والفقراء من أبناء الشعب...

حاول كثيرا الاتصال بأخيه عبر هاتفه النوكيا المنتشر حديثا على نطاق ضيق جدا دون أن يفلح، كون دخول الموبايل للعراق قريب العهد قياسا لدول العالم الأخرى التي سبقت العراق بهذا المجال بعقد من الزمن تقريبا، وذلك بسبب فرض الحصار الجائر عليه من قبل أمريكا والدول المتحالفة معها والذي استمر مدة ثلاثة عشرة سنة. لذا يعد العراق كأخر دولة

تعاملت مع الأنترنت والموبايل ضمن تسلسل الدول، حيث لم تنفرج أوضاع الحصار إلا بعد أن أُحتلَّ من قبل أمريكا وبريطانيا.

من جهة أخرى كان قد تجلب نظام البعث من تنام بؤر المعارضة داخل القطر بسبب العقد والمشاكل التي تعرض لها العراق من جهة وسوء تخطيط القيادة من جهة أخرى، فحاول عزل الشعب عن العالم الخارجي، خوفا من اهتزاز كرسي الحكم بـ تنامي الفوضى وحركة المعارضة بين صفوف الشعب، حيث منع استخدام الستالايتات والصحون اللاقطة للأقمار الصناعية التي كانت منتشرة آنذاك لمشاهدة قنوات التلفزة العالمية ومعرفة الأحداث في أوانها وحجم التطورات الدائرة حول العراق قبل ظهور برامج السوشيل ميديا، ناهيك عن القسوة التي استخدمها النظام ضد المخالفين من أبناء الشعب، بحيث وصل الأمر إلى من يملك هاتف الثريا الذي يرتبط بالأقمار الصناعية بشكل مباشر يعد خائنا وجاسوسا للدولة الخارجية المعادية للعراق، وأن الهاتف يعتبر أداة محضورة وتخص أمن الدولة. مثلما شيع ذلك على من يستخدم أجهزة الستالايتات وصحون اللاقطة للقنوات العالمية..

كان قد خسر البعض حياتهم حيال مكاملة عابرة خارجية، كما هو الحال مع المواطن شاكر الذي ذهب ضحية اقتتائه لموبايل الثريا، كذلك دخول عثمان السجن لاستخدامه الستالايت بشكل سري. كانت الوشاية تأتي من الجار والقريب والصديق أو عبر وشاية المنظمات الحزبية المنتشرة في أرجاء المدن،

نتيجة التخوف من سلطة النظام، أو نتيجة الحسد والجهل ومحاولة تسليق المناصب على حساب الغير.....الخ من أمور بغیضة ورخیصة كانت تتبع من قبل الحاقدين، أو من قبل بعض افراد المنظمة الحزبية التي بعضها تشجع على سلوك النفاق والفتنة.

هذا غیض من فیض، فلم يُستخدم الموبايل بشكل مرن وعلى نطاق واسع إلا مع شروع سنة 2007، حين تم توزيع مناقصات شبكات النت على القطاع الخاص لإدارتها، والتي كانت قبل ذلك التاريخ تُستقطب من شبكات الدول المجاورة كالأردن وتركيا بأسعار باهظة وبقدرات مبتذلة، ركيكة، اللذين استغلوا الازمة بشكل رذیل لزيادة مدخراتهم وارباحهم على حساب المواطن العراقي المنهك بالحصار من جهة، وضعف العملة العراقية من جهة أخرى.

حاول قاسم مرارا الاتصال بأخيه إلا انه لم يفلح بذلك، لم يتمكن من تخطي حالة العجز الدائرة في شبكة الاتصال، أما لضعف الشبكة أو لضعف الترددات النابضة أو لقصر مدى الشبكة، بحيث لا تغطي المنطقة بشكل كامل، أو ربما لرداءتها وضعفها من المصدر معا أو بسبب انقطاع التيار الكهربائي المستمرة عن الشبكة بعد أن دُمِرت محولات الكهرباء منذ عام 1991 بقصف الطائرات الأمريكية لها.

تلك الشبكات تعتمد تغذيتها بالطاقة الديناميكية على دول الجوار المانحة، إضافة لضعف قواعد الاستقبال الغير فعالة

في جاهزيتها لعدم اكتمالها... أضحت الاتصالات وكأنها هم وععب على كاهل الفرد العراقي في ظل نظام غير مستقر، باء كجزء من الفوضى السائدة الملبدة بالفساد وكشكل من أشكال المأساة الدائرة في أرجاء القطر دون فعالية.

كما أن الموبایل حينها كان محدود الاستعمال قياسا لعدد نفوس العراق (بنسبة 0.001%)، ويعتبر غال الثمن أمام القدرة الشرائية للمواطن العراقي الذي عانى من آثار حصار مذل مقابل تدني قيمة عملة الدينار. الحصار أكل حصيد الأخضر واليابس من بتائل ولرب حياة العراقيين. في الحقيقة كان يعتبر عقوبة مقصودة على الشعب لأضعاف قدراته النفسية والبدنية والفكرية تمهيدا لاحتلاله فيما بعد، حيث وصل قيمة الدينار مقابل الدولار إلى درجة سحيقة، الدولار الواحد عادل ثلاثة آلاف ديناراً، في الوقت الذي به كانت العملة متساويتان في القيمة قبل حرب الكويت.

هذا ما خطط له العدو مسبقاً من أجل أسقاط نظام الحكم في العراق، وما زاد الطين بله بالنسبة لقاسم الجنابي ولكل العراقيين؛ عطلت خطوط الهواتف السلكية في كافة أرجاء الوطن؛ جراء القصف الكثيف الذي لاح الوطن، كي يمنعوا النظام القائم في حينه الاستفادة من منظومة الاتصالات، كي لا يرتب أوراقه ويدير عملياته العسكرية في مواجهة القوات الغازية.

إذا بسبب من الأسباب لم يتمكن من الاتصال بأخيه، ربما يكون الشخص منشغلا بهوميه اكثر من انشغاله بحاجاته الخاصة وكمالياته، وخاصة كنا نتدحرج مع عصف التيار الدائر في العراق بدحرجة رعناء نحو الهاوية، فلا ندرك حجم المأساة الدائرة حولنا والمحيطه بنا لضبابية الاوضاع..

كانت التقلبات الحاصلة في حياة الفرد سريعة جدا، أسرع من المعتاد والمعقول ومن التقلبات الدائرة في البلد وفي نفسية الشخص، تقلبات تعرض لها المواطن والوطن على حد سواء غيرت من سلوك الإنسان وشكله الداخلي وطريقة حياته.

في البداية تأثر المواطن بالتغيرات التي طرأت على كاهل الوطن، ثم تأثر الوطن بالتغيرات الحاصلة في تركيبة الفرد، لذا أصبح البلد بوتقة فوضى وعدم استقرار، يفرض طائله على هيئة الأمن في البلاد.

خلال تلك الفترة كانت البنية التحتية منهكة لمعظم العراقيين، فلا تستطيع العوائل الاعتماد على ذواتها والتصرف ببذخ بما في جعبها من المادة على كماليات والحاجات البيتية، مع شحة مجالات التعويض لقلّة فرص العمل وانعدامها، بسبب جدلية الحروب وانهيار الأمن والأمان في أرجاء الوطن وضعف التنقل من مكان لمكان أو من مدينة لمدينة تخوفا من عملية الغدر والسلب والانتقام الطائفي الذي صار يتفاقم مع الأيام..

كانت قد توقفت مشاريع الدولة مثلما توقف البناء والتطور على مدى قرابة ربع قرن بسبب توالي الحروب التي فرضت

على الوطن.. ناهيك عن صفة الاستغلال التي باتت تنمو في فكر الفرد وبين صفوف شعب الاحزاب المنحدرة خلف أيديولوجياتها الغريبة، بشكل عام أضحى التراجع عام والانحدار سريع جدا يتحكم به المتنفذين وأصحاب رؤوس الأموال الذين تهجس في أياديهم تكمن مفاتيح الاستقرار.

تلك الحالة أصبحت كَمَرَضٍ مُعْدٍ يتفشى بين الناس. لجملة تلك الأسباب؛ كانت الهواتف النقالة محدودة الاستعمال تماما، لا تتجاوز حدود العوائل المتعفة إلا ما ندر.

الكثير من العوائل لم تعبأ بالهاتف في بداية الامر، هناك من أقتنى الهاتف لعطش في نفسه أو لتسلية ذاته، وخاصة القاطنة خارج حدود بغداد، ولحالة الفقر السائدة من جهة ولجهل أهميته من جهة أخرى، ناهيك عن ضعف شبكاته التي تغذيها دول الجوار. كما أن الكثير من العوائل كانت تشعر بضائقة مادية صلقة قاربت لحالة الشح، لذا لم يكن هناك اقبالا على الهاتف إلا بعد أن نُصبت شبكات النت داخل العراق وارتفعت القدرة الشرائية للمواطن...

على كل؛ كل محاولات قاسم الاتصال بأخيه هادي للاطمئنان عليه وعلى أولاده بعد حادث التفجير المشار اليه في منطقة الدورة باتت بالفشل. حيث بقي الهاتف صامتا لا رنة توقظه من سباته.

أضحت الحالة الظرفية بين الناس قدرية، مراغة، شبه مراة، فيها استياء وهوج، ونزف مبرمج، حياة متدهورة، غير نظامية، يكتنف سلوكها العدوانية في معظم الأوقات، لتنط الهوان فوق أسطح العقول. للفوضى المستحدثة بشكلها العفوي، أثر بإضفاء العزلة بين الناس، تجنباً تفاقم العقد بين البشر.

حالة يأس طاغية على الذات المهزوزة بشكل عام؛ الأنباء المشاعة أجهضت على الراحة والسكينة بالصمت المقيت، لم تعد هناك من ينتظر سعادة في طرق حياته، للالتباس الحاصل بين الواقع والرغبات.

بذلك أضحى الشعب مريضاً، مجروح المشاعر، منكوباً في قراره وقدره، مغلوباً على أمره، كاتماً سره في صدره، شريداً، طريداً، حائراً، تائه في فكره ومسراه.

تلك هي الحالة السائدة والدائرة بين عامة الناس؛ بين أصحاب النفوذ ورجال المقاومة، وبين الأبرياء والبسطاء من أبناء الشعب الذين تحلقوا حول الأمل بالله من جهة أخرى. لعجزهم وضعف قدرتهم، هؤلاء الذين غدوا بأجسادهم خطباً للمحرقة الدائرة، للعنف السائد والدائر بين المقاومة الشرسة والغاصب المحتل المتغطرس وأذنابه الدخلاء، الذين جاشوا كالديب في الأرض مستغلين غطاء الفوضى.

الحالة مستاءة، مهزوزة، مفتقدة للثقة، تستند على أبجديات المقامرة. على الرغم من استياء الناس والعالم مما يجري في العراق؛ انضم الكثير من الشباب لجهات معينة تبعا للميول ولحالة تنزيف الذات والاستقرار بحثا عن مزلف للرقي والمادة، بسبب الفقر الذي لاح اجسادهم وقشر جلودهم.

البعض انحدر خلف الأيديولوجية الفكرية أو سالك منخى الطائفية التي يُؤْمِنُ بها لِيُؤْمِنَ مستقبله المادي، حيث أضحت الحياة ترتع داخل فوضى، تلعب لعبة القط والفأر. رافق ذلك التحرك أجندات خارجية تدعم سنن طائفة ما، على حساب الوطنية والطوائف الأخرى، على حساب المواقع والمناصب والمصالح التي تبغيها، فأضحى الفرد حائرا بين حانه ومانه كما يقول المثل؛ أما أن تكون قطا فتُنَجِدُ نفسك وأما أن تكون فأرا فتستسلم لما يدور حولك.

ومع اشتداد الكوارث اشتدت أزمة الثقة بين الناس، أصبحت الحالة السائدة تغت المشاهد لكثرة منغصاتهما، تجيره إلى التجرد، إلى تجنب مشاركة الآخرين أفراحهم واتراحهم. كل غار في وهدة من الحزن والبؤس، مختبئا في أزقة ذاته المريضة، أو منشغلا بفكر عجف لا يثمر. حيث انقلبت مسارات المحبة السائدة بين الناس من الألفة والتناغم لواقع الرضا والتجرد، لنفور وعزلة من خلال الانتماءات الكيدية والتفرقة، إلى إرغامهم على معاشة حالة الصراع بتزييف الأهداف والمنهج، لغايات محصورة ضمن إطار كتل صغيرة.

أصبحت التفجيرات الدائرة في البلد روتينية، تنال من قدراتهم، ترسم لهم أقدارهم الجديدة، بحيث تركت آثارا سيئة في النفوس، فلم تسلم جرة كائن من العبت إلا ما ندر، وأن سلم بذاته لاحته شرر مصائب الغير من أحزان المقربين والجيرة.

السخط ولد سخطا والعنف ولد عنفا، أضحت فلسفة التسلط هي السائدة، سلسلة حلقات العقد المحدثّة مترابطة بعضها ببعض، فالعنف الدائر في أرجاء القطر وبالذات في بغداد والمحافظات الوسطى، أوقع دمارا شاملا في بناء النفس، وما وقعت من تفجيرات في يوم الجمعة والتي خست مدينة الدورة التي لا تبعد عن قرية قاسم الجنابي التابعة لمدينة المحمودية سوى مسافة تقارب 30 كم، ادخلت قاسم في دوامة، شغلته عن أخيه الساكن في منطقة الدورة، مع ذلك وجد صعوبة في التواصل مع أخيه. لذا كان لصدى الضحايا وقع كبير على أهل القرية وبالذات على السيد قاسم، خوفا على أخيه وأولاده من الغدر قد نالهم.

في وقتها كان قد شكك قاسم بصورة أحد المغدورين من الجرحى من أن تخص أبين أخيه فراس أو عمار، وذلك خلال مشاهدته شريط الأخبار من على شاشة التلفاز، مما حدا به إلى إقناع ابنه أحمد بالذهاب إلى الدورة ليتطمأن على عمه وأبن عمه بعد أن عجز عن مهاتفته هاتفيا...

رغم انقطاع التيار الكهربائي المستمر، إلا أن الناس كانت قد تعودت على تجهيز بيوتاتها بالطاقة الكهربائية الذاتية بالاعتماد

على المولدات الكهربائية لمتابعة اخبار البلد. محاولات صغيرة لتوليد الطاقة الكهربائية ذات قدرة 6.5 حصان، لا يتجاوز وزنها 60 كغم.. يتم تشغيلها باستخدام بنزين العجلات... وهذه المحولات تحول الطاقة الحركية لطاقة كهربائية عن طريق فكرة الحث الكهرومغناطيسي.

الجريح الملقى على الأرض كان مضرجا بدمائه، الصورة كشفت جزء من ملامح وجهه، تكاد تطابق ملامح الفتى عمار أو فراس أبناء أخيه، بهيئته وقلافته. ذلك ما أوحى له ظنونه، فجرته الحمية لغاية الشك والقلق.

من طبيعة الإنسان التمسك بخيط الظن للوصول للحقيقة، لأدراكه أنه نابع من أحاسيس صادقة، فلما يخطئ الشخص في حساباته بها، نتيجة شحنة العاطفة المراقبة من الداخل والقلق الزائغ في صدره وفكره. لذا بات يخفق فؤاده ويشتط فكره بين حالة الشك واليقين، حتى جعله يهزل صريعا في داخل نفسه، صار لا يستقرأ الحالة، ولا تستقر حالته على حجر؛ حتى نفذ صبره. خاصة بعد أن وجد عدد القتلى يفوق التوقع وما هو معلن في وسائل الاعلام وما شاهد عبر التلفاز، وتقديره لأثار العصف الممتدة على مساحة شاسعة بحجم الفوضى والركايب المبعثرة والمتناثرة في أرجاء المنطقة، الوصف لا يطابق الأرقام المعلنة.

كان الخبر قد نُقل إليه بتضاربات مختلفة على أسنة شهود عيان من أهل القرية، كل حسب وجهة نظره وبشيء من

التهويل والمبالغة، مما شحذت مسألة القلق في ذهن قاسم لدرجة لم يستطع تحمل وقع الكارثة، ليتعاضد شكه ويمتد إلى صوت التيقن، صار لا يحتمل الصبر الأعرج وهو قابع في داره دون أن يقبض على الحقيقة ليعين أخيه.

الخبر ينبئ بأن عدد من القتلى يعودون لعناصر من الشرطة، فيما جرح عدد آخر منهم في ذات الانفجار...

لا يعلم حقيقة الأمر أن كان الانفجار نتج عن عبوة ناسفة تقصدت دورية الشرطة، أم جراء تفجير عجلة مفخخة تقصدت مصلي مسجد خالد بن الوليد، أم كان هجوما مباغتاً تعرضت له المنطقة من قبل المقاومين لضرب عجلة همر امريكية.. الخ. ولكن الأخبار تشير إلى أن انفجارا هائلا أضر بحي الميكانيك قرب مسجد خالد بن الوليد القريب عن دار أخيه.

كل شيء جائز ومبهم وغامض، الحيرة كبرت في ذات قاسم من خلال صور الخراب التي شرحت حجم الدمار الحاصل بالمركز التجاري... مما حدا بتفاعل ظنونه مع الحدث، ومع ما يجري بالوطن من مأساة بشكل مبرمج، وكأن تلك الأقدار باتت تطبق على عنقه كحلقات العنق التي تتبجح بها الفتايات الأفريقيات كي تطابق ظنونه.

كان قد رافق أحداث ذلك اليوم المشؤوم جمودا تاما في هاتفه النقال بعد أن أخرس عن الرنين تماما، ظل ساكنا دون نبض، كأنه أصيب هو الآخر برعشة الظن والخوف والقلق. ما جعله

يزداد قلقا على أخيه، هجس بعذاب النفس والضمير يغلبه
لعجزه مساندته في محنته.

بعد أن تناقلت الناس الخبر بمبالغة حادة؛ زاد قلقا وضيقا،
حيث دائما ما يأتي الخبر على ألسنة الناس بشكل منحرف عن
الحقيقة وبشكل مهول، للرعبة التي تصيب كاهل الفرد، وكل
حسب عقليته ودرجة الخوف الكامنة في قلبه وحجم ثقافته
وتصوره للحدث، وبحسب حجم تأثيره ومقدار وعيه وإلهامه
أيضا.

كما أن الأخبار دائما ما تأتي منقوصة، أو مبالغ بها، قد تصل
درجة المبالغة المقصودة لزعزعة الأمن، وزرع نواصب
القلق بقلوب الناس بشكل متعمد. ربما تأتي مقصودة من جهات
تود زعزعة الموقف العام، جهات معارضة للاحتلال أو
لمجلس الحكم المقبور تحت الوصايا الحاكم الأمريكي..

ذلك ما شيعه به رجالات المقاومة والمناوئين لسلطة الاحتلال
والسلطة الكارتونية القابعة في حي الخضر وسط بغداد،
والتي تدير شؤون العراقيين بعضا المحتل... وقد يقلل الخبر
من شأن الحدث ووقعه الحقيقي، فلا يعار للحدث أهمية، وقد
يوصف بوصف الاستخفاف؛ وذلك ما تشيعه سلطة الاحتلال
ومرتزقتها، لتخفف من الضجة والفوضى بين الناس في وسائل
الأعلام.. قد يموت في التفجير خمسين شخصا والمذيع يعلن
عن خمسة أشخاص لتهدة النفوس، وتقويض الفتن، وتعتيم

الحقيقة، كي لا يذهب الخبر إلى اشاعة البلبلة ضد أركان الدولة.

امتصاص الغضب والتعتيم صار من مسلمات إدارة الدولة، وهي معروفة بذلك للجميع، حيث التجارب السابقة جعلت المواطن لا يثق بخبر الدولة تماما، صرنا لا نصدق الإعلام الرسمي بتاتا.... في ديزفول كان العدو قد شن هجوما على قطعاتنا؛ أعلنت وسائل الدولة عن افشال الهجوم، وذكرت أن خسائرنا خمسة شهداء وكوكبة من الجرحى يقدر عددهم بثلاثين جريحا. غير أنني في خمسة دقائق شاهدت بأمر عيني خمس جثث تنقل بواسطة التكاسي لذويهم، فلم اتحمل المشهد لأترك الشارع الذي يربط مشفى جلولاى العسكري في بغداد... لو انتظرت ساعة زمن لعبرت ستون عجلة من امامي.

ذلك ما جعله قاسم يقلق ويغلي كالبركان في واقع ذاته على أخيه وعائلته، لن تهدأ النفس طالما الظن ينط على أوتاد الشك، طالما هناك قتلى وجرحى في موقع الحدث، وقد يكون لأخيه وأولاده نصيب مما وقع.

التفجير وحسب وكالة الأنباء كان تفجيراً مزدوجاً، أي بعد وقوع التفجير الأول بعشرة دقائق وقع التفجير الثاني في ذات المكان، وذلك بعد أن شرعت الناس تتوافد على مكان الحدث لاستغاثة المنكوبين والمصابين من الجرحى، ونقل الشهداء من وحل المصيبة، عندها وقع الانفجار الثاني ليزيد من عمق الغلة بين صفوف الحشد، فلم يكفيهم ذلك حتى غاصوا في شرخ

الجراح بين العامة من الناس، بعد أن استمروا في رشق المنطقة بعدد من قذائف الهاوين الثقيلة عن بعد ليزيدوا فتكا وقتلا بالمغلوبين على أمرهم.

المشكلة بقيت تلك الانفجارات التي تعلقت بأذهان الناس مجهولة المصدر والهوية، غائرة في عمق الظن، رغم تكرارها أسبوعيا على مساحة الوطن، إلا ان الدولة عجزت عن معرفة الجناة المنفذين.. أو بمعنى آخر وهو الاحتمال السائد بين ألسنة الناس؛ من أن الجناة الحقيقيون في هذه التفجيرات هم عناصر الحكم أنفسهم، أو جنود الاحتلال بذاتهم، وإلا كيف يُفسر عدم معرفتها الجناة رغم نفوذهم واحتلالهم لكل بقعة في البلاد؟؟؟؟.

كان المحتل يتقصد زرع البلبلة بين الناس، من أجل بسط نفوذه، زرع الطائفية، وسط تنافس واضح بين مجموعات الكتل الحزبية على كراسي الحكم، والتي بتنا لا نحفظ أساميها لكثرتها، والقلق الذي كان يسود صفوف المحتل من تعرضه لمقاومة شرسة أينما حل.. ذلك يكفي بأن تزرع هذه التفجيرات لتكسب رضا الشعب ضد رجالات المقاومة.. بقي الغموض سائدا في منبع تلك التفجيرات، والتي باتت مصدر قلق بين الناس...

تلك هي إشارة واضحة ذات دلالة ثابتة؛ على أن للدولة يد فيما يحصل، وبالذات فيما يخطط له المحتل لإحاطتها بمليشيات تسمح لها بالسيطرة على البلاد.

ذلك ما حدا بالشعب أن يكيل التهم للعناصر المتنفذة في السلطة ولقوات المارينز، لما تملك من أجهزة حديثة متطورة، تستطيع بها مراقبة الأجواء بيسر، حيث أنها تسيطر على منافذ بغداد والمحافظات كافة، بإمكانهم معرفة الجناة أن لم يكونوا هم بأنفسهم الجناة.

لقد زاغت قلوب الناس في حيرتها، فلم تجد طائل من اتهام الأحزاب المتنفذة والتي تحاول زلزلة الأمن لتثبيت أسافينها في جسد الدولة بعد ان نبذها الشعب.. بقيت الحالة على ما هي عليه دون تغير، وبقي التستر على الجناة الحقيقيين قائم. فالذين لا ترمش لهم عين رافة؛ لن تتأمل منهم الخير.

تفرطت خرز المسبحة. صارت الاتهامات تكال الجميع من مقاومة وأحزاب ومليشيا القاعدة ومليشيات مستحدثة وآخرون ينسبون لها لقوات المارينز لتستعين بالشعب على الشعب في بسط سيطرتها. الحقيقة كل الاطراف متهمة وكل يتهم الآخر، تكالبت الاطراف وبقي الشعب يضرب اخماس في اسداس دون أن يصل للحقيقة...

وما يحدث في نقاط التفتيش من مسرحيات توضح جزء من تلك الدلائل بيقين.. حيث ما أن تتوقف العجلة في نقاط التفتيش؛ حتى يحقق مع سواقيها في غرف تحقيق خاصة. خلال التحقيق يزرعون العجلة بعبوة ناسفة، ما أن يطلق سراح السائق حتى يهرب بعجلته بعيدا عن حرشة المفتشين... وما ان تبتعد العجلة مسافة آمنة؛ حتى يتم تفجيرها عن بعد باستخدام الريموت

كونترول.. لقد وقعت مثل تلك الحوادث الكثير، هكذا جنى الجيش الامريكي على الكثير من الأبرياء المدنيين.

من يقوم بتفخيخ العجلات، ومن يقتل الأبرياء من أطفال ونساء، يسهل عليه توجيه صاروخ أو زرع عبوة ناسفة في الأماكن المزدحمة ليشل الحياة، يمكنه أن يطلق القذائف وينصب العبوات لزعزعة الأمن وقتل الناس.

أضحت الاتهامات روتينية بين السلطة والمقاومة والأطراف الأخرى الجانحة، فبعد كل عملية تفجير تتهم الحكومة المقاومة بتنفيذها، لغرض زرع الكراهية والفتنة بينها وبين الشعب المغلوب على امره، لحصر المقاومة في خندق ضيق.. وقد نجحت بذلك فيما بعد. لاختلاف طبيعة طيف الشعب العراقي وتشعب الأديان والطائفية واختلاف أيديولوجيات ومناهج الاحزاب، كل يود أن يحظى بكرسي من كراسي الدولة.

معروف لدى الجميع بأنه لم يأتي المحتل إلا لسرقة خيرات الوطن وأثاره، فيما السياسيون صاروا يبحثون عن منفذ للسلطة في جوف العقد، عن الكراسي والمقاعد المتقدمة لتنفيذ ارادتها. فيما ظل الشعب يعاني دوامة الصراعات دون مرشد حقيقي يعينه على صيانة كرامته.... في ظل تلك الاجواء ظلت المقاومة منعزلة تتخبط في إدارة شؤونها، لتشعب فروعها وقياداتها وضعف امكاناتها وتخطيطها وأسلحتها.

صار العصف يشنت ذهن الفرد، هناك من تجره الإشاعة ويصدق مضمونها، فينحرف لجهة معينة كالأعمى.. وهناك

من بقي تائه في غيه كالمسطول والمسطور لا يرى الأشياء بوضوح، ولا يفقه تفسيرها. والقلة من أدركت حيثيات اللعبة وعرفت لغز الحقيقة فاستطاعت أن تنفذ بجلدها خارج حدود الوطن.

فمن هاجر وناء بحال سبيله؛ أيضا وجد ذاته تعاني من عذابات النفس والضمير والغربة، عناء لا يقل عن عذاباته في داخل الوطن، هكذا أضحى المواطن العراقي قابعا بين المطرقة والسندان.

هكذا غزل المحتل بساط الوطن بخيوط طائفية ملونة، حتى عمت الفوضى أرجاء الوطن، صارت المقاومة لا تجد لها صدًى بين العامة إلا ما ندر، فيما صارت تنسب لها الولايات بسبب الأعلام المغرض للمحتل، حتى تمكن المحتل من محاصرة المقاومة بأخاديد ضيقة وجلدها بالفتن الطائفية مع توالي الأيام والسنين.



هذه الأخبار الزئيمة، الناقمة، الناشزة، حلت على رأس قاسم الجنابي كالصاعقة، أحرقت زغب فكره، أوقدت جمرة أعصابه التي باتت تستعر من شواظ الاجواء المحيطة به، قلقه المفتعل المتجدد جثم على صدره، كتم أنفاسه... ذلك ما دعاه يناقش الحالة مع أبنه أحمد بحضور والدته، إلى ضرورة الاطمئنان على عمه هادي في وسط هذه التفجيرات، قائلا له:....

- يا بني؛ لابد أنك سمعت بتفجيرات الدورة، والتي تقصدت حي الميكانيك ومسجد خالد بن الوليد القريب من بيت عمك.
- نعم يا بابا، يقولون التفجير أوقع الكثير من الضحايا.
- الأنباء تشير إلى قتلى وجرحى تجاوز عددهم المائة والخمسين وأكثر، لا إله إلا الله هو الستار، أنا خائف على عمك هادي من أن يكون من ضمن قافلة المصابين، وانت تعرف لا هواتف تتصل ولا اخبار عنهم.
- لا تقل ذلك يا أبو احمد..... قالت ذلك زوجته فخرية.
- لقد شاهدت إحدى الصور في التلفاز وكأنها تشير إلى ابن عمك عمار أو أخوه فراس... أريدك أن تذهب وتطمأن عليهم على أن تعود يوم غد باكرا، الأوضاع لا تسر، الأمان مفقود، والهاتف لا يرن ولا يستجيب.

- أين ترسل الولد في هذه المعمرة، لا تجازف به- قالت زوجته فخريه ذلك معترضة على فكرته.
- يا أم أحمد؛ لا توجد طرق تواصل بيننا سوى أن يذهب أحمد بنفسه، أو أترك عملي وأذهب أنا لأتطمأن على أخي، والمشكلة لا استطيع ترككم دون معين ليلة واحدة، الاعداء لاثنون في قريتنا ووجودهم لا يطمئن.
- لا يا بابا أنا أذهب اليوم وأعود غدا، أنا لست صغيرا والمسافة قريبة ممكن اذهب بأية عجلة خارجة من القرية.
- عليك أن تقدر الظرف، ثم لا أستطيع ترك عمل الحراسة وعمل الحقل والابتعاد عن البيت بهذا الظرف، المشكلة لا يوجد من يعوض مكاني في حراسة دائرة الزراعة، ولا من يلبي حاجيات البيت، والهاتف لا يرن، وكما ترين حضيرة الخنازير من جند المارينز يجوبون ازقة القرية وما حولها بمدرعاتهم، أنا اخاف من غدرهم.

عندها عارضته زوجته فخريه، هي لا تبغي المجازفة بحياة أولادها، لن تسمح بذلك، قلبها لا يطاوعها، لن تحتمل مشقة فراقهم في الظروف العادية؛ كيف بها ستحتمل الفراق في ظرف تبخرت منه الرحمة والأمان. قلبها وعاء أمان ومراة تراقب به أولادها، مجسات الخوف تستشعر الخطر إذا ما اقترب من الظن من فلذات أكبادها، تستشيط، تنور، هكذا خلقها الله مختلفة، ركب عجبتها من مكونات حساسة، ملؤها

عاطفة وأحاسيس جياشة، لا تدعها في حال سبيلها، فهي دائمة القلق عليهم وهم قابعون أمام أعينها، فما بالك إذا ما ابتعدوا عنها في ظرف الأزمات والعقد.

أنها الصلة الغير المرئية، أشعة كهرومغناطيسية من المحبة تشع بها مشاعرها، ذلك ما يسميه العلم الحديث بالباراسايكولوجي، هكذا خلقها الله بحيث بحساسياتها تشم الخطر وهو لازال في مهده، لن تصبر على ضيمهم أبدا..... تقول أخبار السلف بأن الخنساء كانت تستشعر بالزنقة التي تلتف على أعناق أولادها وهم في ساحة الوعى، كانت تهجس بسهم الغدر يزهق فؤادها قبل أن يخزق جلد أولادها؛ كأنَّ للأم مجسات خفية، لذا تستشعر خطر العدو بقلبها لا بعينها، قبل أن يجس ذلك الخطر أجساد أولادها.. تشم رائحة الغدر بأنفاسها، بصمتها، بفكرها الشارد، المسهب في بحر من القلق والظن. ومع ذلك بقى أيمانها أقوى من عصف الخوف، كانت تشحذ بهم الهمم لمقارعة جيش الفرس، في الوقت الذي به لا يطاوعها قلبها على زجهم بمحرقة الحرب، وما أن يبتعدوا عنها حتى تلوم ذاتها الغريقة في عاطفة الأمومة على جريدها وعلى تقبل فراقهم.

فحال أم أحمد (فخرية) لا يختلف عن حال الخنساء بشيء من هذا القبيل، هكذا ردت فخرية على زوجها قائلة:.....

- أين ترسل هذا الفتى، لازال عوده يانعا، أخضرا، لن يحتمل الجلد والمشقة، أخاف عليه من الزلزل، من

المجهول الدائر حولنا، الآفات مستشيطة، الطعنة أن لم تأتية من العدو الغاشم ستذبحه سهام الغدر بنييران صديقة، ضاع رأس الخيط لا نعلم من معنا ومن ضدنا.

- استهدي بالرحمن يا امرأة، الوقت عصيب وربما هؤلاء بحاجة إلينا.

- ابنك لازال لدناً، طريا، خالٍ من التجارب، ليس به حنكة، لا يعرف التصرف في أوقات الشدة والحر، تكسره العقد، تهزمه الحيرة.. حاول في هاتفك الأغبر أن تجد لأزمتك مخرجا، حاول مرة وعشرة ولا تتهاون بحياة أبنك.

- حاولت دون جدوى.

- العم جبار يقول: إذا حوصرت بالأوهام والوساوس والقلق، فاجعل لسانك رطباً بذكر الله، عسى أن يزيل الهم والغم من على قلبك ويرشدك طريق الصواب.....

رد أبنها الذي كان يصغي لجدالهما بشأنه:....

- أطماني يا أماه أبنك رجل، لا تنسي أن أبي منذ مساء أمس يحاول الاتصال بعمي دون جدوى. ثم أنا ابن قرية، ابن مسحة وكرك، ابن جلد وليس ابن أفلام وسينما.. والمثل يقول "فرخ البط عوام" هههههه، والولد إذا لم يجرب في الشدائد لن يكون رجلا.

- يا أبنني أني خائفة عليك.

- يا أمي؛ أني أخذت عزمي وقوتي من جلد الأرض، من ثقتي بنفسي. أذهب اليوم وأعود غدا بإذنه تعالى، خاصة لا توجد دراسة جديدة في هذه الأيام نتيجة الفوضى الدائرة في البلد بعد تفجيرات سامراء، حتى المدارس مهلهلة من الداخل والنجاح مضمون، والاساتذة أكثر من التلاميذ يتغيبون عن المدرسة.
- ذهب الراعي وبقيت الأغنام تائهة يا فخريّة، ههههههه، صارت الأمور تسير على المزاج. يا بنت الناس هدئي من روعك، لا تزيدني همي هما "الفقير فوق البعير وعضه الكلب" أنا في حيرة وأنت تقلبين عليّ الأوجاع.
- أخاف على أبنّي من الغدر، لازال صغيرا لا يعرف التصرف.
- أبنك رجل يا فخريّة، يعتمد على نفسه منذ صغره، لا تخافي عليه، يعرف كيف يجنب نفسه الأخطار والمطبات، يعرف كيف يدافع عن نفسه، أنه واع بما فيه الكفاية، أنه ابن فلاح وليس ابن شوكة وسكين، حتى أنا أفكر بتزويجه بمجرد أن يبلغ، ثم أن الأعمار بيد الله وليس بيد البشر.
- والنعم بالله، يا رجل؛ أبنك لازال قاصرا بحكم القانون، لم يتجاوز السابعة عشرة، والأوضاع ليس كما كانت ميسرة، الحياة تصعب والأمان يضمحل يوما بعد يوم، كل شيء تغير شكله وبهت لونه، فالأمور لا تقارن هذه الأيام بالسالفة.
- أنا أعلم ذلك ولكن.....

- ثم هؤلاء الذين تراهم يجوبون الشوارع ليسوا بشرا، لا يتحلون بالإنسانية، أنهم وحوش، أكلوا لحوم البشر. جاءوا يمتصون دماننا كالبعوض، تشعر في دواخلهم نزعة حقد وكرهية. لقد جاءوا بفكر صهيوني ولباس أمريكي، حفاة، لصوص، جُناة، ليس في قلوبهم نزعة رحمة، مُدَجِّجين بـ أَعْتَد الأسلحة، يدعون على البشر ولا من يرددهم. وإلا كيف تفسر مداهماتهم للعوائل الأمانة والبحث عن اسلحة الدمار الشامل في مطابخ الناس؟

- ليس في اليد من حيلة، يجب أن نتقصى خبرهم، لقد حاولت مع الهاتف دون جدوى، هؤلاء كما ترينهم يتربصون الفرص، قانطين قربنا، يرعبنني تواجدهم، أخاف عليكم من الغدر والمداهمات الغير محسوبة...

على ضوء تلك المجادلة لانت فخرية وأتفق أحمد مع والديه بأن يذهب لدار عمه على أن يعود صباح اليوم التالي باكرا، جهز ذاته وقرر الذهاب بعد فترة الغداء، قبل انقطاع سبل العجلات بين بغداد ومدن الجنوب لخطورة الطريق..

صارت الأم تمتعت مع ذاتها تقرأ الأدعية ليحفظ الله ابنها من سم العقارب وغدر العدو قائلة:.....

- اللهم أمنتك أبني فأحفظه من غدر المجرمين وقطاعي الطرق ومن حقد الغازين.

أللهم اسلم هادي واطفاله من التفجير ومواقع الزمن،
فليس لنا قابلية على تحمل المزيد بعد أن فقدنا الوطن..
أللهم استجيرك وأمنتك أبني والبلد فأحفظ العراق من
شر القادمين...
أللهم آمين يا رب العالمين.

كان قد غادر أحمد الدار ظهرا على خلفية انفجار الجمعة الدامي الذي شمل منطقة الدورة، ليتطمأن على أحوال عمه وسلامته، حيث الانفجار حدد في أسواق حي الميكانيك المكتظة بالمواطنين ضمن الحي الذي يقطنه عمه هادي. ولفضاعة الانفجار كانت الخسائر الناتجة عنه جسيمة، فاقت التوقع. حيث استهدف مطعما ومسجدا أثنا خروج المصلين من المسجد، ومعظم هؤلاء الضحايا هم من أبرياء الحي الذين قضوا أمام مسجد خالد بن الوليد، بعد أن أدوا صلاة الجمعة.. والقسم الآخر تناثروا في سوق الميكانيك المزدهم بنسائه وأطفاله وشيوخه..

من موضع التفجير تتأكد من أن المفجرين غايتهم البلبلة والطائفية، أي تابعين لقوات المارينز أو الأحزاب المستحدثة بتوجيه من أجناداتها، أطراف خارجية لها مصلحة في تفتيت الدولة، غايتها النكاية بالعراقيين ليسهل عليها سرقة البلد. لذا استهدفوا المصلين في حي الدورة في بغداد وفي مدينة بعقوبة في محافظة ديالى وعدد من المناطق وخاصة جاء الانفجار بعد انفجار سامراء الذي هز العراق.

ولكون السوق سوق شعبي مكتظ بالناس؛ الكل كان يسعى لقضاء حاجة ما ضرورية له، سوق يتجمع فيه الباعة والباعة المتجولين، وعطارين، وبزازين، وأصحاب الكماليات، وجزارين، ومطاعم، وكازينوهات وسوق خضار ومخابز

...الخ، فهو سوق حي يرومه أبناء الحي والمناطق المجاورة القريبة كأبودشير.

تهجس بالانفجار كأنه حل على خلفية الصراع الدائر بين كراسي الكتل السياسية المتنافسة على تقاسم كعكة الحكم، وبالذات بعد أن تأكد المحتل من هوية المعارضين له وبالذات أبناء الطائفة السنية، الذين أبو المصاهرة بحمل السلاح بوجهه والانتماء لفصائل المقاومة وملاحقته أينما وجد. لذا انعدمت ثقة المحتل بالأطراف السنية لأنهم لا يستندون إلى مرجع يلبي طلباتهم. لذا مهد السيطرة لكتل أخرى على حسابهم، فأسند مقاليد الحكم للقوى المعارضة لنظام البعث بشكل عام. تلك المعارضة التي أخذت زمام الأمور على عاتقها بدعم أمريكي واضح وتحت وصاية الحاكم الأمريكي برايمر.

من جهة أخرى تمكنت القوات الأمريكية من تفعيل الصراع الدائر بين الكتل الشيعية الشيعية والشيعية السنية فيما بينها على تولى القيادة، وذلك تبعاً لاختلاف العقائد والأهداف والتبعية فيما بينها، وعلى مدى تقارب الحقائق مع مصالحها الشخصية في مشهد صراع مخزٍ بين تلك الكتل على المناصب وسرقة البلد. تلك الأفكار الجديدة والانتماءات المتعددة والتبعية الخارجية وأمور أخرى تخص كل حزب على حده أصبحت ذا تفعيل أساسي في تفعيل المشهد الدرامي بدعم تلك التفجيرات على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، بحيث أختلط الحابل بالنابل في مشهد ضاعت به الحقيقة عن الشعب المنكوب.

أزمة البترول والخطورة الذائبة في الطرق، والمفاجئات الغير سارة والغير متوقعة والمدفونة في نفوس بعض المغرر بهم من العابثين بأرواح الناس؛ هو سبب مصدر قلق قاسم وفخرية على أبنهم أحمد... قد تتجاوز مدة ذهابه وإيابه يوما بأكمله مع أن المسافة لا تتجاوز 30 كيلومترا!!!!... لقلّة وسائل النقل وشحة البترول وخطورة الطريق. في الوقت الذي به ارتفعت درجات الأزمة الطائفية بين السنة والشيعية إلى درجة التأهب والخطورة، إلى درجة ج المربكة، مع اختلاف آراء خنازير السياسة وهراطقتها على إدارة أمن الدولة وكتابة الدستور، هؤلاء الذين نحوا نحو مصالحهم الخاصة بعيدا عن صون مصلحة الوطن.

يقول المفكر الكويتي عبدالله النفيسي بأن مشرع الدستور العراقي كتبه رجل صهيوني اسرائيلي يهودي من يهود العراق، اسمه **نوح ولدمان**، ليبقى في العراق صراع دائم بين الطوائف لن يستقر أبدا، من خلاله يؤمن أمن اسرائيل. هو من وضع مسودة الدستور للكتل دون أخذ رأي الشعب.

لذا تجد انعدام الثقة بين الطوائف زاد واستمر لتحسس بعض الطوائف بظلم وقع عليهم جراء تقسيم السلطة، بل أنهم قد تجاوزوا حد الخطورة إلى مرحلة العنف والتتكيل فيما بينهم، كل ذاك أدى إلى طواف الجثث المجهولة في الشوارع والأزقة خلال اشتداد الأزمة - صارت الناس تحتفظ بمخزون البترول والمؤن لأوقات الشدة، لحين حل أزمتها وفك كربها، المفاجئة

هذه ليست من وحي الخيال بقدر ما هي جزء من تاريخ العراق تحت ظلاله المحتل.

قبل أن يتوجه لمدينة الدورة؛ احتضنته أمه وهي تودعه، قبلته من خديه وجبينه، قرأت عليه أدعية وآيات مما تحفظ، لتجنيبه حسد العين وعبث مفاجئات الطريق المحتملة، كأنها تودعه للمرة الأخيرة، حيث قالت له:....

- أنتبه يا بني؛ الوضع سيء، لا تتأخر، بمجرد أن تطمأن على عمك عد سريعا إلينا، عد غدا باكرا مع الفجر، لا تقلقني عليك لن أحتمل تأخرك، الهواتف لا تعمل، أخاف أن يتوقف قلبي إذا ما تأخرت.
- سلامة قلبك يا أماه، سأعود غدا بأذنه تعالى.

ثم قبل جبينه والده قائلا له:....

- أذهب إلى العم جبار، استفسر منه أن كان أحدا من أهل القرية عنده مشوار عمل في بغداد، ليوصلك في طريقه..
- فكرة حلوة يا بابا، لأشتري منه نستلة كاندي، هههه.
- الله معاك .

فترة الحصار الجائر، الجدل والخوف والحذر من أذخال شبكات النت والهواتف النقالة للعراق من قبل النظام السابق، انعكس سلبا على حركات المقاومة بعد دخول المحتل، قُيّدت عملياتها، لضعف التواصل بين عناصر المقاومين وضعف

السلاح قياسا لسلاح العدو، بذلك تمكن المحتل من نشر قواته على إرجاء البلد دون عناء، أغلقوا المنافذ، رصوا المواقع، جعلوا رجال المقاومة يتخبطون داخل ذواتهم، صاروا أشبه بقطيع النعاج التائه في البرية، على الرغم من تلك البسالة التي اتصفوا بها، إلا أنه ضاق بهم المجال، بسبب تتبع أجنده الاحزاب الجديدة لهم واغتيال عناصرهم من قبل الشرذمة المتحالفة مع المحتل.

رغم تلك المصاعب؛ انتبرت قوتهم كشوكة في عين المحتل، أوقعوا فيهم خسائر جسيمة فاق الخيال على الرغم من فارق التكنولوجيا الكبير، تمكنوا من شل قدراتهم وتحركاتهم، أرهقوهم، بل أذلّوهم، جعلوهم محاصرين في ثكناتهم. لذا كان الجندي الأمريكي إذا ما كلف بواجب ما؛ يحتمي بالناس العامة كي يتجنب الأحزمة الناسفة وإطلاقات القناصة الغادرة، لذلك نبهته أمه:....

- انتبه من الطريق، أبتعد عن التكتلات والتجمعات، أبتعد عن جنود الأمريكان.

- لا تخافي يا أماه، أنا فاهم الوضع جيدا، قبل الظهر بأذنه تعالى سأعود، لا تقلقي، سأدبر أمري مع أي شاحنة عابرة، وان لم أجد عجلة؛ سأعود مشيا على الأقدام. ههههه.

- حتى لو كانت المسافة قصيرة، الخوف مزروع في كل مكان في المسافة نفسها يختبأ الشيطان، في طرق السابلة، في العجلة المقبلة، في الرصيف، في الوجوه

الغريبة التي دخلت البلاد بعد الاحتلال. منتشرين كما هي الأشواك التي تنبت بين الأعشاب والورود، تجد لهم وقع سيء على الذوات الطيبة في كل مكان، قد يقتلون هذا وذاك دون سبب... أحترس؛ أحياناً الأزمات تشخص بالقلوب والأذهان قبل أن تقع كحقيقة، أستعن بقلبك وهواجسك، أضحي الوصول للهدف أو لأي بقعة في الوطن ضرب من الخيال مع زيادة حالات الغدر المنتشر في الطرق، والغلة المختزنة عند بعض النفوس الضعيفة.

- حاضر يا أمي الغالية...

في الحقيقة المشقة باتت حاضرة في داخل نفس كل إنسان أكثر مما هي منتبرة في الطرق، نتيجة تفاقم الخوف والقلق في النفوس وانعدام الثقة بين الناس. العبث المتسلل في فكر الإنسان صار يتولد من المحيط المرهق به، خوف هلامي متداخل في ذات الشخص كتداخل أشعة الضوء في الكوة، يتسلل إلى ذهن الفرد وجوفه مع شهقة أنفاسه..

أضحي القلق يجدد ذاته بذاته، حيث ما أن نتجاوز أزمة حتى تشتت بنا أزمة أخرى جديدة بذات النكهة والكيفية، هكذا دواليك ولدت تلك الحالة العبثية وذاك القلق من روتين العقد المتصاعد دخانها ووتيرها بين الطوائف.

مفاجآت الطرق أضحت روتينية في حياة الفرد العراقي، تبرز من التكهّنات الدائرة في الذهن، تهب مع ريح الفكر كهبات

شيطانية تمس الفرد، تنبع من الضمائر الميتة والتفكير المنحدر، أو تخرج من العفن اللازب في فكر الغاصب ونياته الخبيثة، فهي صارت تبتث في الأجواء هنا وهناك كفايروسات قاتلة.

قلب الأم ليس كباقي القلوب الأخرى، فهو مغشي بطبقة من العاطفة، لرقته يكون مفعم بسحر غريب من الصدق والمحبة والعاطفة، لا تشذ روحها عن روح ولدها قيد شعرة. أنه دليلها الأكيد، شعورها ينبع من أعماق حسها، يأتع بلفحة شهيقها وزفيرها، تهجس في قلبها يكمن سر من وحي الإله، حيث لا تنطبق عليه حسابات المنطق، ولا تنطق إلا بالصدق والعجب، وكأنَّ فيها شيء ينبض من روح المطلق. أنه نسيج من عزم الأمور والميتافيزيقيا الذائبة في كينونتها، أسرار عالم ما وراء الطبيعة تتلألأ في بحر شجونها وعواطفها وأحاسيسها ونظراتها، دليلها مرتبط بشكل مباشر بعالم الباراسايكولوجي.

كان قد غادر أحمد بعد فترة الغداء مباشرة متجها لـدكان العم الجبار، وقد أرتدى بنطلون جنس أزرق اللون لتحمله أعباء السفر، مع قميص مبرقش بمربعات زرقاء وبيضاء صغيرة الحجم بحجم سنتيمتر مربع. كما حمى كتفيه بكنزة مخملية سوداء ذات سحابة (زنجير أو سوسته) تشده من وسطه.

بشكله وطول قده يعتبر ذات مواصفات جذابة كأخته عبير، ذات شعر كث كثيف أسود وبشرة مائلة لسمرة شفيفة تعكس بفلاتها جاذبية عينييه السوداويين، بروز أنفه المطل على

الوجنتين بكبرياء تدل على ثبات الشخصية، ينتشر في وجهه زغب لحية شفيفة، وخط شارب رفيع يجمال ثغره، يضفي عليه سحر جذاب.

قبل أن ينطلق للشارع العام مر على العم جبار حيث دائما ما تجتمع لديه أخبار القرية، فالعازم على الزواج والمسافر والمتنقل والخابط والذي يود أن يفتح مشروعا وهكذا دواليك يتجه إليه لغرض الارشاد أو المساعدة، حيث لديه فكرة عامة عن أخبار أهل القرية المغادرين منهم والقادمين إليها، أنه أشبه بمختار القرية..

تعودت الناس أن تسره بأسرارها، أن تفتح قريحتها في دكانه أما لغرض الدعاية أو لطلب المساعدة أو للتباهي أو لمساعدة الغير أو لأخذ المشورة.. فكان لديه فكرة عامة عن الذاهبين لبغداد من أجل جلب حاجة ما أو مراجعة المشافي وعيادات الأطباء وهكذا دواليك. كانت الناس متعودة أن تسأل العم جبار أن كان له غرض أو حاجة يبتغيها من بغداد ليوفروا عليه مشقة الطريق، لطيبته وكثرة خدماته الجليلة إليهم..

كما يجتمع عنده بعض رجالات القرية ليتداولو أمورهم، لذا يكون ملما بأخبار القرية بشكل عام.. لذلك أرشده أبوه ليسأله إن كانت له دراية بمن سائر من رجالات القرية إلى بغداد كي يرافقه.. لكنه لم يجد جوابا شافيا إلا أن العم جبار أو عده بأنه سيخبر كل طارش يخرج من القرية، لينتبه على تواجده عند نقطة التقاطع.

وكان أحمد قد التقى بصديقه أسعد وهو يتبضع من العم جبار، وقد أخبره على نيته الذهاب لمدينة الدورة للاطمئنان على عمه، فاستغل أسعد الفرصة ليرافقه لحدود الشارع، وكان أحمد قد أوصاه بوالده إذا ما احتاج مساعدة ما في غيابه. كما كان أسعد تسره حرارة المشاعر تجاه عبيير مثلما تخاطله عبيير تلك النظرات والمشاعر بخفاء. فقال له أسعد:...

- أطمأن يا أحمد؛ مثلما هو والدك فهو بمثابة والدي، سأكون عند الطلب، وسأخبره أن كان بحاجة لأي مساعدة.
- شكرا لك أني واثق من أنك على قدر المسؤولية.

حينها انطلقا للشارع العام مبتعدان عن نقطة التفتيش الرئيسية بمسافة منتي متر أو تزيد، بقي ينتظر على حدود الشارع عجلة مارقة تنقله لبغداد مسلها ذاته بصديقه.

كانت الشمس هادئة في شهر آذار والنسائم علية منعشة، لم يستشعر بمرارة الانتظار بوجود أسعد إلى جانبه، طال انتظاره بحدود ساعة زمن. تسلى خلالها بنستلته التي تقاسمها مع صديقه، وعيناه منصبتان على الطريق يتأمل العجلات المارقة رغم ندرتها. كانت قد عدت أمامه بعض الشاحنات، حاول استمالتها إلى جانبه دون أن ترفأ بحاله، حيث الناس باتت ترتعب من مفاجآت الطرق الغير محمودة، لذا تجنبته..

بدأ الياس يدب في أوصاله مع تأخر الوقت، صارت الأوضاع أكثر حرجة. وكان قد قرر إذا ما تأخر لساعة زمن أخرى يعود

أدراج البيت، على أن ينطلق لبيت عمه في صباح اليوم التالي.. وهو منشغل بحيرته لمح عجلة بيك أب خارجة من القرية متجهة لبغداد، ما أن لمحها حتى هيء نفسه لها. ما أن أدركته العجلة حتى نادى عليه سائقها:....

- أحمد...أحمد..

توجه إليها راكضا..

- الحمد لله وأخيرا رأفت بي الظروف، مرحبا يا حازم،

كيف الأحوال؟

- بخير لم تنتظر هنا؟

- أود الذهاب للدورة لأطمئن على عمي في الدورة.

- هيا أوسع أخبرني عنك العم جبار.

ارتقي إلى جانب حسن بعد أن ودع صديقه اسعد، شاكرًا له

صحبته، (تنحى حسن شقيق حازم الأصغر جانبا)....حينها

قال له حازم:....

- نحن ذاهبان لشراء أدوية لأمي. هل تعرف أين يسكن

عمك؟

- أكيد؛ قرب مسجد الصحابي خالد بن الوليد، في حي

الميكانيك.

- حسنا إذا هو على طريقنا، سنوصلك للمكان المقصود،

نحن ذاهبون لحي المنصور.

- شكرا لك.

خلال مرورهم في الدورة قرب تقاطع الميكانيك نزل أحمد مودعا حازم وأخيه، نزل مرعوباً، حيث تراءت له المناظر بخلفية العبث وفوضى العصف فاق الاخبار التي سمعها.. الخسائر جسيمة، معظم الطرق مقطوعة، أثار الدم واللحم المتناثر واضحة على الجدران. كركبة حاجيات الناس متناثرة في البقاع على مساحة شاسعة، ترى الناس في سكرة من أمرها وهي تبحث عن ضحاياها، حيث اختلطت الأطراف المبتورة بـ كراكيب الأشياء والأحذية والنعل المبعثرة وجذاذ الزجاج المنتشر جراء أثير العصف المدمر- لم تنظف المنطقة منتظرة إجراءات التحقيق تكتمل.

لم يصمد طويلاً أمام تلك المناظر المخيفة، أتجه لبيت عمه القريب من موقع الحدث بوجه متجهم قلق، خائف من المحذور، من وقع المفاجآت الغير سارة، سخم الدخان لاكت فكره، عبثت الفوضى بظنه، حيث الحرائق وأثار السخام المتطايرة منشرة في كل مكان. المناظر أروعته. فيما خيوط الدخان لازالت تشتت من بعض المرافق المتفحمة بين تلك الأنقاض المبعثرة. الجدران منخورة بمطارق شظايا المتفجرات. أبواب الدكاكين (الكبنكات) المصنوعة من الألمنيوم، منبعجة، معوجة، مطعوجة، نخرتها الشظايا، عجنها العصف الشديد. جذاذ الواجهات الزجاجية والشبابيك منتشرة هنا وهناك، تشهد عن قوة العصف والمأساة الحاصلة، عربات الباعة المتجولة تحولت لركام وأخشاب مبعثرة، كان قد أزجى الحدث بسعير النيران وعصف التدمير على بقعة واسعة، تلك

المناظر أربكته، دب الفزع في قلبه، حزنت ملامح وجهه،
حزنا على الناس وخوفا على عمه وأبنائه وعلى ما ترى عينيهِ
من عبث، هذه المناظر كان يسمع عنها فيما سبق، كان
يشاهدها في الأفلام، لكنه لم يراها كحقيقة، هذه أول مرة يرى
فيها صور دمار بالشكل الحقيقي المرعب. كان يسمع بالأحداث
لكنه لم يشاهد حقيقة بشاعتها.

تحوّل بلسانه وهو يشاهد أثار العصف في محيطه. هذه
الواجهة كانت واجهة مشرقة للمدينة، فيما الشارع أضحى
كمخزن نفايات وركم أشياء وكراكيب متجمعة فيه.

الناس كأنها أصيبت بعدوى الزهايمر والعبث، تشعر بها
منغمسة بالرعب والخوف والحزن الطافح على الوجوه والألم
الكابد في القلوب. تهجس بها رهينة القدر، بئسة، جهمة،
شفطت من وجوها الدماء، كأنها تهجس بقرب موعدها مع
القدر.

الكثير من عربات الباعة تحولت لوقود نار وركام مبعثر،
منثورة في الطرق كعلامات حزن ويأس. فظاعة الأشياء
والأشلاء والدماء صارت تشرح له فظاعة القصص المأساوية
المشاعة، حالة البؤس طاغية، مشتركة بين أوجه الناس
والأبنية المتضررة، المدمرة المسودة.

حالة الحنق واضحة، بائنة في الوجوه على كل من غذى تلك
الفاجعة، على من نثر القرف بين بسطاء الناس. حالة تذر
عامة في الشارع جمعت كل أطيف الشعب. هؤلاء المجرمون

كأنهم جاءوا من كوكب آخر، بعيدون كل البعد عن معنى الإنسانية التي ننشدها، بحيث نقلوا لنا أمراض الجذم والكراهية، نزعوا كل ما في جعبهم من حقد وغل وجور وبغض نشروها بيننا، أصابونا بأمراضهم وفايروساتهم وجراثيمهم.

كان احمد قد شعر بانقباض شديد بمجرد أن حطت قدمه على أرض الدورة، قاده قلقه إلى وهدة الشك، حثه على الاستعجال لإدراك بيت عمه، صار يمضي بخطوات مسرعة نحو دارهم القريبة وهو يردد مع نفسه :... اجعلها بردا وسلاما...

وحين أدرك البيت استقبلته زوجة عمه بالأحضان، أستفسر منها عن أحوالهم قائلا :...

- مرحبا عمّة، كيف الحال، أبي طلب مني أن أطمئن عليكم، حاول أن يتصل بكم مرارا دون جدوى، هل أنتم بخير؟ أني أشعر بالأمان ظاهر على وجهك والحمد لله.

- أطمئن يا ولدي نحن بخير، ما كان بك أن تجازف وتخطر بحياتك من أجلنا، الوضع كما ترى غير آمن.

- لا يهم، المهم أنتم بخير، غدا أعود بإذنه تعالى، قلق أبي دفعني إليكم، لم يجد وسيلة للاتصال بكم، حاول عبر هاتفه ولكن الهاتف لم يتفهم قلق أبي بقي أخرسا.

- لا تهتم سادع عمك يتصل به ويطمانه بمجرد أن يعود، لقد ذهب مع المشيعين، حيث قتل عددا من أصدقائه،

فيما جارنا الأيمن أضحى من المفقودين، وجارنا الأيسر فقد أحد أبنائه والآخر أضحى جريحا بين أعباء الحياه والموت، نقلوه إلى المشفى.

- الحمد لله على سلامتكم، أرى زجاج النوافذ متطاير هنا وهناك.

- ربك سترنا، لا أدري كيف سلمت أجسادنا من الغل الذي امطروه علينا، نحن جميعا في ذات القطار نتحرك، حمل من هب ودب في طريقه. هذه الحياة أصبحت أشبه بالغصة، الكل لا بد أن يشرب منها. لقد غرقنا بالعصف والدخان والشظايا والفوضى والعويل الذي دخل علينا من النوافذ على حين غفلة.

المهم يا بني لا تشغل بالك لازلت طفلا، أدخل للبيت أبن عمك نائم، لم يرتاح طوال الليل نتيجة الجهد الذي قام به في مساعدة المتضررين، عمك على وشك العودة، وأنا يجب أن أكمل بعض الأشغال المتعلقة بتنظيف البيت وأمور الطبخ.

بقي ماكثا في بيت عمه يداعب ابنة عمه الصغرى **شهد**، ذات السبع سنوات، يلعب معها، سألها عن مدرستها وصديقاتها، شغل باله بها بعد أن حكا لها قصة علي بابا والسندباد البحري.

صار لا يجرؤ الخروج من البيت، شعر بالوضع المحيط بالدار ملغوما، قابع على شفاه حفرة، شم في الأجواء عبق حركة غير اعتيادية لقوى الأمن والشرطة التي تآتمر بأوامر القوات المحتلة لا اعتقال كل مشكوك ومشتبه بأمره. الشرطة تتبع

تعليمات أسياها من قوات المارينز في تعقب الجناة، باتت تعتقل كل غريب عن الحي بشكل عشوائي، بتهمة أو دون تهم.. لذا فضل البقاء في البيت ليبتعد عن السين جيم والقال والقبل التي لا تقنع الشرطة ولا تفك قيده إذا ما تمسكوا به.

كانت الصدمة شديدة عليه. التفجير لا يبعد عن دار عمه سوى 200 م فقط، ومع ذلك وجد أثر الانفجار تلاحقهم لعقر دارهم، هناك صفائح متناثرة هنا وهناك، النوافذ مفالجه على مصراعيها، هكذا تراءت له لتهشم زجاجها، كأن المكان قد تغير عليه للفوضى الدائرة وكثرة تناثر الكراكيب والأوساخ في الشوارع، لم يشعر بالرضا على ما رأى.

بقيت تلك المناظر والأحداث تشغل باله، تزيده قلقا، تمادى خياله حتى أمتطى خيل تفكيره، تجول بمطارق الأحداث بين الماضي والحاضر، فكر بما حدث وكيف كانت منتشيه قبل ذلك، كيف تحولت تلك الحالة النادرة من سكينه وأمان لفوضى عارمة وهيجان لفت الجميع بإعصارها الغاضب... كأن الأرض باتت تدور عكس دورانها، كأن سيلا جارفا ضرب قلاع العقول فعبث بمقدراتها. كيف اضحت تلك الأشلاء عقد وسط المصالح والرغبات، عابثة بمصائر الفقراء والمساكين، فلم تسلم الجرة من العبث، في تلك الليلة لم تستسلم جفنيه للرقاد إلا في ساعة متأخرة، قبل أن يحن الفجر بساعتين تقريبا.

فيما كان عمه قد عاد متأخرا بحدود الثامنة ليلا، وكان قد تفاجأ بوجود أحمد في البيت، حينها استفسر عن أحوالهم، وأدرك قلق أخيه عليه فقال لأحمد:....

- سامحني يا أبني أنت رأيت الفوضى بعينك، الناس نست أنفسها بسبب الفوضى والكارثة التي وقعت، انشغلنا بمصائب أصدقائنا والشهداء والجرحى، ها أنت ترى قد عدت متأخرا رغم الحالة لا تسر، والأمان مفقود، كنا قد شيعنا جارنا ثم تبرعت بالدم وتفقدت أبن الجار الآخر الذي بترت ساقه، أنه طالب جامعي، أما الهاتف فاني لم أتذكره مطلقا حتى أفتقد طاقة شحنه تماما، سأعيد شحنه وسأتصل بأبوك الآن.

صار يشحن بطارية الهاتف، ما أن أضيئت شاشته حتى صار يبحث عن أسم أخيه في قائمة الأسماء، ضغط على أسمه، أنتظر استجابة أخيه متبعارنة الهاتف وهو يجاهد في أن يظفر في شبك خط هاتف أخيه، مرت ثوان، فشل الاتصال، عاود مرة أخرى وفي المرة الثالثة تمكن من سماع صوت أخيه قاسم فيه إعياء وحنق ولوم.

- ألو!... كيف حالك يا أبو أحمد، أعذرني لو كنت مكاني لانشغلت بهموم الناس أكثر مني، أطمأن أنا بخير وفراس وعمار بخير، لم تتأثر سوى بتشظي زجاج نوافذ البيت نتيجة العصف، نجانا الله من الكارثة، ترى الناس سكارى وما هم بسكارى. لهذا السبب كنت قد

نسيت هاتفي حتى فض شحنه، انشغلنا في مساعدة
الجرحي والمنكوبين.

- الله يساعدكم، أفلقتنا يا عبدالهادي، عبثا حاولت أن
اتصل بك حتى تقطعت بي السبل بسخط الظن السيء،
أفلقتني ارعبتني صور الضحايا مسجات على الأرض،
شبهت أحداها بأبنك فارس الله يحفظه من كل مكروه،
هكذا تراءى لي المشهد، الحمد لله على سلامتكم،
أرجوا أن توصل أحمد غدا لجادة الطريق..
- لا يهملك أحمد أبني، بمجرد أن تهدأ الأمور أنشاء الله
أزورك.

بقي أحمد تلك الليلة يعاني من أرق، بعد أن رأى وجوه الناس
مغنجة بلون الورس. لم ينم إلا متأخرا على وسادة القلق؛ حتى
حفظ نجوم الظن بذات العوس من السرحان. ولم يصحى إلا
متأخرا، كانت قد جاشت في روحه هوام الوجس. لذا أنتظر
لفترة الغداء حيث لم يسمح له عمه من الرجوع قبل أن يتغدى
عندهم، كما ود تجنب فترة الصباح الباكر التي تكثر فيها
أنشطة العابثين والمجرمين، حيث كلما تأخر الوقت صار أكثر
أمانا وهدوء. وعند فترة الظهيرة حشره مع مجموعة في
شاحنة لوري، أوصلته للقريّة.

كانت قد تحملت هذه العائلة ظروف البلد المتعاقبة والقاسية وتقلبات الأوضاع بالممكن، تنقلت بين خيب الوشائج، متمسكة بالألفة والصبر على وقع الخوف المحيط بها، في محاولة منها المحافظة على بصمة الحياة وصمتها الرصين، متجنبة المنغصات والتقلبات الدائرة في الوطن وبضبط النفس والتعامل بالتي هي أحسن، درئاً لتقاوم العقد. لتستطيع أن تجاري تحولات الزمن، لتحكك بساطها بذاتها، متجنبة شتى أنواع الخروقات الدائرة في ميدان الحياة من تجاوزات وتجني وعناد وقسوة وتسلب وتكشف وتصحر وعناء وتدهور بما أحاط بها، والتي حلت على عاتق المجتمع بشكل استفزازي مع هبوب عاصفة الاحتلال الهوجاء؛ جنبت نفسها الاختلاط والمشاحنات، أحياناً يتنازل الشخص عن جزء من حقه مقابل فض العقد ودرء الفوضى والتمسك بالسلامة، هكذا بقيت تعيش تحت مظلة الوحدة والتأمل والمعاونة.

كانت قد استنفحت حرب السلاح والمصالح والاقتصاد والطائفية والقومية والفساد الأخلاقي، بحيث شمل زنجها كل شرائح المجتمع العراقي قاطبة، في سلسلة حروب أكلت لب الحياة.. تلك الحروب أجندتها بخبرة الحياة، حيث حرب أولدت حرب دون هوادة ودون أن ترعوى القيادة في إدارة شؤون الدولة بالشكل المطلوب الذي يخدم مصلحة الشعب. فحرب الشمال مع الفصائل الكردية كانت لب العقد، إلى جانب طمع دول الجوار في العراق، هي التي دفعت إلى بلورة حرب

إيران بسبب أزمة شط العرب التي أصرّ شاه إيران إلى سرقة جزء منه في اتفاق الجزائر لوقفه دعمه للأكراد، وحرب إيران طرحت تجاوزات الكويت على أرض العراق بسرقة حقل الرمييلة ومن ثم خور عبدالله على الساحة، التي ضمت جزء من حقل الرمييلة وميناء أم فصر إلى أراضيها خلال انشغال العراق في الحرب مع إيران مما أدى إلى تفاقم الأزمة حتى دخل العراق الكويت، تلك التي استنزفت قدرات العراق بدخول قوات التحالف المعركة ومن ثم دخول مرحلة الحصار، ومن ثم الاحتلال، وذلك بعد تجلّدت جلودنا بالحصار الذي دام 13 سنة، نقلتنا أوضاع الحصار لمرحلة اليأس والاستسلام ومن ثم الاحتلال، تلك المراحل تقابلت بين عقاب وذل وهوان واستنزاف دامت من سنة 1974 ولغاية 2020 بين مد وجذب، والتي جاءت بحصيلة علي بابا وزمرته لتسيطر على مقاليد الحكم ويشيعوا الفساد في أرجاء البلاد بعد الاحتلال عام 2003 وكما توقع ذلك من قبل العم جبار.

حروب لفت الشعب في دوامة النزف، أدخلته في دارة العناء دون إرادته، قمطته بقمط البؤس واليأس والتهجير مدة خمسين سنة من الشقاء والعناء، ارغمته على تحمل الهوان والخنوع، حروب جرت أخرى، فاقت بشاعة حرب البسوس، بما لحقت بنا من عصف ونزف وعنف وفتك ودمار لا طائلة لنا بها، ولا زال الحال على ما هو عليه دون تغيير واضح بأوضاع الوطن بسبب شلة اللصوص.

هذه العائلة المسكينة بقيت بين سنة 1990 – 2006 تردم الفجوات وترمم الذات بالذات بما تملك من أسمال وأطمار وتكهّنات بالممكن المتاح، ضمن تقلبات الأجواء المحيطة بها من عصف ورعب وحصار واحتلال وأزمات، وما أفرزت تلك السنين العجاف من تركّات وشقاء وسموم ومعاناة، كحال العوائل المنكوبة، المشلولة، محتارة بذاتها وبهمّ تربية الأبناء الذين شبوا على حياة الجلد، منشغلة بأمر تدبير الرزق في ظل أمان هزيل لا يؤتمن.

كانت عائلة قاسم قد استسلمت للظرف كبقية العوائل، لا حول لها ولا قوة إلا بالله، انتقلت من ضيق لمأساة، ومن مأساة لاختناق، ومن اختناق لشقاء، لوضعية أكثر سوء وقرفاً، تحولت من حصار ظالم مقيت يندى بالشح والفقر لحالة سلب الإرادة واحتلال مشوب بالعسف والقتل يندى بالعجز والهوان. سخط فضيع لا يحتمل حل مع الفجعة التي أصابت الوطن، في ظل أجواء تحدست بليل طويل طغى على أرجاء الوطن.

تلك العائلة حملت على أكتافها جدلية الجوع والقتل والدم والخديعة والخنوع والأذلال والتنكيل والتزييف وطمع اللصوص وغل المجرمين القتل... الخ من قرف وسوء معاملة وتقلبات جرت عليهم الويلات، تفنن بها المحتل وشيلة المتسلطين المرافقين له من أحزاب ومليشيا في تعاملهم مع العامة بقسوة، في زمن يعد من أظلم فترة مرت على الوطن عبر تاريخه الطويل، جرد الشعب من كل حقوقه.

ما كان أحدا يتوقع بأن مجرى الأمور سيسير بهم إلى وهدة الهاوية، كل شيء تجلى عن واقع غير منطقي، بحيث التفت شرقة الأعداء على جسد الوطن، لفت الشعب بسبات طويل، ما عاد بإمكانه التخلص من شرقة الظرف التي تشعبت بالطائفية والقومية، تشابكت الخيوط؛ بحيث ضاع رأس الخيط في وسط تلك العتمة، حتى أضحت قرارات القيادة عبثية دون تخطيط مسند...

تسارعت الأحداث، تعكرت أجواء الأمن والأمان والرجاء والمحبة والتسامح والتصافح والتناغم والإيمان والنظرة والبصيرة... الخ، تراخى المزاج العام للفرد في مواصلة سعي مشوار الصدق والمحبة والإخلاص والنجاة، الكل صار يدور في دوامة فلك التغيير، كل وجد ذاته تتخبط في مشوارها دون أن تتمكن من انتشارال نفسها إلا بالهرب خارج حدود الوطن لتلقى إذلال آخر وعذاب آخر وجواء أشد مما هو في الداخل.

تولدت عقد ومشاكل جديدة على سطح الميدان، ظهرت قوى واختفت أخرى، صار العصف خليط من عقد وتجاذب وتنافر بين مكونات الشعب، باتت العلاقات بين الناس نشدت وترتخي حول نقاط المصالح الشخصية وثقل المادة، فيما تتنافر في نقاط القسمة والتسامح والرحمة والوطنية، وتصدأ في غيرها على حسب المصلحة الشخصية ودرجة الخيانة للوطن. أضحت العلاقة رخوة، سقيمة، وخمة، نزعت ثوب العفة أمام قرف الحالة المراة. تلك العلاقات صار لها أوجه متعددة من قتل وخطف وتكيل باسم الدين والطائفية والقومية والقبلية

والحزبية، حيث تولت الأحزاب الجديد وميليشيات جديدة منتبذة ترفع على عاتقها توليد بواكير الشر في الوسط، طافت العمائم بين الناس تدعوا إلى الفوضى، سادت القرصنة والاستعباد بشكل غير مسبوق وغير معقول. صور غامضة لا أحد يفهمها ولا مسوغ لها حلت في كل شارع وزقاق. صارت الأحداث تتناسخ وتتكاثر بالانشطار والتسافح والتنافر والتصاهر باسم تلك التشكيلات المصطنعة، طالت الأيادي جوهرة الأخاء والمحبة والسلام، أضحت تنتشر في الميادين عصابات فتن وقتل وتكيد وسرقات مهولة، قسما منها صفت ضد المحتل، وأخرى احتمت تحت ظله على حسب مقدار الفائدة والدرجة والايولوجية والمفهومية والوطنية في نفس كل منهم وكمية الفائدة المجنية. تلك القوى بعضها مدعمة من أطراف خارجية وأخرى اعتمدت على تمويل ذاتي، شاركت جميع دول الجوار في تفخيخ العقد بنياتها القدرة.

تلك الحالة بقيت سائدة، بحيث غدت تكبر مع كبر الاحزاب تحت مسميات وطنية لاستقطاب أكبر عدد من أبناء الشعب المغلوب على أمره إلى جانبها، والذي صار البعض منهم يتبع فرصة العيش على حسب دسامة اللقمة دون النظر للون الوطنية بعين ثاقبة، نتيجة المجاعة وتجرحه ذل الحصار الغير محتمل عبر السنوات السابقة.

قد أدم في ذلك النظام السابق الذي أنشغل بتصفح كتاب الحروب والاعتداد بالنفس مبتعدا عن هموم الشعب، وذلك بارتداء أربطة الغرور وبدلات الشعارات الوطنية الفتنازية

دون أن يرصن أبناء الوطن ويصن أسس الأسرة العراقية بالشكل المتين كـ بعض دول الخليج العربي. تلك الحقيقة المخفية عن البصر كان لها الدور في تفتيت الألفة بين أبناء الشعب؛ التف حبل الحنق على عنق البسطاء والمساكين. كان قد غال في سلوكه حين دعا المعلم إلى العمل كعامل أجير بعد الدوام الرسمي لتدبير شؤون رزقه، بينما احتفظ بمخزون الدولة المادي في البنوك من خلال بيع النفط لتسيطر عليه القوات الغازية بعد الاحتلال. كان من أهم اسباب التدهور الذي حصل في العراق هو النظام الثابت والرئيس الاوحد المفدى والحزب الواحد...

هكذا ترك الشعب يزحف على بطنه في ميدان القتر والفقر والفاقة. ذلك الشعب الذي بقي طوال حقبة الأنظمة الفاسدة المتعاقبة منذ بداية العصر الحديث يتأمل الحسنة والمعروف منهم، دون أن ينالها لتحسين أحواله المتردية.

هذا ما جعل المنافسة تبقى سارية بين القوى اللاعبة في ميدان القرار، يتناوبون الأدوار فيما بينهم، أضحت مسألة زرع الفتن والبغض بين الطوائف منهجا متبعاً ومسلكاً لبعض القوى المتنفذة، وذلك لفرض الذات والمصلحة الشخصية، تلك خطوة حث عليها المحتل، شجع عناصره الجديدة الضاوية تحت ظله، تلك التي حذر منها العم جبار رفاقه في واقعة السقيفة التي أثار حفيظتها في القرية في حينه.

تلك الفوضى جعلت الناس تفكر في خلق فرص عيش زهيدة، ومداواة الأمن والأمان قدر الإمكان، كونها لا تملك عصا موسى لتغيير الوضع، لا تجد حلولا سحرية تقنئها شرر الغاب، كانت قد تعاونت دول الجوار مع المحتل في فرض منهجه، من أجل أضعاف قدرات العراق التأثيرية المستقبلية.

حاولت عائلة أبو احمد الابتعاد عن أفاق المشاكل وايدىولوجيات الاحزاب تجنباً لتلك الكوارث التي لا تحمد وقعها، والتي لا تستطيع تحمل تبعية آثارها لبساطتها وضعف إمكانياتها.. أنحصر همها في زراعة أرضها وتدبير معيشتها بعد أن تعقدت كثيرا ظروف حياتها..

بقدوم المحتل؛ إنهار جدار التحدي الواهي الذي تركه نظام الحكم السابق في كل عائلة، شلت وسائط النقل عن الحركة، لتوقف تكرير البترول مع مسلسل انقطاع التيار الكهربائي المستمر منذ عام 1991، الذي يعتبر عصب الحياة العصري. أضحى المصير مجهولا والمستقبل مبهما في ظل قتامة سائدة في اجواء الحياة.

في تلك الأجواء الكل صار يترقب الغد بنفس مكتوم، بروح كئيبة مخنوقة، الحالة صدئة لا أمل يشي بيوم أفضل، ولا توقع يصيب، فالיום الذي يمضي هو افضل من القادم بأحواله؛ هكذا صار قاسم يحتسب للغد القادم بنفس مشؤومة.

بعد مغادرة أحمد كان قاسم قد هجس بوعكة صحية، ربما بسبب قلقه على أبنه وأبنته مقابل ضعفه وهوانه. ربما سول له ذلك المرض نتيجة ما لاح فكره من نغص دون أن يستطيع البوح به. لخوفه المبالغ على مصير أخيه وضغوط الحياة، أرتفع ضغط الدم، بات يشعر بوشوشة صداع وصدع لا ينفك عن ذهنه؛ عندها بقي جالسا لساعات طويلة يضرب أخماسا بأسداس للظرف الكالح الذي يمر به، لفقدانه الطمأنينة على زوجته التي باتت وحيدة الدار مع أبنتها الصغيرة هديل، بعد أن طلب من عبير مبيت تلك الليلة في بيت الجار أبو مريم حفاظا عليها من لعنة الغدر التي يتهيب منها بوجود قوات المارينز الامريكية قريبة عن القرية، هؤلاء الذين تحرشوا بعبير سابقا. قلقه بسبب غياب أحمد وغيابه لتكافئه بالحراسة الليلية في دائرة الاصلاح الزراعي.

كان أبو أحمد قد أحكم إغلاق باب الدار بمزلاجه الحديدي مثلما أحكم رتاج الباب الخارجي للبيت مثل ما يفعل كل يوم، كما أحكم باب الملحق الذي بناه من قوالب طوب اللبن المشبعة بحصيد التبن، والذي جعله مرتعا يمنح العائلة الدفء والأمان وحرية الحركة داخل إطار البيت، حيث يعتبر فسحة للتنفس والراحة في الفترة الصباحية والمسائية من أوقات الصيف المشوبة بالحر، إضافة لجعلها حضيرة لتربية الحيوانات الأليفة به، لذا أحيانا يشعر الفرد بذاته يود أن ينطلق من سجنه كطيور الزينة المحصورة في أقفاصها، يود أن ينطلق للفضاء ليمرح مع النسائم، في الوقت الذي به يفسح المحيط مجالا جيدا للعب

الأطفال وتنشيط البدن ومرتع لجلسات سمر عائلية ولعب الدومينو أو الورق في ليالي الصيف الجميلة....الخ.

كانت فخرية قد أوقدت الفانوس الوحيد الذي يعمل على النفط الأبيض (الكيروسين) لتضعه في مكانه المعتاد قرب دكة الحمام، بعيدا عن الصالة التي فرشت بها الفرش لتتجنب عبثية الحشرات التي غالبا ما تجذبها الإنارة الليلية، كما ليعينها الفانوس على الحركة وسط الظلمة المطبقة. كانت الناس قد تعودت على أماسي الظلام منذ أن ضربت مصادر الطاقة كما ذكرنا..

بعد أن أكملوا عشاءهم، فرشوا الطنافس والحصران الخصفة ومرتباتهم؛ حينها غادرتهم عبير إلى بيت الجيران بتوجيه من أبوها لتتجنب غدر جنود المارينز إذا ما أغاروا على البيت ليلا، فيما توجه قاسم لحراسة المؤسسة الزراعية، حينها قالت فخرية لزوجها:.....

- يا أبو أحمد؛ أشعر بانقباض في قلبي، فكري مشغول بأحمد، ليس من الحكمة إرسال هذا الطفل وحيدا إلى بغداد، الأوضاع لا تسر، أخاف أن يصيبه مكروه.
- أذكري الله يا امرأة، لا تؤولي الأمور، ثم أنه مع عمه، الله يحميه، ثم أنه متمرس على الصعاب لن يخاف عليه، يمكنه تدبير أمره، غدا بأذنه تعالى يعود بسلام كما قال لي هادي الذي سيؤمن له عجلة النقل، قل لن

يصيبكم إلا ما كتب الله عليكم، صدق الله العظيم -- كل شخص يموت في يومه.

كانت العائلة مؤمنة بقضاء الله وقد تعودت أن تتناول بعض آيات القرآن قبل أن تستسلم للرقاد، خاصة المعوذات منها والشهادة.

فمنذ ستة عشرة سنة والحال لم يطرأ عليه تغيير، استمروا يعيشون في واقع مزر، في جحور النسيان كالوطاويط! تخاف أن تدلي برأسها خارج إطار الظلمة التي تكبلوا بها، حيث صاروا يركنون ذواتهم خلف الأحلام، بعد أن مست مشاعرهم الرهبة المخفية الذائبة في سدم الظلمة، وخاصة بعد قدوم المحتل الغاصب وما لحق بهم من ويل...

لقد تعودت أحداقهم على مغامسة الوحشة وعلى مجاملة الأطفاف العابرة خلف التمني، حيث في طرق معيشتهم كأنهم عدوا أنفسهم من تركة العصور الحجرية، فمنذ أن دمرت مصادر توليد الطاقة الكهربائية في الناصرية والدورة وبيجي لم تشفى الجراح، بقيت الحالة تعاني من أزمتها، وبقي في عين الشعب الف استفسار وسؤال.....

يا ترى؛ لم كل هذا؟.....

اعتمدت العوائل على مولدات صغيرة لتوليد الكهرباء، وقد تراخ عمل تلك المولدات أثناء الاحتلال بسبب ارتفاع سعر البترول وشحته مقابل دخل الفرد المحدود.

كان القمر يتهاذى وسط السماء كفنار يبهج الأجواء وهو يطل على الوجوه، فيقحم الذوات بمغازلته عبر نوافذ المنازل الواسعة، حيث سطوعه يولد طمأنينة في نفوس الناس، يزح عنهم شبح المفاجئات الغير سارة. تجلى في الأفق لتراضي النفوس. درجة الحرارة مرتفعة نسبيا عن معدلاتها، فهي تزيد عن 25 درجة مئوية نهارا، وتنخفض لحدود 15 درجة مئوية ليلا .

كانت إدارة مدرسة عبير قد تساءلت عن سر غياب عبير، طالبت ذويها بضرورة معاودتها لكرسي الدراسة لأدبها وشطارتها بعد أن تبادت بغياباتها فترة أسبوعين.. كانت قد تفوقت بانتهاء فترة النصف الأول من العام الدراسي، لكنها لم تجد من يشاركها فرحتها كما في الأعوام السابقة، تبخرت الهدايا وعبارات التهليل والأعجاب، تماهت الأفراح بعد أن صارت الأجواء الخارجية لا تسر، لم يهتم بها أحدا سوى والديها، حيث قالت لها أمها.

- الله يحفظك يا بنتي، كبرت وحلوت ملامحك، كوني حذرة في تصرفاتك، سيفتح الله لك أبوابه العطرة، كوني كما أنت متميزة، سيفتح الله لك أبواب فرجه، وسيهديك مستقبل باهر.

ولكن بعد معاكسات وتحرشات جنود المارينز بها، هؤلاء القابعين في نقطة التفتيش كأبالسة؛ منعها أمها من الذهاب للمدرسة بالاتفاق مع والدها الذي تمكن من إقناعها على ترك

الدراسة التي لا تجلب لها فائدة تحت هذه الظروف القاسية، وكانت قد اقتنعت بوجهة نظر والديها بعد أن شعرت بالخوف من تحايل جنود الأمريكان في الإيقاع بها.

أخذتها أمها بالأحضان وقبلتها من جبينها وقالت لها بحضور والدها:...

- لا بد من إيجاد حل لهذه المعضلة قريباً.

كانوا جنود المارينز قد وضعوا عبير في نصاب أعينهم، لفتنتها وسحر قدها. شاهدوها مراراً خلال توجهها لمدرستها، فصاروا يرقبونها في ذهابها وإيابها، بل تناولوا في مراقبتهم لها وهي تعمل في الحقل مع ذويها أو دونهم. وكانت قد شكت تحرشات المارينز لأمها.... فقال لها أبوها:....

- يستحسن أن تباتي ليلتك في بيت صديقتك مريم على أن تعود في صباح اليوم التالي باكراً لتساعدي والدتك في أمور البيت، على الأقل أحداً تسلي الأخرى. جهزي حالك: سأخذك لدارهم مع ذهابي للحراسة، وفي الأسبوع المقبل سأنقل مدرستك إلى الدورة لتبقي في بيت عمك هادي في مدينة الدورة حتى تنهين المتوسطة.

- حاضر يا أبي وهي فرصة لتجنب شرورهم.

هكذا تم الاتفاق، وفعلاً باتت ليلتها في بيت صديقتها مريم. خوفاً عليها من مدامه جنود المارينز الذين لا رحمة في

قلوبهم، والذين لا يرددهم رادع ولا يمنعهم مانع من تجاوزاتهم على الآخرين، طالما معهم السلاح والجرأة والحرية المفرطة والتشجيع من قبل قياداتهم على التجني والاسفاف بحق ابناء الشعب. فهم يفعلونها فيما بينهم ودون خجل؛ فما بالك مع الغريب، تلك هي عاداتهم وتقاليدهم، فهم يرتدون الفساد على مقاسهم.

تتخلل ليالي شهر آذار نسائم منعشة وباردة، لذا تجد الناس تستغل تلك اللحظات لتسرق من فم الكدر رقادها، ومن سواد الليل راحتها، ومن العين وسنها وألقها، كأنها تسرق الراحة من براثن القسوة المحيطة بها، بعد أن يكونوا قد أجهدوا نهارا في الحقل. على الرغم من أن القسوة أصبحت حالة روتينية في حياة الجميع، وصبغة دائمة تقبع في الوجوه، أمام تنوع أوجه الظلم المراغة والموزعة على عاتق الشعب بالقدر المتساوي.

في تلك الليلة ليلة الثاني عشر من آذار (2006 /3/12) افترقت عبير عن أمها بنفس حزين، وكأنها كانت تود أن تلتصق بها، فهي لم تكن سوى فسيلة متشبثة بجذع أمها، تشرئب ملح الحياة من عطفها وحنانها. لذا ظلت مرهفة بحضن أمها مثلما أمها ظلت محتضنة لها، قلقلة بشأنها، ليست لأنها طفلة مراهقة، بل لأنها تشعر بما يدور في خلدتها من ضياع بسبب تلك الضباة القابعة في قريتهم.

لقد تكررت الحوادث في البلاد، وتهجس بأن الخطر بات يقترب منهم بالقدر الذي يحاولون أن يبتعدوا عنه. بل أنه ماثل

أمامهم ككابوس، لا يفارق مخيلتهم طالما تلك الضباع الجائعة تدور حولهم، تبحث عن الجيف في محيط دائرة تفكيرهم.. جنود الأمريكان لا مانع لديهم من أن يداهموا أية دار دون إذن، فممكن أن يلصقوا التهم بمن يودون جزافا. كانوا قد تجاوزوا على أرض الفلاح **عبد المحسن** بعد أن عبثوا بزرعه بعجلاتهم، كما تجاوزوا على **حامد وجواد**، الخ في تدمير مزارعهم وحرق محاصيلهم بحجة متابعة الإرهابيين، وكانوا قد طمروا الآبار الارتوازية التي تسقي أراضيهم علنا ودون أسباب.

لقد هامت بها أمها وتألمت لفراقها، كما ظلت تعيش عذاب الفراق بشأن ولدها أحمد.. ارتفعت وتيرة القلق في ذاتها حتى صارت تناقش زوجها بصحة جدلية إرسال عبير لدار أبو مريم وتفريق شمل العائلة، يا ترى؛ هل أخطأوا بتأويل فكرة الشؤم مقدما؟ حيث تكاد أن تكون المسألة نفسية أكثر من أن تكون ذي أساس ويقين، القلق نابع من حبههم وحنانهم لأبناتهم، وكما أن الخوف وارد عليها من مخالب الوحوش الغادرة.

فكرة مداهمة البيت واردة في ذهن كل عائلة، ذلك ما يهيج القلق في داخل الأسر. لكن زوجها طمئننها بأن مبيتها قرب صديقتها تولد لديها راحة نفسية في ذات الوقت الذي به نتجاوز حاجز القلق، وهي كذلك بحاجة لأمان واسترسال نفسي لمداولة أفكارها مع رفيقتها، دعيها تنسى قلقها، فهي لازالت صغيرة لم ترى من الحياة سوى الكدر.

تلك اللية الوخيمة مرت عليها كاليلة استثنائية، ثقيلة، كملت
مشاعر الأمومة في صدرها، مثلما عززت العواطف في قلب
عبير تجاه أمها وأخويها، خاصة بعد مغادرة أحمد الذي ترك
فراغا واضحا في البيت لأول مرة.



بمغادرتها الدار كانت عبير قد تجاوزت أزمتها بلقائها صديقتها مريم، استأنست مع رفيقتها عبر ليلة أنس قضتها بصحبتها لمراجعة الذاكرة في أمور شتى، وجدت في صديقتها مرتعا لفض مخزون أفكارها وإباحة شجونها، عبرت لها عما حصل لها وما تتوقع وما قد يحصل مستقبلا بما يخص مستقبلها ومستقبل الوطن. هكذا انفتحت أساريرها حيث بدأت تقضف لصديقتها عما يجيش في داخلها وحسب تحليلها وما سمعته من والديها. حيث الطفل في هذا العمر يغوص في مستنقع الأحلام والخيال والشؤون المستقبلية وشجونه الفضة، نتيجة تزامم الأفكار وتراكم الأسى الابتئاس من جهة، والقلق المستفحل في لغة الشك والتهيب من الغد القادم، وإمكانية تخطي عراقل الزمن المتجلدة والمتجددة من جهة أخرى..

فالصور المتدرجة في الذهن شتى، تعبر على مكنون الشخص وما تمخضه الأحداث المتقلبة والمتجددة بلغة الغل والقرف التي قد لا يفهم ابعادها الإنسان العادي، تهجس بها كصور التلفاز المتقلبة لزخم الافكار المتجددة، حيث ما أن تثبت إحداها حتى تزاح من الذاكرة لسرعة التقالبات الحاصلة في حياة الإنسان والمجتمع بالذات، وقد شذت قاعدة الحياة بعد الاحتلال.

مريم والتي تعد من سننها ورسنها وفي مرحلتها الدراسية، لا تختلف عنها بشيء من هذا القبيل، لكنها لا تنافسها أبدا في

مسألة الذكاء والجمال والخيال، لا تضاهي فتنتها وحسنها قط، ولا ترتقي لها بطول قامتها، تهجس بعبير وكأنها تكبرها سنا وتزيدها فتنة والقا...

حالما التقينَ بفرشتهنَّ المشتركة، انغمسنَ باحاديث جانبية عبرنَ بها عن أمورهن الشخصية، عما يجيش بخواطرهن من تطرف مستقبلي وبما يخص أمر الحب والدراسة والمصير، وكأنَّ الهواجس التقت في نقطة لقاء بعد فراق، تلك الأمور جمعت بينهن وشوشة أحلام العصافير وآمال مستقبلية عريضة لم يسعها السرير، فبتن يزقزن ويهدلن، درن في دائرة الاحداث التي أثرت على أفكارهن وأحلامهن، فغدت لغتهن لغة شأن مبهمة، مشوشة، لفحت أذهانهن بسليط الرهبة والشئم.

الأحلام الفتية الهائفة، أضحت لها صدى في النفس مع تجلد الظرف المجحف، كل منهن أضحت مستهامة بالأمل، تائهة، مرعوبة من الوجل، أوضاع الوطن لا تسر دون حلول بائنة، عجز واضح في الأمن والازاد وفي هيكل الحكومة المشكلة وإدارة السلطة، والتي صارت تبتث سموم النكد والقهر في البعد القادم من التفكير، للشك بإمكاناتها وقدراتها في إدارة الدولة وفي معالجة تقرحات المجتمع، تلك الوقائع تزيدهن من العبء على سوء الطالع وهن يقبعن في جحور الظرف يومٍ بعد يوم.

صرنَّ يَحْلَمْنَ بحياة مستقرة وبمستقبل هادي، ينقلهنَّ لبر الأمان خارج حدود الظرف، لوهددة الشوق والحرية التي كانت سائدة قبل فترة الاحتلال. لازالت صور أمس تزهو في ذاكرتهنَّ،

وهن يرتعن بحضن فترة أمان سائدة، تحثهن على التجديد والترغيب الدائم بالأفكار المتجددة، فترة لم تمض على تشوها سوى بضع سنين عجاف، لازالت تلك الفترة تأملهن على العودة لواقع احلامهن...

كانت الشمس قد غربت عن حيواتهن منذ أن تلبسن بفكرة التجريد، منذ أن جنحت بهن مراكب العبث لشواطئ العبودية، أضحت للأمور الضالة نكتة في العيون، يشتط سرها من رحم الغسق الطاغي، من العناء الذائب في الواقع المرير، وما تفرزه الاحداث من محن واحزان....

الفكر مرهق، ينزف صبراً بلا هوادة، يتأرجح بين لفح الشك وصمت اليقين. لا يُسمع للأمل صدى يطمئن المستقبل أو يريح البال، ولا تُرى له صورٌ تسرّ؛ سوى خيطٍ واهٍ يتوهج في أعماق العتمة، يقودهن إلى مجهولٍ أعمق من الواقع، حيث تتعثر الخطى عن تمييز الأشياء، وتعجز عن بلوغ جادة الصواب نحو فجرٍ يحقق الأهداف.

وربما ينتشلن ذواتهن من هذا الواقع المشين بطريقةٍ ما، كعبثٍ ينفلت عكس التيار الجارف، غير أن ذلك يظل احتمالاً بعيداً، ميؤوساً منه، في ظل أوضاعٍ قائمة يصعب تغيير مسارها في الزمن القريب.

بقين في أماكنهن يتأملن تحسن واقعهن، وهن يرتدين جلباب أحلامهن الفتية، يعبرن بخيالهن كعصافير بين ظلال الأشجار،

يزقزقن في خفاء الروح، وكلُّ منهنَّ غدت أميرةً في ذاتها،
تشعر ببهاءٍ داخلي يفيض.

تحولن من واقعٍ مريض إلى واقعٍ أسلم، واختفين خلف ذواتهنَّ
الحقيقية كأشباحٍ متخفية بين حيثيات الفكرة المتنقلة بين
الماضي والحاضر ودروب المستقبل، دون أن يصغين إلى
الهمهمة المفزعة، المبهمة، المتسربة من حولهنَّ وفي
جورهنَّ المثربة والمرثية.

هناك، حيث أولويات الفكرة تنبض في الفؤاد، تتخطى
أرواحهنَّ منغصات حقل العقد المتراكمة في طرقهنَّ، برحاء
النفس، نحو واقعٍ يزهر بأحلامهنَّ الفتية.

وهنَّ يستعذن بالله يركبن على سنام الضوء النافذ، يعدنَّ بعض
اللحظات الشاردة عن الذهن لواقعهنَّ، يطرقنَّ أبواب الأحلام
من حينٍ لآخر برغبات البنت المراهقة المتألمة مستقبها
ووظيفتها وحبيبها. الفجر قريب، وفي ذات الوقت مغشي بليل
طويل، لا يمكن التكهّن بجزل ظلامه قريباً، أنها لحظات شد
وجذب وتخاطر مروعة.

بين الحين والحين صرَّ ينغمسنَّ بهواجس الخوف والشجن،
وبالذات حين يسمعنَّ صدى الرعب يتجدد في حياتهنَّ، نتيجة
سماعهنَّ لصدى إطلاق نار أو قذائف مدافع تقطع سلسلة
أفكارهنَّ عن جدول المستقبل، أو ما يخطر على بالهنَّ مما
هجسنَّ به وما سمعنَّ على ألسنة الناس والمقربين وأولياء
الأمر، والذي يرونَّ أثر الاحتلال على الواقع...

قالت مريم لعبير وهي تتأمل خيرا:...

- أبي يقول: الاوضاع لن تكون أكثر سوءً مما نحن عليه، لابد من أن تتجلي هذه الغمة عن هذه الأمة، لابد أن تتبلج ضياء الفجر وسط هذه العتمة، لتزيج غمامة الشر التي تظلنا، لابد أن تنتهي الفوضى لتسفر عن سكون وحياة مرنة، سلسلة، في سفر حياتنا.
- وأبي يقول عكس ذلك، حيث لا انفراج في الحياة طالما هناك محتل يتحكم بنا ويحكم الوطن.
- أبي يفسر من وجهة نظره، بأن الرأي العام العالمي بات يعيب أفعال وسلوك القوات الأمريكية بما فعلته وتفعله من تنكيل وتدمير لاح أسس بناء الدولة في العراق، وما نتج عن تلك الأفعال من تشرد وعبودية وتهجير، طال الشعب كله. كما أنهم عجزوا خلال تحريهم العثور على أسلحة الدمار الشامل قبل وبعد الاحتلال، تلك الحجة التي جعلوها شماعة لعدوانهم واحتلالهم العراق.
- كما أن السطوة التي مارسوها أولدت قسوة - فالعنف أولد عنفا سبب دمارا وتمييزا واضحا. صار القتل يزداد بين صفوف الشعب الأعزل، والقتال يزداد فتكا بين الفئات المتصارعة والمحتل، يزداد همجية وعدوانا وانتشارا يوم بعد يوم. ثم من يبالي بنا ومن يستطيع أن يوقف همجية أمريكا؟

- [illegible]

بعيدا عن شفرات المغامرات الجارحة، لا أوده يتبع
شفرة الأسف والندم، أو ينبس بشوكة ألم، أو يخور
بمطية الدهر كالأعمى وهو بهذا العمر الفتى....

لكن لا أخفيك سرا بأنني أشعر باهتمام أسعد بي كثيرا،
دائما ما يحاول أن يقترب مني ويتحجب إليّ، إلا أنه
أكثر خجلا مني، لا يود أن يجازف، أو يجرح مشاعر
أخي أحمد، لذلك تجدني في هذه الفترة ملتصقا به كتوئم
روحه أكثر من أي وقت مضى.

- وأنا أشعر به يختلف عن الشبان، أنه شبه منعزل،
كتوئم، أما لتمييز فيه أو لغباء يآلف طبعه؟

- لا- أنه تميز واضح، لقد جربته مرة عند العم جبار
عندما اختبر مجموعة اولاد حين ود ان يهديهم كرة
فكان الاجدر بينهم، كما أنه وسيم وحسن الخلق، إلا أنني
لا أود أن أشغل بالي بمطبات العشق والهوى، لا أريد
أن أنحرف في هذا العمر لأي منعطف، لازلت صغيرة
تنقصني الحكمة والدراية، ولا أريد أخرج أخي وأهلي
بأمور ليست في محلها.

لكنني دائما ما أراه واقفا في طريقي كأنه يحرسني،
محاو لا محادثتي أو التقرب مني ملمحالي باهتماماته
المتكررة... كما أن هؤلاء المجرمين من جنود المارينز
لا ينفكون عن إسماعي كلمات لا أفهما، أهجس بهم
يودون أن ينهشوا لحمي بأظفارهم، يودون أن أبتسم
لهم، أجمال قذارتهم...يا مريم أنني أخافهم، بمجرد
المحهم في الطرق؛ أصد عنهم هاربة، أخاف غدرهم،

لا مانع لديهم من رشقي بغداراتهم إذا ما أسأت السلوك معهم. هذا ما دعا أبي أن يحفزني للمبيت عندكم خوفاً من تجاوزهم عليّ، لكن قل لي ماذا عنك أنت يا..؟

- أنا أفكر بأبن عمي الذي لا ينفك عن مدحي أمام والدي، ولكن لم أجد منه ما يطمئن قلبي، ربما لأنه أكبر مني كثيراً في العمر، الفارق بين عمرينا اثنتي عشرة سنة يا عبيد.. لكني أميل له، معجبة به وثقافته، وبنظرته للمستقبل. أشعر به يفهم بكل الأمور أكثر مني، لذلك أتعلق به وأحب الاستماع لحديثه السلس، أحب أن أسمع كلامه، أحب أن ألامس خشونته. أشعر به مهتم بي، يجاملني، يلاطفني، أترين هذه السلسلة التي أرتديها، هو الذي أهداني إياها قبل شهر من الآن.. أشعر به مهتم بي، أحياناً يشجعني ويحثني على الدراسة ويحاول أن يشرح لي بعض العقد التي لا أفهمها، كل ذلك الاهتمام دون أن يفصح لي بالحقيقة، لا يود أن يشرح جدار القرابة.

- لازلت صغيرة، لذا ينظر إليك كلعبة يحب أن يهتم بها حتى تدرك الحياة، ثم بعد ذلك ينقض عليك كالأسد المفترس، أهتمي به عن بعد إذا كانت لك رغبة فيه، راعي مشاعره، انتظريه بصمت دون أن تفصحي له، لا تستعجلي عليه ولا على الزواج، ربما المستقبل يغير رأيه، أو يتغير رأيك به مع تقلبات الزمن.

- بدأ الشغب يركب مخي، كأنني أركب حصاناً يسرج بي في حقله، بصراحة جعلني أكبر سناً مما أنا فيه، بات

- [illegible]

- كثير من رجال الدين في هذا الوقت يتقصون شخصيتين، شخصية طاهرة عفيفة ظاهريا؛ وأخرى شيطانية عابثة خبيثة تحت الجبة والعباءة تخطط لهم، يتظاهرون بالدين والتقوى ويسلكون مسالك الشيطان المنافق، يضحكون على الناس لبيتزوهم ماديا وجنسيا، وبذلك هم يسيئون لأنفسهم قبل أن يسيئوا إلى الدين.
- ههههه، هؤلاء هم رجال الدين المنغمسون بالسياسة، والذين يودون ارتقاء المناصب باستغلال الدين كحجة لهم، يتبعون الهبرة والمنفعة الذاتية.
- صدقت، هذا هو ديدن بعض الرجال، هم أضعف خلق الله أمام النساء والمادة.
- أ تلك هي نعمة فينا أم نقمة؟
- يا مريم؛ هي نعمة إذا عرفنا ذواتنا وذوات من نتعامل معهم، وهي نقمة حين نغفل عن عقولنا فتلحقنا أديتهم.
- يا عبير أريد أن أسألک: من هو الجاحظ؟
- هههههه، إلا تعرفیه!!.. بیاع اللبلي المنافس لعبود جنطه هههههههههههه.
- ههههه، ترى لماذا یسمونه عبود جنطه؟
- لأنه يشبه الجاحظ ولا یخلع الحقیبة النسائیة عن عنقه، تلك التي یضع فیها مدخراته، هههههه. هیَا غلبني النعاس، تصبحي علی خير، غدا نکمل حديثنا یا شهریار.
- وأنت من أهل الخير یا شهر زاد....

وقبل أن ينزوي القمر خلف أفق الدجى، وقبل أن تفرش الظلمة خمارها على وجه الأرض، وبعد أن تجاوزت الساعة منتصف الليل بقليل، في الوقت الذي به استسلم الجميع للرقاد. في تلك الساعة كان قد هزَّ السكون الطاغ انفجارا رهيبا اهتزت معه أركان المنطقة بأسرها تحت وقع سخط العصف، انفجار انتبه إليه سكان القرية، ايقظ النّوَام من سباتهم، أوقع رعبا في قلوب الناس، وخاصة مع سطوة سكون الليل يكون للصدى وقع شديد يتجلى صخبه عبر الأثير، متجاوزا المديات بتضخم الصوت.... كانت قد اهتزت النوافذ إذعانا لما قد وقع من حدث جلل.

الحدث أوقع خيفة في قلب عبير، أنه ليس ببعيد عنهم، أنه في محيط القرية، ربما المقاومة ضربت نقطة التفتيش.. لكن الصوت يشير إلى نقطة أبعد من ذلك، ربما في دائرة الزراعة أو ما حولها. أو....(صارت تدعي مع نفسها خوفا على أبوها وأبناء القرية) يا رب أجعله بردا وسلاما على أهل القرية، لا يوجد شيء مهم يستحق أن يستهدف، انها منطقة مفتوحة، أرض مزارع وبيوتات مبنوثة فيها تخص المزارعين.

الخوف سطا على ذاتها من أن يستهدفوا بيوتات الناس الأبرياء، الصوت شرخ جدار الصمت بجلجلة وقعه العنيفة،

اسقط جدار الأمان عن محيط القرية. صارت النفوس تستشيط
ربعا في دواخلهم وهم يدركون الفعل وردة الفعل البغيضة من
قبل المحتل، لانهم يدركون بأنفسهم المستهدفون.

ارتعبت عبير كثيرا على والدها، أشتط فكرها بعيدا، حيث
قالت مع نفسها:.....

- إذا ما حدثت مواجهة سنكون في وسط المعمة، ربما
يعود جنود المارينز باستهتار أكبر، يتخبطون في أزقة
القرية، فيصبوا جام غضبهم على الأبرياء والبيوتات
المحيطة بهم هنا وهناك، حيث لا رادع يردعهم، ربما
سيبحثون عني، سيطرقون الأبواب بابا بعد
باب!!!!!!.....

في البداية ومن غير إرادة، قفز ابو مريم واقفا على قدميه
داخل ممر البيت محذرا أفراد العائلة من التحرك، كان لازال
خائرا في سكرة وسنه، خارجا عن وعيه، ألقه أزيز
الرصاص العشوائي المتطاير، صار يدور حول محور
أصوات الإطلاقات، محذرا العائلة من التنطط أمام سعة
النوافذ، خوفا من أن تخترق إطلاقا ما نافذة البيت، لذا طلب
من أفراد العائلة النوم بمحاذاة الجدران؛ ألا تصفق إطلاقا
طائشة المجال ومن ثم تأتي بالمحذور.

فزع أصاب العائلة المسكينة، افشى الذعر في أوصال الجميع،
خارت قوى عبير التي جزعت كثيرا في أعماقها، الإحساس
خدش صرة الذهن، بات ينزف صمما في سكونه، حيث أحمد

كان قد غادر المنزل، فيما بقيت أمها وحيدة الدار برفقة أختها الصغيرة هديل وأخوها الأصغر محمد... ترى كيف ستكون حالة أمها بعد أن هزها صوت الانفجار؟ قد يختل وضعها وتزهق روحها. صارت تدعوا الباري أن يحفظها ويرسي عليها سكينه واطمئنان قائلة:...

- ربي احفظ لي أمي وأبي وأخوتي، ربي أنتقم من المحتل الغازي، ربي أجعل هذا البلد آمناً، لا إله إلا أنت الحي القيوم، إليك نلجأ وبك نستجير.

تمكن أبو مريم من الصعود فوق سطح البيت ليستطلع الحدث ويتمعن. وإذ به يشاهد نارا تزامح ظلمة الدجى في الأفق البعيد وكأنها تأخذ عصفها من العتمة المحيطة بها فتبدو كوهج أكبر من حقيقتها، نار مضرمة، وهج ساطع مشظ، كأنها أوقدتها الظلمة في العيون المبلقة بالغل الدائر ودخانها، فبانت شعثة الحدث تزامح أضواء النجوم في الحلق وهي تهاجم محيطها المظلم بشراسة.. كان قد توقع النار على حدود الشارع العام المؤدي إلى بغداد، ربما لغم ما انفجر على دورية أمريكية، أو غارة قامت بها المقاومة ضد عجلاتهم. أو هي ذاتها استهدفت عجلة عابرة في الطريق، لجبنهم فأنهم يحضرون سير العجلات ليلاً، ولا يبالون للحالات الطارئة كولادة عسيرة أو مرض.... الخ من أحداث مثل الحريق أو أزمة قلبية ما؛ حتى يحين خيط الصبح. فأن تعرضوا لأزمة ما فأنهم يزيلوا آثار جبنهم ووسخهم وخسائرهم بالكامل من الطرقات التي عبثوا بها، وكان شيئاً لم يكن.

عاد لفرشة منامه بهدوء، موضح لأفراد عائلته بأن الخطر خارج حدود المنطقة، لكن لصدى الليل والسكون العائم في الاجواء دور في تضخيم الصوت، ذلك ما ولد ضغطا في الأفق عبر الأثير الممتد فجعلنا نتوقع الحدث داخل القرية....

بعد قليل صار الجدل على أشده بين المقاومة ونقطة التفتيش. بات يسمع صليل رشقات عشوائية باتجاهات مختلفة، وتهجس قسما منها موجه باتجاه القصبة، صادرة عن نقطة التفتيش، وأخرى تقابلها من اتجاهات مختلفة بعيدة، تتبادل الرشقات معها، عمت الفوضى لتشمل عدة مناطق خارج محيط دائرتهم.

هناك شيء ما يحترق، حيث طبيعة المنطقة الزراعية وتناثر الأشجار في المحيط تمنع التكهّن بشكل دقيق تحت سطوة هجوع ليل دامس، كما تلك الأحرار تساعد المهاجمين على الغش والاختفاء بين طيات الأحواض وكثافة الشجر، لذا صعب عليهم أن يحددوا اتجاه الضربة التي تختارهم، ذلك ما دعا جنود المارينز أن تكون رشقاتهم عشوائي حول محيطهم.

عاد الهدوء لما كان عليه بعد فترة وجيزة، لذا عاد كل منهم لفرشته ليخلد إلى نوم مطمئن البال. أضحت صورة الحالة تتكرر على أهل القرية وأهل اليوسفية والمحمودية بشكل عام، فالمنطقة أضحت وكرا للمقاومين.



الفصل الثالث

2006/03/12

الأحد

في فجر يوم 12\3 فزت عبير من رقادها مبكرة، مفزوعة، على أثر وقع حلم عابر أو رؤيا أو كابوس داهم فكرها المضطرب، ثم عادت لترقد قلقة بين صحوة شائكة وغفوة كديرة، في إغفاءة متقطعة حتى الصباح، جاثية في فرشتها دون أن تغشي عينيها إغفاءة تجليها هدوئها وسكونها، وكأنها ارتدت في نومها جلباب اليقظة أجبرتها على البقاء قلقة، ورسة، مرمية في فرشتها كلوحة سوريلية، تخزق فكرها حيرة صماء من لغز ذلك الحلم وتفسيره..

كانت قد تداولت أحداث الحلم في خاطرها على قدر إلمامها البسيط، ولكن دون أن تعثر على قلم تفسير لأحداث الحلم يعبر لها عما يجيش في خلدتها ويطمئن قلبها. لم تجد في لوحة الذاكرة خطوط عرضية ولا طولية تتقاطع فيما بينها لتشكل الصورة الذهنية التي اخترقت هواجسها كصاروخ عابر. لم تستطع أن تجمع الأجزاء بعد أن افترقت أجزاء من الفكرة عندما فزت من النوم وهي مرتعبة من وقع الحلم. لم تلتمس فكرة واضحة توصلها لمغزاها نتيجة القلق الذي سيطر على ذاتها. لم تجد في ذاتها قاعدة بيانات ترتبط مع فكرة الحلم. لم تجد بين أحداث الحلم وبين واقعها المربك نقاط تواصل تسهل عليها التفسير. ظرفٍ قاسٍ أحاط بها، عَقَص قدرتها على تجاوز عبثية الحلم، ذلك ما بذر في نفسها بذور القلق والارتباك وهي مكبلة بالوسن.

لصغر سنها وإذكائها ظل الشك يُشهز سيفه على عنقها، يرسم خطوط ذلك القلق في وجهها وفي خواطرها، مما زادها حرجا ورعبا في أعماقها. بقيت أحداث الحلم تدور في فلك ذهنها كحقيقة واقعة، دون أن تدرك ماهية الحلم، كأنها كانت قد تخطت حواجزه يوما ما في صغرها، حيث بقيت النفس تعيش حرجا بين حقيقة ما كانت قد طرقتها يوما ما، وخيال عائم يكذب أدعاء فكرتها، بين وهم راغ في ظنها، وشك يدور في أوجه الأنا الخائفة، تلك العاجزة، المستسلمة لصدى الظرف في أعماقها.

خلال جلسة الفطور مع صديقتها مريم صارت تتناول أحداث الحلم وتقرأ تفاصيله في وجه صديقتها، في محاولة منها للتفيس عن النفس، وإيجاد لمحة تفسير في جعبة مريم. عبرت عبير عن الحلم بالتفاصيل المدهشة قائلة:...

- أسمعي يا مريم أنا اللية لم أنم، بمجرد أن سرقنتني الغفوة من بين إرهاصات فكري؛ ساورني القلق نتيجة أثر حلم غريب مر بي، حلم كأني قد رأيته فيما سبق أو عشته كحقيقة خلال مجريات عمري، ولكن لا أتذكر أين؟ ومتى؟ كأني مررت بتفاصيل الحدث الذي تكرر في تلك المواقع.

في حلمي كنت أقرأ الحدث وتفاصيل المكان قبل أن توطئ قدمي المكان، اتوقع ما سيحصل وما سأرى قبل أن أتقدم للمكان وأدخل فيه، أشعر بأني قد مررت بذلك المكان قبل أن التمس تفاصيله، دون أن أتأكد من

حقيقة ذلك في ذاكرتي، حيث في الحلم كنت أود أن أمر في تفاصيل المكان وشكله لاسترجع ذكريات قديمة عشتها ومررت بها فعلا كحقيقة يوم ما.. لا أتذكر أن كنت فعلا عشت تلك الأحداث كحقيقة أم لا، ومتى كان ذلك؟ وأين؟... لا أتذكر شيئا من ذلك في واقع حياتي أبداً، وكأنني أتصفح كتاباً قرأته مسبقاً..

وأنا في الحلم كنت أشعر بأني للمرة الثانية أو الثالثة أزور ذلك المكان بصحبة أخي أحمد خلال مراحل عمري. ذلك الهاجس الهلامي الذي أراه يتقلب أمامي ويتحرك كحقيقة في زمن ماه، لم أجد له مرسى على شواطئ عمري قط، لذلك حفظت كامل تفاصيل الحلم من الألف إلى الياء وكأنني أعيد تجربة زيارة المكان للمرة الثانية أو الثالثة..

- ماذا حلمت؟ شوقتي، دعيني أسمع....
- بت اسأل نفسي... هل فعلا كنت قد مررت بإحداثيات المكان يوم ما مثل ما مررت به في الحلم؟ هل يمكن أنني قد عشت وقائع الحلم كحقيقة خلال عمري المنصرم وأعادت ذاكرتي لي المشهد؟ هل يعقل أنني عشت أحداثاً في صغري ونسيتها في كبري؟ أو هل ستمر بي تلك الأحداث في المستقبل؟..... لكني لا أتذكر أن كنت قد مررت بذلك الموقع الأثري كحقيقة، ولم أتذكر أين يقع ذلك المسبح، وفي أي مدينة؟! متى كان ذلك وأين يكمن ذلك الموقع الأثري؟ لا أدري... لا أدري ذاكرتي لا تسعفني، لا أدري أن كنت زرتة يوماً

ما أم ازره ؟ لا أدري... تلك حالة لا أستطيع تحديدها
أو تفسيرها.

الصور تدور في مخيلتي دون أن أجد للغزها حل في
جدار حقيقتي أو في ذاكرتي، وأنني أخاف أن يكون هذا
الحلم فعلا له وجود حقيقي في واقع حياتي الماضية
دون أن أعلم، أو دون أن أستطع إدراك زمنه.

- لقد أفلقتني ما بك هيا تكلمي، دعيني أسمع الحلم ربما
أستطيع أن أساعدك في تذكره.

- ما يحيرني هو أنني أهجس بذاتي أنه وقع حقيقي في ما
مضى، أهجس بأني مررت به فيما سبق، واليوم عاد
وتكرر سيناوي الحدث في ذاكرتي، ليذكرني بما مضى
كحلم عابر.

صارت تشد بشعرها محاولة تذكر الزمن الحقيقي لحقيقة
الحدث ومكانه وموقعه.... أين؟ ومتى؟ ذلك ما لا يركز عليه
ذهنها. عادت تكلم مريم.

- لم يطفح في خيالي هذا التناغم بين أن يكون الحلم
حقيقة والحقيقة حلم؟ لا أستطيع تحديد سر الربط بين
الحلم والخيال، تحديد بيان مسرى الحقيقة أبدا، أهجس
بأنني أمسك بخيط واه، كدخان يشتط من نافذة ذاكرتي
ما أن أتبعه وأقبض عليه، حتى يتماها في أفق الخيال
بعيدا عن واقعي، خيط واه يتماها بين أنامل يدي.
تصوري يا مريم أنني أتبع الحلم فيهرب من قبضة يدي
نحو الواقع، والذي أراه هو الآخر كصورة في بركة

- ههههههههههههه، ساجعلك تركضين خلفي لأسمع منك كلمة حبييتي مرة أخرى....
- حبييتي. حبييتي، روعي، صديقتي.. هارضيّت.... حبييتي... شبعّت
- طيب يا حلوه أدخلك معي الحلم سأفتح لك الابواب كلها. آه أنه مكان غريب، جميل، شاعري، أشعر بأنّي قد زرتّه كحقيقة من زمن بعيد جدا... كنت برفقة أخي أحمد، كنا نسير في مدينة حديثة مبنية على مرتفع من التلّول والهضاب ترتع بالمروج والخضرة، نعم هي مدينة صغيرة أشبه بقرية، ولكنها مرتبة، عصرية، نظيفة، كنا نسير في شارع ضيق تحيط به الأشجار من الجانبين، البيوتات موزعة بين الأحراش والوديان عن اليمين والشمال وفوق القمم في تجمعات مرتبة، متناسقة.
- طيب وبعد ذلك أين وصلت؟
- كان أماننا نهر صغير مبني عليه قنطرة تربط جانبي المدينة من خلال ذلك الشارع الذي كنا نسير فيه، قبل أن نعبر القنطرة تذكرت في نهاية القنطرة يوجد قبو تراثي، وهو عبارة عن مسبح سبق أن سبحت فيه، حينها قلت لأحمد دعنا نزور القبو.. عبرنا القنطرة ومن ثم انحدرنا نحو القبو القديم والكبير جدا من جهة النهر، لندخل من الباب الخلفي الذي يشرف على النهر، لأنّ البوابة الرئيسية تحتاج لدورة حول القبو الكبير.

القبو كأنه مبني قبل ألف سنة، وهو مسقف بالآجر الأحمر كسقوف مباني أوربا، هكذا خيل إليّ حين رأيته، وهذا القبو مبني من آجر القرميد الأحمر العريض الذي كان يستخدم في العصور الوسطى وزمن الدولة العباسية...

- وأنت كنت عائشة أيام هارون الرشيد؟
- يخيل إليّ ذلك من بنايات بغداد القديمة مثل المدرسة المستنصرية وقصر العباسي والمساجد القديمة.. أفتحي مخك يا غبية. ههههههه...
- أنا غبية أم أنت الشاردة الذهن؟
- اسمعي، تهجسين بالآجر أثري لقدم البناء، تشعرين بأنه مغشي بلون الغبرة الغافية على صرحه، بحيث أخفى وهج الصرح عما كنت قد رأيته فيما سبق حسب أحداث الحلم، مغشي تحت وشاح القدم والأتربة المترسبة عليه، أضحت جدرانه كقطعة قماش مهترية باهتة، نزعت عنها بريقها ولونها وألقها.. هكذا رأيت القبو يعاني من قسوة الزمن والخبرة والصدع والإهمال، أنه أشبه بحمامات بغداد القديمة.
- وما أدراك بحمامات بغداد القديمة، هل دخلت بها؟
- لا لا لا هههههه هكذا قرأت عنها وشطح فكري نحو التاريخ مما درسناه، على كل في الحلم خُيل لي بأنني أعرف المكان تماما مثلما ذكرت، أعرف القبو وتفاصيل أجزائه قبل أن أدخل إليه، كان يحتوي على مسبح وحمام ساونا للاستجمام.. حينها طالبت من أحمد

أن ندخل القبو لأنني شعرت بنفسني تواقة لزيارته مرة أخرى، المكان ليس بجديد على ذاكرتي، أعرفه حق المعرفة، أعرف زواياه وما يحتويه قبل أن ندخل فيه، لذا أضناني الشوق لزيارته والاستجمام به لاسترجع ذاكرتي به.

- بعد ذلك ماذا حصل؟

- انحدرنا من الشارع باتجاه القبو، ثم دخلنا من الكوة الصغيرة في مؤخرته لقربها إلينا، الكوة التي تمتد منها الأنابيب إلى النهر لسحب المياه منه. حيث الباب الرئيسي يكون في الجهة الثانية البعيدة علينا.. ثم سرنا إلى جانب الأنابيب لداخل القبو، مشينا بممر ضيق يحيط بمسبح مستطيل من جهاته الأربعة، أدركنا غرفة جانبية مخصصة للاستحمام والساونا، في الزاوية المقابلة للكوة التي دخلنا منها، فيما يكمن الباب الرئيسي إلى يسار الساونا بمسافة طول قطر المسبح الذي يتجاوز 35 مترا تقريبا.

لم تكن نحن الوحيدان داخل القبو، كانوا مجموعة من الرجالات تسبح في المسبح، وآخرون جالسون على محيطه فوق دكات حجرية متراصة في أطراف المسبح. فيما كانت البوابة كبيرة، ذات مصراعين مصنوعة من الخشب الصاج الصنوبري في نهاية الخط القطري للمسبح الذي يربط بين الكوة والبوابة.

للخروج من القبو؛ هناك مدرج عريض مبني من الحجر الأسود على شكل مربعات صغيرة، يسع

عرضه عرض البوابة، ينحدر من البوابة إلى المسبح مباشرة بمسافة عشرين درجة. المسبح يأخذ مساحة القبو من الداخل بمساحة ملعب كرة السلة. بمحاذاة المسبح الأيسر ممر بعرض متر ونصف تقريبا معبد بذات الأحجار المربعة الفحمية والتي مساحة كل قطعة منها 10 سم².

على الجانب الأيسر المقابل للكوّة تقع غرفة الساونا، والتي تحتوي على بوابة صغيرة بعرض مترين ذات قاعدة مستطيلة وسقف مقوس أشبه بالقبة، كان يجلس أمام بوابة الساونا رجل أشيب بلباس عربي، بمثابة حارس لمنع العبث في ذلك اليوم المخصص للنساء...

حين دخلت حمام الساونا وجدت مجموعة نسوة يستحممن وأخرى يستلذذن بحرارة مياه الساونا، فيما بقي أحمد جالسا على مدرج السلم في انتظاري بعد أن استأذنته في دخول الحمام.

كان الحمام مقسما لحوض استحمام وحوض ساونا وغرفة لتبديل الملابس. كما توجد بمحيط الحمام مقاعد حجرية الكبيرة لإراحة الزبائن. شجعني النسوة أن أجرب سخونة مياه الساونا التي كنت أرتعب من شدة حرارة مياهها، حيث أنني أول مرة أجربها. كنت أهجس بتعرق جسدي وأنا داخل المياه لشدة حرارة المياه، صار قلبي لا يحتمل نبضاته السريعة، أربكت أعصابي لشدة النشاط الذي دب في جسدي؛ حتى أنني كدت أفقد وعيي لشدة الحرارة. لم أصبر طويلا في تلك المياه،

خرجت وكأني خرجت من معركة أبحث عن مياه فاترة
للأخف من وطأة حرارة الجسد. شعرت بأن النسوة
داخل القبو وكأنهن لسن من نساء الأرض، انما حواري
الجنة أو ملائكة، كنت حينها قد افتقدت وعي للحظات،
صرن يدلكن جسدي ويعملن لي تنفس اصطناعيا حتى
عادت إليّ الروح بعد ان سكين مياه فاترة على جسدي،
أحدهن كانت قد وضعت فمها بفمي، حينها تحسست
أنفاسها وكأنها عبق رياحين أجمّة وورود بت
أستنشقها. بعدها شعرت براحة نفسية لم أشعر بها من
قبل، هجست بأنني ولدت من جديد، دب نشاط غير
طبيعي في جسدي، بعدها خرجت من الحمام؛ كان
أحمد لازال قابعا في مكانه ينتظرني على سلم القبو.

- اين ذهبتما بعد ذلك؟

- خرجنا من القبو، كان القبو شبه مظلم من الداخل
لضعف الإنارة فيه، كان لا يحتوي سوى على مصابيح
قليلة، ثلاثة أو أربعة من ذوات 60 واط يجهدن في
زحزحة الظلمة، معلقة على جدران الحمام الخارجية،
فيما كانت الإضاءة لابس بها داخل حمام الساونا.
جلست لبضع دقائق إلى جانب أحمد أتمعن بالمكان
وبقدم البناء وبالجدران، كأني كنت أعيد لذاكرتي
تفاصيل الأجزاء التي جذبتني إليها فيما سبق، فالمكان
أشبه بكهف أو مغارة.

ثم خرجنا من البوابة الرئيسية وكانت الشمس تعتلي
السماء بسطوعها، الخضرة تنعم بالأجواء، تضفي

بزهو لونها راحة على النفس مع رقة النسائم العليلة
وهي تداعب أوراق الشجر بحنية.

صرت التمس البوابة واتمعن بالأثر القديم المنقوش
عليها، تلك البوابة عزّاهَا الزمن، ترك عليها بصمة
القدم، بهت لونها وخف بريقها فبانّت منزوعة الألق،
كأنما النقوش التي كانت بارزة فيها فيما سبق محيت
من على سطحها، باتت لا تجذب الأنظار كما كانت
صورتها في مخيلتي، أو كما رأيتهَا أول مرة.

تعتلي البوابة مطرقة نحاسية ضخمة، كانت تعوض
عن الجرس الكهربائي في عصرنا الحالي. للبوابة قفل
ومزلاج خشبي من الداخل، وقفل سرقي ضخم حديدي
من الخارج.

عند خروجي هجست بذاتي كأني أتنزه في جنيّة،
أشبه بطير يمرح بالحرية. كانت المدينة أشبه بمدن
الشمال أو مدن سويسرا والسويد المنعمة بالخضرة.

- هل أنت رأيت سويسرا أو السويد من قبل؟
- لا، لا، لا، ههههه، مجرد تخيل فقط، حيث أني شاهدت
بعض تلك المدن من خلال شاشة التلفاز التي تعرض
أفلاما وثائقية.
- إذا لا تبالي أنها مجرد أضغاث أحلام، هذا فقط لأنك قد
غيرت مكان نومك ولا شيء فيه مميز ومثير.
- ربما، وربما لا، لأنني شعرت لها أذان صاغية تربط
ماضيي بمستقبلي لا أعرف ماذا وراء ذلك؟ وكيف
يكون مصيري ومصير أحمد غدا؟ ولم أتوقع بأن

المكان الذي رأيته قد زرتة في الحقيقة، واين يقع هذا المكان؟

بعد أن بينت تفاصيل الحلم لها، قالت مريم لعبير:.....

- لم القلق أنت فتاة ذكية وجميلة، لا ينقصك شيء، استهدي بالرحمن، انه مجرد حلم عابر، قد يفتح لك أبواب الخير، حيث الاستحمام نظافة، والنظافة من الأيمان، وطالما يكمن في قلبك هذا الأيمان فإنه مسلك لطريق الخير والسعادة، أطماني.
- أني أشعر بأني تنظفت من وسخ الدنيا، ذلك ما يجعلني أقلق من غدي، ثم النساء اللاتي التقيت بهن وكأنهن من حوارى الجنة. لذا أنا قلقة من غدي.....

تلك الليلة كانت ليلة ليلاء على فخرية أم عبير بعد أن أرتحل أحمد لزيارة عمه، ورخت عبير ذاتها في بيت الجيران، فيما زاغ زوجها لواجبه الليلي في حراسة دائرة الزراعة. لذا لم يغف لها جفن، باتت تسبح في بحر من الشجن، تأخذها تجاذبات الأمواج بين يأس مقلق ومخافة محشورة في عنق الزمن. باتت تنهدى في وسط تلك الأمواج كـ بالونة مضغوطة بالرعب والقلق، ترتعب من مواجهة أية شوكة تقذفها الريح في مسربها... لا تريد أن يسيطر عليها ذلك القلق، لكنها في قرارة نفسها باتت صريعة الهواجس وهي جاثية قرب أبنيتها وأبنها

الصغيرين، في وسط سكون مربع يحيط بالأجواء، وخاصة زوجها كان قد تعود على المبيت خارج المنزل.

أما أحمد الذي انشغل بالأحداث والتفجيرات وآثارها الواضحة في أسواق الدورة؛ هو الآخر كان مصدوما بما رأت عينه، بقيت عيناه تتجولان بين تلك الأنقاض المأسوية التي أصابت شريحة الأبرياء والمساكين، بحيث رسمت له جدارية في المخ لن ينساها مهما مر الزمن. شغلته آثار الدماء الملتصقة بالحيطان، والعبث الذي أطاح بالقضبان المتناثرة في الأرجاء، هياكل سيارات محروقة، رغم بعدها عن موقع التفجير البائن أثره أمام المحلات التجارية. كانت الحرائق والدمار قد التهمت أجزاء كبيرة من الحي، والانفجار لشدته ترك حفرة بعمق مترين وبقطر خمسة أمتار في موقع الحدث، أنها اثر انفجار عجلة مفخخة.

أهتز في داخله، دخل في ذهول وسبات وصمت وحيرة وجمود، حيث يصعب على المرء بعمره الفتى تفسير الحالة وتحملها، وطرح أفكار ناجعة لمعالجتها، أضحى أشبه بجريح في داخل نفسه، عاجز، لا يستطيع أن ينفذ بذاته من عمق المأساة، مكبلا بالظرف والزمن والقسوة. هكذا لج من كوة الخوف والرعب لبیت عمه القريب من موقع الحدث، لكنه لم يستطع أن يلج من ذهنه المشغول بالحدث، أن يفلت من هاجس القلق الكامن في داخله.

رغم اطمئنانه على سلامة عمه وأولاده إلا أنه لم ينم تلك الليلة، صارت إرهابات القلق تتحكم بيومه وغده المجهول، الخوف ترك قشوره الصّدفية تبثر في وجهه ووجه الزمن، أغمقت أجفانه بلون الحيرة. في تلك الليلة بقي يتقلب في فراشه ساهداً، يراجع ما شاهده وما حاط فكره من كل صغيرة وكبيرة تمثلت له لم يكن منتبهاً عليها من قبل..

أما أبو أحمد الذي ظل ساهداً طوال الليل قلقاً على أسرته، شاخصاً في حراسته تلك الليلة مشدوه البال، قلق على أبنه أحمد وعلى عبير وأمها لصعوبة الظرف الحالّك. اضطرب فكره من احتمالية سوء العواقب غير المسرة التي شغلت باله، ظلت تشغله دون أن يستكين لحظة، نبع خوفه من همجية هؤلاء الذين لا تهزمهم براءة ولا عاطفة تحت وقع تأثير الخمرة والسكر الدائم. حيث أنهم قد حلوا في بقعة طاهرة تقرف تلك الممارسات البذيئة، الجانحة، الوخيمة، التي يمارسونها في بلدانهم البعيدة كل البعد عن معتقدات المسلمين وعاداتهم.

صارت الفكرة تشذب ظنونه المضطربة، تزيده بعداً في النظرة والاحتمال وفي التوقع. الخارطة أمامه محدودة الاتجاهات، لا تحتل التشعب. كان قد فكر كثيراً بتهريب أبنته من القرية لبيت عمها في الدورة!، لكن الحالة استعصت عليه، صعب علاج أمرها آنياً، أو ربما تأخر قليلاً، كانت الحالة أشبه بولادة قيصرية، تحتاج لإجراءات سريعة ومضمونة لحرق

هذا الملف الشائك الذي ينتابه، لذا وضع خطة تهريبها في
توالي الأيام عسى أن تستقر الأوضاع من وجهة نظر قاسم.



2 - 2006/03/12

في ذلك اليوم المشؤوم كانت عبير قد أبكرت بالعودة للبيت من دار صديقتها مريم، بعد أن أحتمت ليلتها الأنفة في دارهم، خوفاً وتجنباً من نزوات جنود المارينز التي لا تحمد وقائعها.. هؤلاء الذين تقصدها بنواياهم الخبيثة لإشباع غرائزهم الدفينة، الذين افتتنوا بفتنتها دون بنات القرية، رشقوها بنباتاتهم البغيضة دون بنات القرية. زرعوا الوجل والرعب بين عينيها وصفوف العائلة دون أن تكون لهم مثلبة تدينهم .

طوال تلك الفترة المجزية، كانت الفتاة وجلة، هلعة، خائفة جداً من سهام نظراتهم الدونية، مرعوبة في داخل نفسها من أن يتجاوزوا حدود الشك والشكوى، هلعة من بروز ندب نواياهم الخبيثة في طرقها، مهمومة في داخل نفسها البريئة بسبب بركان الشك الخامل والكامن في جوفها من أن يتفجر في جحرها بلحظة غفلة...

تركت المدرسة مغسوبة، خوفاً على صفة العفة والبراءة من أن تتلوث بالقدارة التي يحملونها، في ظل غياب عام لدور السلطة المنتكسة والمتذيلة بأوامر المحتل دون إرادة منها تماماً .

حرصاً على أبنته، وتجنباً لتلك التوقعات المريضة والغير مجزية، وتجنباً للنوايا الخبيثة المقروءة في عيون هؤلاء الجناة؛ كان قاسم الجنابي قد أرشد أبنته عبير بالتخفي والمبيت

في بيت صديقتها مريم، تجنباً لأية معضلة أو غفلة تسرقهم من بين نياتهم وبراءتهم، تجزل وجودهم وترمي بهم خلف حدود الشمس... مداهمة قد لا يتوقعونها يقوم بها هؤلاء الشواذ، ترمي بهم في قوس الندم. الأنذال الذين تجرأوا على القرية مرارا دون رادع يردعهم تحت وقع السكر وشطط الغرائز وهم يتجولون في رحابها ببث الرعب والتجاوز على أبنائها كيفما يشاءون ويرغبون، لا تأمن أفعالهم، ناكرين وجود وإنسانية الآخرين في الحياة..

رغم سكون الأجواء والشمس الباسقة، رغم النسيم العليل والورود المائجة المسترسلة ألقها، لقد حل ذلك اليوم الربيعي البهيج من شهر آذار بعكس صفاته، طوى القرية وعبير وحلمها وعموم العراق بجناحين سوداوين، طوى الفتاة وعائلتها بلحظة غفلة.

يوم أعتم، أحسم، تمادى بغيبه جراء تدحرج قُلة الامان من قمة السكون والألق لوهدة الصخب والوجل، جاء بالهوان والغدر والمصيبة، نقل عائلة الجنابي من وجل الفكرة لواقع تطبيقها.. هؤلاء البغاة الذين وجدوا في عائلة الجنابي مسرحة لتنفيذ مخططهم مأربهم كغواية تسلوا بها. وبما كان يدور في خلدكم من هوس وأهواء وبغض وزنا عُدّ لها مسبقا.

هؤلاء البغاة ادركوا النية المرادة التي زنقتهم طوال فترة صيامهم عن ممارسة الجنس، والتي كانوا يبحثون عنها بين أجساد نساء القرية، ليجدوا لؤلؤتهم غافية بين صدف جسد

عبير. ليشفوا غليلهم بها، كأنما حين يدركوا جسد تلك العفيفة،
يدركوا مآربهم ونصرهم على الجسد الطاهر.

مع ارتفاع شمس يوم 12\03\2006 جاءوا بالكارثة، كان
يوما قمطيرا، أسحما، وضيعا بوقعه على أهل تلك القرية
الضامرة بين قصبات مدينة المحمودية واليوسفية والتي تقع
جنوب بغداد بمسافة 30 كم. بفعلهم القبيح وضعوا النقط على
الحروف للمهوسين بالاحتلال وللمناوئين للحكم السابق،
عندها توضحت معاني الجمل التي ضلت مبهمة على أعين
الشعب.

في عودتها من بيت صديقتها مريم؛ باشرت بمساعدة أمها في
مسح الأرض والجدران من الغبرة التي تعرضت لها المنطقة
نتيجة تقالبات الطقس، بعد أن قامت بتنظيف الأرضية
والشبابيك من الغبرة والأتربة، أثابت مساعدة والدتها بتهيئة
وجبة الغداء بفرش السفرة وجلب صحن الأكل. شغلت ذاتها
في أعمال البيت لتتسى مصابها بترك مدرستها التي تخلفت
عنها منذ أسبوعين من ذاك التاريخ دون إرادة، محرجة من
التوقعات الغير مسرة، تجنباً لوقع غدر قد تتعرض له دون
طائل بعد أن توجست خيفة من بيان نوايا جند الاحتلال.

كان وجس الوالدين في محله، ادركا الحدث بإحساسهم قبل
وقوعه، ودا تجنيبها الغلة، خوفا من وقوع المحذور والخطر،
شرف البنت المسلمة أغلا ما تملك، التاج الذي تترصع به ليلة
زفافها، علامة الدين والاخلاق والعفة والنظافة والحسب

والنسب، الثوب الذي ترتديه أمام زوجها في ليلة دخلتها وهي مرفوعة الرأس، يجلها ويعزها ويحفظ كرامتها وكرامة العائلة في المجتمع. تلك هي تقاليدنا وقيمنا المأخوذة من عمق الحضارة ونفس الدين.

طالما تحرشوا بها بالكلام فأكيد النوايا تجرهم إلى الفعل؛ ولا بد من حرص يجنبها شرر تلك الحرشة وما تخبئ خلفها من اهواء، فلن تأمن على نفسها من عبث هؤلاء دون رادع يردعهم إلا بالموت، في ظل فوضى عارمة اصطبغت بها الحياة والمشاعر والنفوس، في ظل غياب تام لإدارة الدولة وفقدان السيطرة على الشارع وضعف تأثير عدالة السلطة.

كانت والدتها فخرية قد أعدت وجبة الغداء باكرا، حينها كانت قد طبخت الفاصولياء اليابسة مع الأرز، بينما كانت عبير جذلة مرحة، كالفراشة المبهورة بأنوثتها وثوبها القطني الأصفر المحزم بشريط أزرق، والمحددة تلابيبه وحواشيه بشريط من لون الحزام الفضّي من قماش الستن، تدور في أرجاء البيت، تتحرك بخفة تحت إرشادات أمها... كنست الصالة، نظفت الممر، مسحت زجاج الشبايبك من الغبرة الماكثة عليها وعلى جدران الأثاث، صارت العواصف لا تهدأ، كأنها جاءت مع سرف آلات الحربية، لتنت غبار الشؤم هنا وهناك.

فيما كان قد عاد أبوها باكرا من عمله كحارس لدائرة الزراعة في قضاء المحمودية، كاتما سر قلقه في صدره تجاه أبنه الفتى أحمد، الذي غادر ليتطمأن على عمه في مدينة الدورة. لا يود

أن يفتح صنبور عناء زوجته فخريته ضده، لضعف حكمته. كان قد قبع في زاوية من الصالة، سارحا بفكره، مشغولا بعقد الحياة التي باتت تشتد عليه، وتزداد أوزارها صعوبة يوم بعد يوم، خوفا من المفاجئآت الغير سارة أن تفقئ عين ظنونه، صار يستشعر بالخطر يقترب من مخيلته، في الوقت الذي به يكون منشغلا بأمن أبنته من تحرشات جنود المارينز بها.

قلقه نابع من واقعه المهزوز، الهميم، القيد يحيط به من كل جانب، تفرقت الجموع ولم تعد تستطيع الدفاع عن نفسها بوجه المحتل، كأنه لم تنفع وصايا العم جبار مع أبناء القرية في اجتماع السقيفة. القلق سيطر على أفكاره، تفاعل مع وعيه دون إرادة، أضحت الحالة في أعماقه أشبه بحريق يحيطه دون أن يستطيع يجلي ذاته من الخطر. مكبل، لا يدري متى سينفض ذلك الوهج من حضنه، وهو يشم دخان العطب يزداد سماجة في محيطه، حيث تداخلت خيوط الشك باليقين في بذر شؤونه في مجرى الوطن.

لم يصبر على الصبر، فأطرق لهاتفه العنان ليتصل بأخيه وليتطمأن على ساعة قدوم أحمد من بيت عمه. لذا صار يطرق على أرقام هاتف أخيه هادي:.....

- الو.....
- ألو يا هادي صباح الخير...
- صباح النور والبركة... ماذا ورائك يا قاسم.
- القلق من الطريق يشغل بالي، دع أحمد يعود..

- لن أتركه يذهب لحاله، ثم تحركات المجرمين لا تهدأ إلا بعد منتصف النهار، لذا سأبقيه حتى يتغدى معي، ثم أوصله بنفسه للمراب، ولن أتركه حتى يرتقي عجلة أمانة.

- شكرا لك، كي أحسب حساب تأخره إذا ما تأخر، ما أن يركب العجلة أخبرني برسالة صوتية أو برسالة ..sms

- وهو كذلك.... مع السلامة...

بمهاينة أخيه علم ساعة وصول أحمد كي لا يقلق بشأن عودته، حيث مخاطر الطريق لا تحمد وقائعها...

تلك الكوارث باتت تزيد من قلقه، ولكونه فقيرا، ضعيفا، لا حلول ناجعة بين يديه تكفل بمواجهة سخط الظرف وقدره مقابل قدرة العدو؛ بقي ذلك الوجوم مميزا في وجهه وأوجه الكثيرين من أبناء الشعب الذين لا حوله ولا قوة لهم إلا بالله العلي العظيم، كبد الهم على نفسه، عبث بفكره وأنفاسه دون حلول تغيثه على جلده.

كما أنه يدرك بأن المواصلات بين المدن شحيحة جدا، نتيجة أزمة البترول وإشاعة فوضى التفجيرات المتزايدة في الطرق والقتل والتكيد المتعمد الذي بات يطول أبرياء الناس تحت بند تلك الفوضى العائمة من الطائفية بين السنة والشيعة.

حينها كانت المقاومة قد اشتد عودها ضد تواجد المحتل، فيما الاغتيالات المتعمدة على الهوية والاسم، توسعت رقعتها

ومداها ورموز ضحاياها، بعد أن طفحت نتن الطائفية تفيح
قيحها في الميادين العامة وعلى مستوى العراق.

مع أنه هاتف أخيه بشأن ولده أحمد؛ إلا أنه ظل قلقا عليه من
باب زجه بمجازفة لا تحمد وقعها، إذا ما توافقت مع ظن الشر
حيث لا تأمن منغصات الطريق خلال العودة.

بين الثانية عشرة والثانية عشرة ونصف ظهرا كانت عبير قد
فرشت سفرة الغداء، فيما كانت الأم فخرية في المطبخ منشغلة
في صب محتوى القدور في الصحون، رائحة الطعام تزكم
الانوف، تعصر المعدّ الجائعة، فيما كان الأب يداعب أبنته
الصغير هديل، بينما محمد لازال لم يعد من مدرسته.....

في تلك اللحظة الحرجة من الزمن الكئيب، اهتزت أركان
البيت بجلجلة صاخبة قوية، وذلك بعد أن ركل ستيفن الباب
الخارجي بقوة والذي كان مفلجا بعشرة سنتمترات عن سرقيه،
لم يكن مسكوكا بشكل محكم، لذا أنفلج على مصراعيه على
حين غفلة. مما أوقع خيفة في قلوب أهل الدار...

نتيجة الفجعة التي أحدثها ستيفن ورفاقه، هبوا كجمع إلى الباب
لمعرفة سر الجلجلة.. ما فعله ستيفن ورفاقه هو سحب المبادرة
من بين أيديهم، ليقوع الفرع في قلوب العائلة، بفعلته كان قد
جردهم من المبادرة، أمن ذاته من النية لو أعدوها مسبقا
لمواجهة المصير، إذا ما خطرت في بالهم تلك الفكرة...

استفحلت هواجس الفزع في النفوس الواجفة، وهم يستمعون
للغط وقح ودمدمة بساطيرهم تتمغنط في ممر البيت المؤدي
للصلة، صارخين بأفراد العائلة بلغة لا يفقهونها، باغين منهم
تجمعهم:.... أحضروا حالا

Come immediately

انتفض قاسم من مكانه مرتعبا دون أن يفقه شيء، فيما هبت
فخريّة من المطبخ لتستطلع جدلية الحالة وهي تحمل في يدها
مغرفة الرز، مبهوتة، الخوف مستشيط في محياها.. بينما
أخرست عبير في مكمناها، كاتمة أنفاسها في صدرها، خوفا من
المحذور الذي كانت ترتعب من وقعه.

الفجعة جردتها من قواها، أوقعت في أعضائها رجة، كأنها
أصيبت بمس كهربائي، جثت في مكانها وهي ترتعش خوفا
مما ترتعب منه، منزوية في ركن من الصالة بعد أن رأت
عددا من الملتمين بالزي العربي يدخلون البيت.

ما أن استباحوا حرمة الدار؛ حتى خلعوا زيهم العربي. ما أن
لمحتهم عبير حتى عرفتهم.. هجست بالخطر الذي كانت ترتاب
منه قد حل أوانه، أصابها نوبة وجل وحيرة دون أن تستطيع أن
تنقذ نفسها.

إذا باغتوا العائلة نهارا، عكس توقعاتها، لم تتحسب المفاجأة،
ها قد وقعوا في شرك ستيفن ورفاقه. توضحت الغايات بعد أن
خلعوا تنكرهم في الممر والصالة.. كانوا قد ارتدوا الدشاديش

والعقل ليغشوا بها الذين يلتقونهم صدفة في الطرق، أو الذين يتفقدون العائلة بعد اتمام الجريمة، ليعيدوا التهمة عن أنفسهم ويلصقونها بعناصر ميليشيا القاعدة.... ودوا أن يزيّدوا الغلة بين السنة والشيعية طائفيًا، ظنا منهم بأن أهل القرية ينتمون للمذهب الشيعي....

جاءوا من أجل عقاب عبير التي أهملت رغباتهم طوال تلك الفترة... أنها لحظة الحسم والفصل والنكاية، بينما عائلة الجنابي لم يعدوا أنفسهم للحظة الحسم، لحظة تجني وقصاص قراؤها في وجوههم البغيضة.

هم لم يدخلوا البيت بذلك العنف الشديد إلا وورائهم هدف كبير يودون تحقيقه، إلا وفي نياتهم ترك عصا البغض والعنف معلقة على جدران البيت، ليرعبوا العائلة والآخرين من أبناء القرية بها.

في ذلك اليوم الأشرف في 12\3\2006 أصطحب ستيفن غرين قائد المجموعة أربعة من الجنود المؤتمرين بأمره، وهم كل من (بول كورتيز، وجيسي سبيلمان وجيمس باركر وستيفن جرين وبريان هوارد) وهم جميعًا من أفراد الفرقة 101 المنقولة جواً التي كانت تتخذ من معسكر فورت كامبل مقرّاً لها، هؤلاء أعدوا العدة وأتمروا بأوامر قائدهم ستيفن ثم ذهبوا إلى دار قاسم حمزة الجنابي متكرّين بالزي العربي، اقتحموا عليه داره ليختموا جبينهم بنزق عبوديتهم للجنس، وليبصموا بإبادة جماعية لعائلة الجنابي، جريمة مع سبق

الإصرار والترصد ارتكبوها بحق هؤلاء الأبرياء، ستبقى تلك الواقعة تدين الاحتلال إلى الأبد.

لم يحتسبوا للنتائج المعكوسة على فعلتهم القبيحة قط، كان جُلّ تفكيرهم محصور بين أفضالهم، محدود في غوايتهم، حيث تجاوزوا حدود الجنس والأهواء بمكابدة النفوس العفيفة وسرقة مجوهرات البيت، فلا حكيم بينهم ولا عفيف يرشدهم ولا شريف يؤنبهم.

في تلك اللحظة عمشت العيون بدخان السخط الذي جاءوا به، تكهربت العائلة بالحيرة والمصيبة، فضت مخزونها من الصبر والهدوء والتأمل، فاضت في نفوسهم ووجوههم علامات الرعب والقلق، ترقرت محاجر العيون بالدمع دون إرادة، التمسوا المحظور الذي كانوا يرتابونه بأحاسيسهم.. شتت اذهانهم، ماجت الهوام فوق الرؤوس بقراءة الأحداث المتوقعة، لا يوجد فيهم من يفقه اللغة الانجليزية، لذا هم لم يفقهوا مما يدور من لغط في رواق الدار بين ألسنة الشلة المقتحمة للدار، لكنهم فقهوا النوايا التي حملتها أعين البغاة، وسحلتها إقدام الشر، قرأوا صور التعابير الملطخة بها وجوه الجناة، شعرت عبير بالخطر لاس حراشف قلبها، مثلما شعر بذلك الوالدان.

كان يومٌ أسودا، اسحما من أيام العصف والفوضى، ساعة مهينة من الزمن المعكوس لواقع حياة تلك العائلة، أرتجت تحت اقدامهم الأرض، افتقدوا القدرة على الثبات والوقوف أمام الحدث الجلل المتوقع بهم، زخت السماء حمم استياء الرب

على السلوك البشري المنحرف، والمتخلف، تمخضت عنها حالة من البؤس والذل، تفجرت كصرة عمياء تحت أقدام الغزاة، ارتفع الهم والحزن والرعب مع دخان الجنوح المشؤوم الذي جاءوا به.

هكذا دارت دورة العنف التي أصابت بوقعتها فكر وقلوب العراقيين والعرب والإنسانية قاطبة بأصداء تلك الواقعة الأليمة، بحيث صدأ القلوب، مَحَقَّت الحكمة من الرؤوس...

ساعة مخلّة تلك التي توقفت بها الدقائق والثواني لتذكر العراقيين بساعة الحدث، تلك التي وشمّت بها العيون بالدمع والمحاجر بالعويل والنياح. ساعة غل جرت على غير عاداتها، ماهت بمهانة فوق جرح العراق كالملح، لتزيده عمقا وألما وغلا.

لقد تركت تلك الواقعة ندبة سوداء واضحة في جبين العرف السائد، وغصة في العقول الأبية، وطعنة في ظهر القيم والأعراف والشرف والإنسانية.....

بمداهمتهم البيت؛ اقتاد ستيفن والدين وأبنتهم الصغيرة هديل ذات الست سنوات إلى غرفة جانبية لينخل أجسادهم بوابل من رصاص غدارته، في ذات الوقت شرع رفيقاه تجريد الورد البيضاء من ألقها وفتنتها وثيابها، بعد أن نضوا عن جسدها أحرامها، ليتناوبوا على اغتصابها في واقعة لا توصف سوى بمدى انحدارهم السادي والوحشي، في سلوك المجرمين وهم يغتصبون جسد طفلة بلا روح.....

تلك الآية الجميلة، أبنة الخمسة عشر ربيعا، أطفأوا بريق القها،
عقروا عفتها مع شروع ستيفن بإفلات إطلاقاته العمياء إلى
صدر والديها وأختها الصغيرة هديل.. حينها أغمى عليها مع
سماعها دوي تلك الرصاصات الغادرة، والتي كتمت أنفاس
الوالدين إلى الأبد، أخرست تماما، تحولت لجثة هامدة بين
أياديهم القذرة، واجمة، صماء، عمياء، راكدة تحت أقدام
المجرمين دون حراك نتيجة شدة الصدمة والجنون الذي دق
رأسها. أضحت بين أياديهم كدمية لا نفس يغيثها ولا حراك
يجليها، مجردة من المقاومة والطاقة والشعور واللباس تماما،
الصدمة سلبتها أحاسيسها وهواجسها وقواها وعقلها وحيويتها
وبهجتها وصفاءها بالكامل. بل أنها أضمحلت تماما في مكانها
كخرقة تتلاعب بها ريح هوجاء، غدت كمصباح معطوب،
شاطبها الألم والكدر.

في تلك اللحظة صار جسدها جزء من العبث الدائر في عقول
الماجنين، جزء من الفوضى المراقبة في أرجاء المنزل، في
وسط سكون مطلق أطبق على ثنيائها وأعصابها، فلم تنطق
بلسانها سوى بتلك الصرخة المدوية التي جردتها من واقعها
حين صرخت....

.....לעלעלעלעלע -

تزامنا مع إطلاق ستيفن رصاصاته الغادرة على والديها.

تلك الإطلاقات جردتها من طاقتها، لتستكين تحت وقع حالة الشيزوفرانيا التي أصيبت بها، لازمتها رعدة ألفت بجسدها،

كتمت على أنفاسها، تراخت نظرات عينيها الواجفة تحت وقع أجيم، أخرست، صمتت تعابيرها المخنوقة بالألم، لهجت بمشاعرها وبالخوف الكامن في داخلها بالقسوة والسطوة والسادية التي جاءوا بها، تلك التي جردتها من إرادتها وعفتها.

مع هدير الإطلاقات كانت قد هفتت تلك الهواجس والأحاسيس بوجه أستيفن ورفاقه دون أن تحرك ضمائرهم قيد شعرة - بصرختها كانت قد زعزعت أركان البيت، أتت بمثابة الزلزلة، فيما ارتدّ عليها صداها لتخرس بعدها بإغماءة إلى الأبد..

كانت صرخة صماء، انبثقت من أعماق النزف والألم، حوت في نبراتها ملامح الهوان والتوسل والذل والخنوع، إلى جانب البأس والعزة والكرامة التي يندى لها الجبين... كأنها تناجي أمواتا، بعيدين كل البعد عن همومها وآلامها.

ذلك اليوم كان فاصلا بين الحق والباطل، وضع حدا لقيمة العلاقة بين الشعب العراقي الكريم وجند المارينز المجرمين، بحيث وشاح الغدر غطى الحدث بسوادٍ كظيم، شمل أوجه الإنسانية جمعاء، ترك صور الأسف والتأفف تتقلب في الوجوه وتثار على الألسن، لتستثير النخوة والضمائر الحية في الوطن، وفي الصحف والمجلات وشاشات التلفزة المرئية، لتثير حفيظة الشرفاء في قول كلمة الحق، مقابل لهجة البغض والدعس التي تعرضت لها كرامة عبير وعائلتها المنكوبة .

في ذلك اليوم أطفئوا قنديل البراءة بعصف إهواء الماجنين من جند الاحتلال، هؤلاء الذين زرعوا جمرة الخبث العمياء في

نفوس هؤلاء البسطاء، وفي وجدان كل عراقي شريف، اختصروا سبل العداء دون عقد، بعد أن فجروا قنبلتهم الخبيثة في جوف البراءة، لتنفجر براكين الحنق والكراهية في فج كل شريف من الوطن .

بحيث ما أن أتموا جريمتهم؛ حتى تركوا جمرة الحنق تتقد في قلوب أهل القرية والعراق من أقصاه لأقصاه. بفعلهم الدنيء عروا صفاتهم على الملأ، مقارنة بالمثل والقيم الإنسانية العليا والطفولة التي تجاوزوها. سلوكهم جاء انعكاسا لحقيقتهم الخالية من القيم والمبادئ، فعلهم لا ينم على ذرة شرف ولا على سعة عفاف تجيلهم إلى الصفوة والانسانية

بفعلهم الخنيث والشنيع الذي يفتقد كلياً لمعنى الرجولة والشهامة، كانوا قد تركوا لوائح الحزن تقطر دماً وبؤساً على أروقة الأنفس الزكية، تلك التي راحت ضحية شهواتهم وغرائزهم الجنسية. بفعلهم المنكر أثبتوا للعالم بأنهم يمثلون ثقافة همجية، تدفعهم غايات مريضة، جبانة. أثبتوا للعالم بأنهم حفنة حفاة مجرمين ولصوص لا اخلاق تحدهم ولا رحمة في قلوبهم، في مجيئهم لم يأتوا لتوزيع الحلوى على الشعب المنكوب وبث الديمقراطية كما دعا كل بهم الكبير؛ أنما لجز الرقاب وقتل البراءة والطفولة وبث الفساد في المجتمع وسرقة الدولة. بان فعلهم الخسيس كنتنٍ آسنٍ دنسٍ، أفسد الرياحين الفواحة. لقد افسدوا غزل الفراشات للوردة المسترسلة بهجةً وألقاً.

الحقد الدفين والغريزة العمياء والسكر الدائر في رؤوسهم جراء الأفراس في شرب الخمرة؛ منعته من تلقي تلك الرسالة الشفافة، بل فسروا صرختها بشيء من النشوة والانتصار، بشكل مناف لتلك المعاناة التي زرعوها في جسدها البض. عبثهم كان أقوى من عنوان الحدث بكثير، بحيث تجاوزا به أفق التفكير والمنطق إلى الخلاء والاهمال الغير متناهي.. حينها أضحت بين أياديهم جثة، أشبه بالدمية تقاذفتها النوايا والغايات القذرة.

بيست أشداقها، ظلت تنبجس عنها حمم أنفاس حارة بحرقة النار المضرمة في جسدها وفؤادها، حتى ورسست شفاهها وتكورت كقطعة زعفران تنقطر منها الألم، وهي مرمية تحت أقدام الجناة دون حراك كوردة ذابلة.

رغم الأسى الذي ركبها، لم ترفأ بها الذناب، لم تحملهم تلك الدموع ولا ذلك الوجل القابع في وجهها الطفولي إلى المرحمة، ولا تلك البراءة المسكوبة في محياها على رئف الرأفة بها. هكذا جعلوها لعبة بين مسلمات الغواية والشناعة والغريزة التي تحلوا بها.

لقد حلوا بأقذع وأشنع ما في قاموس الإجرام من قسوة وعبث، تمثلت بها أنفسهم الأمارة بالسوء، لقد نفضوا غيرة الحقد والغل على بساط أنوثتها، ماجوا بنظرات عيونهم الزائغة في جريد مفاتن حسننها.. قطفوا جمانة الفتن من أغصانها. اجتمعوا على لحائها كالذباب؛ رغم ذبول فتنتها. عروها من حيويته وعفتها

وعفويتها وبهجتها، تناوبوا على اغتصابها وهي ترتعش بين أياديهم كالطير المذبوح... ما أن اغتصبت؛ حتى أفلت شمس الحسن خلف غمام الموت.

لم يراعوا سننها ولا طفولتها ولا نورها ولا رقتها ولا أهوائها ولا غايتها ولا براءتها، لم يراعوا لعبها وكتبها وحاجاتها وأحلامها المرتبة فوق رفوف حسننها، تلك الغاوية الفاتنة المرححة وهي تزهي كشمس الصبح بين أروقة عمرها الفتى، كخشف تغتسل بأنوار الصبا، تلك المنتشة بالألق، المتألئة في عيون الناس كسر اللعة المغروسة في بهاء الجوهرة.. النبيهة، الذكية، الحليمة، العفيفة، الرقيقة، الرائفة، الراقنة، الحالمة، الساحرة، الحائرة بعجلة أفكارها في خضم سنين عمرها الفتى. العاشقة، اللماحة، الشاخصة، المضاءة، ذات الشفاه الكرزية والعيون الناعسة، تلك المراهقة اللطيفة، الأنيقة المسماة عبير، لم يعد لها عبير بين أروقة البيت.

ساقطهم الأهواء لمجرى هذه الفاتنة ليقترضوا من فتنتها بلغة الغل والأنانية، كانوا بعيدين كل البعد عن مجال عملهم المكلفين به، الحالة فاقت التوقع والخيال، كأنها ولدت من حالة جدلية ميتافيزيقية، تصرفاتهم الشاذة بزغت للعلن بدكنة فانتازيا الجريمة، لتعلق بأعناقهم وفي سجل الزمن.

تلك الجريمة لم تولد نتيجة صدفة قط، إنما تمخضت عن حقد وكراهية وتخطيط وجفاء اتسموا بها وبقسوة القلوب، دعسوا على غصن الإنسانية بأحذيتهم القذرة دون رأفة.

كانت الرأفة غائبة تماماً عن مبدأ ما شرعوا به وأباحوه لأنفسهم، لم يفكروا بأن تلك الوردة النضاحة بالفتنة والشبق هي إنسانة قبل كل شيء، من حقها أن تعيش كالعصافير والبلابل المحرم قتلها في بلاد الغرب، كالقطط والكلاب التي اعتادوا على تربيتها في بيوتاتهم. لقد جنوا على الشعلة التي كانت تنير القرية بقنديل شبابها، الفتية، التي لم تبلغ سلم البلوغ والتحرر بعد. لم تزل أنوثتها في طور التكوين، في قيد الأنشاء، لازالت فسيلة ملتصقة بجذع أمها، تستقي الحياة من جذور والديها. تلك اللدنة الناعمة، الهائفة، الهائمة، تلك التي تنظر الحياة كبسمة طفل لا يفقه شيء.

كانت قد سحرتهم بجاذبيتها، فجنوا عليها بأقذع ما شططت به افكارهم القذرة، بأشنع واقبح ما تقيأت به أنفسهم، اقتصوا من تلك الفاتنة وأهلها بلحظة غفلة دون ذنب، اقتصوا منها كونها تخبطت رغباتهم الكامنة بين افخاذهم.

بقدر فرحة أهلها بها كانت فرحتها بذاتها، لما ميزها الله من فطنة وذكاء وشكل يرتع بالحسن ولسان يلغ بالطيب واللباقة.. لقد جنت على نفسها وأهلها بفتنتها، كما جنت على هؤلاء الشلة الفاسدة بخنجر اناقتها، حتى وصلت مبتغاها في سلم الشهرة بعد أن صار صيتها يقارع صيت شهيرات النساء عبر التاريخ. بذلك وصلت مبتغاها، دخلت جنتها الدنيوية والسرمدية معا. اضحت شهيدة الطفولة والتاريخ والزمن.

كانت عند حسن ظن أهلها وظن القرية باعتدادها بنفسها، مثلما كانت محل جدل وأحاديث وغزل جنود المحتل في أوقات فراغهم طوال فترة مكوثهم في ثكنتهم. عندها أضحت القصة المشوقة التي يتداولون تفاصيلها وتفاصيل ملامحها خلال جلسات السكر والعربدة، أو خلال تجوالهم واختلالهم بأنفسهم فيما بينهم.... كانت القصيدة التي ينشدونها، التي يستشعرون برقة تعابيرها ومعانيها، القصيدة الوحيدة التي ابهجتهم قوافيها، هجسوا بأحرفها المتألثة كالجمر في مواضع الفتن وبقسماتها الملظة، كانت كالموقد الذي يستدفئون به، تلك المتوهجة بالإثارة والسطوع، وبشعرها المستل من سجي الليل والمسترسل كخيوط النور، المنسل على الكتفين كشلال ألُق وبهجة.

كانت تسترق الأنظار حين تسافح نسائم الصباح أسيل خديها، فتبدوا كشعلة وضاءة، لذلك ودوا بعثرة أحرف حسننها في طيات عبتهم، لأنهم لم يفقهوا أبيات قصيدتها بسنن واقعهم المر الذي جاءوا منه. لم يعتبروا لاختلاف العادات والتقاليد أية اعتبارات، لم يراعوا حالة المجتمع المتماسك، المُسيّر بحكمة قواعد الشرائع السماوية، والمختلفة كلياً عن قواعد وشرائع مجتمعهم المنحل، القابع تحت حكمة الأهواء والغرائز.

بعد أن اغتصبت من قبل رفاق ستيفن، عاد يغتصبها بنفسه بعد أن أنهى من قتل والديها وأختها، اغتصابها مرة ومرة ثم هشم رأسها ببلوكة إسمنتية، ثم أحرقوا المنزل وفتحوا قنينة الغاز قبل مغادرتهم الدار..

بعد أن أعتلى الدخان سطح المنزل هبّ لفيف من أهل القرية إلى دار قاسم عازمين على تقديم المساعدة، جاءوا مغِيثين، مسعفين، عاضدين. حركتهم الغريزة والغيرة لأنجاد العائلة..

حين أدركوا الدار؛ وجدوا جنود المارينز بالقرب منهم، فاستنجدوا بهم، لكنهم لم يتحركوا، كالوا التهمة لعصابة القاعدة المحسوبة على الطائفة السنية، زاعمين بأنها غدرت بالعائلة المنكوبة، مشيرين إلى تركات اللباس العربي المرمي خارج المنزل، صرحوا بذلك للصحافة محاولين إصاق التهمة بهم لتغطية الأمر بشيء من السفه والسذاجة والبذاءة والوقاحة الواضحة..

لكن أهل القرية أدركوا الحقيقة في الحال، اكتشفوا الأمر المبيت، فمعظم القاطنين في تلك القرية هم من الطائفة السنية، والمثل يقول: "أهل مكة أدرى بشعابها"، فهم على اطلاع بتفاصيل قوى المقاومة أكثر منهم. إذا ما علمنا بأن بعض أبناء القرية ينتمون للمقاومة، أمثال صالح وثامر وفراس، يدركون ما لهم وما عليهم، يعرفون الفرق المتواجدة حولهم، ثم كان التنسيق موجودا بين فصائل المقاومة على مستوى العراق..



3

باغتصاب عبير؛ اغتصبوا الطفولة، وبقتلها؛ قتلوا البراءة، أضحت قصتها حديث الناس والشارع والإعلام، لقد قتلت بدم بارد دون ذنب، دون أن ترتكب جرما بحق أحد، دون أن يكون هناك رادع ومطالبة بالقصاص من الجناة المجرمين من قبل الشلة العفنة الحاكمة آنذاك، والمسماة بالمجلس الوطني الذي يأخذ أوامره مباشرة من الحاكم برايمر.

لم يفتح أحدا منهم فمه في إدانة المجرمين، لم نسمع إدانة قط ولا تنديدا يبن للناس والشعب طفح الصبغة الوطنية التي صبغوا بها أنفسهم، لا تصرّحا دل على حرصهم كقيادة ولا دافعا شخصا ملون بالوطنية افصح عنهم، كان هم هؤلاء الوحيد الجلوس على الكرسي.

كُلّ عبر عن واقعه الخسيس، المذل، المترخي تحت سطوة سلاح المحتل....

تخيل عزيزي القارئ بمجنون يقف في وسط أناس أسوياء، بماذا سيستشعر؟.... أكيد سيرى كل هؤلاء المحيطين به مجانين؛ لأنهم يختلفون عنه في الهيئة والسلوك والنية، حينها يحاول أثبات ذاته أمام الجميع، يفرض قانونه العام عليهم من وجهة نظره.

هكذا هم قادة الامريكان، وهكذا كانوا الزمرة الملتفة حول برايمر وشلتة، لا ينظرون سوى ما تحت أقدامهم، لا يعيرون اهتماما للشعب.

هكذا كانوا ينظرون للناس المحتفظة بوطنيتها وشرفها وعاداتها وقيمها وأخلاقها وتقاليدها، غير اسوياء، تبعية النظام السابق، يجب القصاص منهم واهمال وجودهم.

جند الاحتلال جاءوا بسفالتهم ودناءتهم وسقوطهم، هم لم يقتصوا من عيبر وأهلها فحسب، بل من القيم والحضارة والإنسانية، تلك التي علمتهم أصول القراءة والكتابة، تلك الاظافر التي خربشت وجوههم بعلم الفلك والرياضيات والعلوم الانسانية. هم دائما ما يستشعرون بالنقص تجاه تلك البلدان الضارب عمقها في بطون التاريخ، لاقتقارهم الأسس والقيم والمبادئ، ذلك ما أرهق كاهلهم عبر الزمن.

تلك الواقعة وقعت في خضم العقد التي اختلقوها، في جدول الصراع بين الشر والخير.. لقد فعلوا فعلتهم الدنيئة ثم تركوا الجثث تستنجد بالتاريخ والزمن، تركوها تصرخ بوجه العدالة والإنسانية، تتحدث عن نفسها بحجم الغل والقسوة التي طالتها..

حالة تفشع لها الأبدان، أبكت الحجارة والحيطان، أعرت الأرض والسماء والشجر من العطف والتحنان، بحيث ظلت تلك الأرواح الزكية الطاهرة متمسكة بتلك البقعة، تستتجد بالغياري والتاريخ والمقاومة والشجر والتربة التي زادت من شراستها بعد الواقعة، ظلت الأنفاس كدخان تنسل من بواكير

الأحزان المراغة بأزقة القرية وممرات طرقها التي كانوا يسلكوها فيما سبق، أشهرت غل الجناة المتخذين من عنفوان الفوضى غطاءً وعوانا لخستهم وقذارتهم.

بعد ملل وعناء وتجيب من المجهول المحيط بهم، بعد أن اكتشفوا بأنهم ليسوا في نزهة كما وصفت لهم قيادتهم الحقيرة، لانوا بالفرار وهم يتوخون الحذر في تجوالهم بدورياتهم المكوكية في المنطقة وفي الطرقات العامة. سلوكهم المشين دل على أنهم منذ أن وطأة أقدامهم أراض العراق باتوا يفتشون في خزائنه عن الترات والمادة والجواهر والعرائز الجنسية لإطفاء نار شبقهم في عيون نساء القرية وخارجها.

تخمرت أفكارهم وعقولهم ورغباتهم في نفوسهم بفعل وسخ القيادة التي يستقون منها منهجهم، يتبعونها بشكل أعمى، حتى يبست تلك أفكارهم في براويز الأوكار الممهدة لها، في تكنات نقاط التفقيش البائسة.... لذا عالجوا أمرهم بتشبثهم بعنق زجاجة الخمر، تسمروا بالولاه والعبث والفوضى والعنجهية لطرد هوام الملل الجاثمة على وجوههم وصدورهم ورؤوسهم، صاروا يتعقبون الفرص في تعقب النساء، اللاتي صرنَّ أشباحا تطرق مخيلات أفكارهم الهشة، ظلت تلك الأفكار تتأرجح في خططهم، تراوح بين عصف الجنس والشبق، بين الخذلان ومطارق السكر، بين العريضة والملذات التي أرهقت نفوسهم والذات اليائسة. حالة الجنس التي تعد كضرورة متواجدة في نسق الحياة، لم تعد رائحتها تزكم انوفهم.

جفاء الأجواء ولد فجوة عاطفة وخواء ورغبة عامة في النفس، والتي بدورها غذت مباحج الشهوة في الداخل وحركت زغب العاطفة عن موقعها، لتضطرم النفس بجفاء بالرغبة بالفرص في واقع عملهم المطلوب منهم. صومهم الطويل نسبيا عن ممارسة الجنس ولد شجن داخلي وحرمان غريزي لم يتعودوا عليه.. وجدوا أنفسهم غصت في عنق الزجاجة، في ريع الخمرة والعبث والهيصة، لتخفيف مرارة الأمر المفروض عليهم؛ حتى جالت فكرة الطيش والعبث والغدر في ذهن ستيفن غرين، بعد أن جذبته مفاتن عيبر لوهدة الأعجاب بها، ومحاولة ميلها أو خطفها والنيل منها.

حالة من الشعوذة سميها ما تسميها من قرف، عنجهية، تجني، انفلات، انقلاب، سفالة، سفه، غدر، حقد، ضغينة و...الخ من ما يوصف به عملهم الجبان الإجرامي بحق عمر الفتاة وعائلتها، حيث أقترح على رفاقه فكرة اغتصاب البنت بعد أن تراشقت الأفكار حول صواب أو خطأ الفكرة. وبعد جدال وتحميص الفكرة في الأذهان المخرومة تحت وقع السكر، وبعد أن وَقَفَ الغل شاخصا على وتد التخاطر؛ انتبذت الغاية الجسدية والنية الذاتية فوق مجمع الآراء، أرتقت حالة الطيش والعطش الجنسي على منازل العرف والحلم والعقل، بزغت فكرة العصف والانتقام تختمر في أذهانهم، سارت الحالة على ما أراد قائدهم غرين، والذي حاول فيما سبق معاكسة الفتاة في محاولة أغرائها دون أن تستجيب لحرشته، أو تعبير أهمية له.

الفتاة كانت عصامية، لم تتراخى وتتحني أمام رغباته القذرة الخسيسة، فهي لا تفهم لغتهم، لكنها فقهت غايتهم وما دار بأذهانهم بخصوصها. رغم أنها لازالت طفلة، لكنها بوجها فسرت شرورهم ونواياهم. لذا دعاها فكرها وحيائها أن تشكي خبث نواياهم لوادتها، والتي بدورها نقلت شكواها لأبوها. لقد فهمت المقصد وأن لم تفهم مغزى الحديث.

الشك نغزها، صارت تخاف أن تنفرد بذاتها خلال ذهابها وإيابها للمدرسة، صارت تتجيب الاقتراب من نقطة التفتيش، يوم بعد يوم تفاقمت مخاوفها؛ حتى قررت ترك دراستها تحت ظل البطش الغافي في نواياهم، آخذة بنصيحة الوالد الذي وعدها بنقلها الى مدينة الدورة عند عمها هادي.

لكن... هناك ألف علامة استفهام لدى أهل القرية بسبب تلك المجموعة المرابطة قربها. كان ستيفن الماكن قد عزم على إذلالها والإيلاج بها، وضع الفتاة بين الفرضة والشعيرة، في نصاب عينيه منذ أن لمح صورتها، رسم خطته وأجبر رفاقه على أتباع غايته، وذلك بعد أن لعبوا وشربوا وسكروا في سهرتهم حتى الثمالة، خاصة في تلك الليلة التي احترقت بها أوراق لعبتهم بعد أن أصيبت إحدى عجلاتهم الدورية بنيران المقاومة، مما أولدت ضغينة في قلوبهم العجفة بغرض إضافي وكراهية مستديمة على العراقيين، استغلها ستيفن ليحولها لحقد وبغض وانتقام من أجل نيل غايته.

استمروا في شغبهم وعصفهم وسكرهم؛ حتى تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود، عندها رقدوا خائري القوى، بل أرقدتهم الخمرة بعد أن أذيت حرشفة الوعي في كؤوسهم الننتة.

وفي اليوم التالي وبعد أن شرعت الشمس ترتفع في الأفق استيقظوا على ما ترسخ في ذهنهم من بغض وسكر، لانت أهوائهم وتسربلت غرائزهم إلى جوف الرغبة؛ آنذاك اتجهوا تحت تأثير سطوة الخمرة إلى دار عائلة قاسم الجنابي ليكملوا عواقب السهرة في داره..

استغل ستيفن غرين انشغال الناس في تلك الساعة بمتابعة أعمالهم وأرزاقهم في الحرث والفلح وتشطيب الأرض لموسم جديد، والقسم الآخر كان قد انشغل بعمله كموظف وعامل..... الخ، مع ارتفاع قرص الشمس لمنتصف الأفق، وبحدود الثانية عشرة والنصف ظهرا؛ داهموا منزل الجنابي من حيث لا يتوقعوا. حينها أنهوا مسرحيتهم بجزأرواح الضحايا دون أن تكون هناك ضجة تشغلهم سوى تلك التي قرقتها بنادقهم.

كانت العملية قد ابتدأت في جزء صغير من الفكرة، ثم تطورت الأحداث لتحشرهم في خرم ذلك الجزء من الفكرة، في شق ضيق لم يحتملوا همجية وضغط الغاية التي في جعبتهم، لتنفجر وتتمخض الأحداث عن سابقة خطيرة، خرجت عن إطار العرف المعمول به محليا ودوليا.

كانت الفكرة مجرد نزوة اغتصاب فتاة، لإطفاء شرر الغريزة والشبق في دواخلهم.. ثم تطورت لتأخذ مدى أوسع بعد احتراق عجلتهم لتتحول لانتقام، ثم تسارعت الأحداث لتنتسج الفكرة إلى حالة أقصاء العائلة بأكملها كعقوبة على إهمال عبير لغاياتهم، ثم تحولت لمرحلة القصاص وطمر دلائل جرمهم بما فعلت أياديهم القذرة وما دفعت إليه أنفسهم الخبيثة، بعد أن أحسوا بالفجوة التي أحدثوها لا يمكن طمرها، شسعت وكبرت دون القدرة على إطفاء نارها ولجم دخانها والسيطرة على مخلفات عبثهم.....

الله تعالى يمهّل ولا يهمل، لقد جنحوا خارج حدود السرب تماماً، حتى التفت خيوط شباك الخبث التي جاءوا بها على أرجلهم وأياديهم دون أن يدركوا، ليعروا أنفسهم أمام الملأ.

حين حَجَرَ ستيفن الوالدين في غرفة مجاورة، شرعاً زميلاه باغتصاب عبير، عندها صرخت عبير مستتجدة بوالديها، لم تصبر والدتها فخرية تحت قيد ستيفن على عناء أبنيتها، همت لإنقاذها بعد أن ضربت ستيفن بالمغرفة على رأسه... عندها عالجها ستيفن برشقة من بندقيته فأرداها قتيلاً، حاول قاسم لوي ذراع ستيفن وأخذ البندقية منه إلا أن قواه لم تسعفه، تمكن منه استيفن بعد أن رفسه بقدمه، ثم رشقه بصليبه فأرداه قتيلاً إلى جانب زوجته فخرية، تلك الواقعة هسترت هديل فباتت تصرخ خلف والديها فأسكت فمها برصاصة عمياء اردمتها بجانب والديها، هديل ذات ست سنوات لم تكن تفقه شيء سوى

أن تبحث عن والديها، ازعجته بصراخها ورعبها، جردها من
الفزاعة والرعب والطفولة...

هكذا جرت الوقائع بسرعة، لا أدري كيف أفسر حق عيش
الكائنات التي تدعوا لها الإنسانية، هؤلاء الذين ينظرون للحالة
كحالة لا بد منها لاستتباب الأمن والسلام، في الوقت الذي به
يرفضونها كفكرة في واقع عملهم..

هم لم يصلوا لمرحلة الإنسانية التي وصلناها قبلهم بآلاف
السنين قط، لقد هذبنا الدين وعلمتنا شرائع القيم التي حاولنا أن
نهذبهم بها؛ لكنهم لم يتقبلوها منا، لشعورهم الدائم بالنقص
اتجاه مآثرنا، كوننا أصحاب حق وحضارة وتاريخ وقيم، شهد
بها رب البشرية الجليل، حين مدح أخلاقنا بقوله:...

" كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۚ " صدق الله العظيم. هكذا وبكل بساطة،
أبادوا عائلة الجنابي المنكوبة دون سبب يحض على ذلك،
تحت ظل فوضى عارمة اصطنعوها بأنفسهم، تحت ذريعة
نشر الحرية والديمقراطية في البلد.

في ذلك اليوم اجتمع العم جبار ببعض رجالات القرية على
عجالة من أمره، طالبا منهم وضع رايات سوداء فوق أسطح
المنازل والبيوتات المنتشعة في القرية، إشهارا للملا بأنهم
أصحاب ثأر، كما هي العادة عند العرب، ولن يهدأ لهم بال
حتى يأخذوا بالثأر، ولن يتراجعوا إلا بالقصاص من المجرمين
وإزالة نقطة التفتيش...

تجدر الإشارة إلى أن صفة الهزر تعتبر بمثابة نوع من المرح والبهجة والسرور المبالغ به بمعناها العام، ولكن عند المغالاة بها والعبث بمكوناتها والإصرار على الاسفاف بسحرها وأسرارها؛ تتحول بماهيتها لصفة هزل مذمومة معكوسة المعنى، تتحول لذم وقبح ومجانة ونكاية، غالباً ما تكون كناية عن السخرية والاحتقار. كأن تقول زور الانتخابات وجعلها مهزلة، كما يحصل في الانتخابات العراقية الدائرة.

إذا تتغير الفكرة والحركة والغاية إلى صيغة مناقضة عبثية إلى تهكم وسخرية، تتحول الحالة من دُعَابَة وفُكَاة وَلُعْبَة وَلُهو ولُطْف ومَجَانَة وَمَزْح، لنقيض عام، للذع وسَاءَمٌ وضَجَرٌ وملل وتجريح، تشرع بإبراز صفة الذم والبؤس والأسى والضياع والعبث والشناعة في ذات الشخص المعنى.

هكذا يتحول الهزر الخفيف لمهزلة وعبث وازدراء وامتهان لكرامة المقابل، لتصرم في الفكر وحنق في الأنفاس- يجيل صفة الونام من المجتمع ليدع بدلاً عنه البغض والاحتدام.

الهزار: هي الحالة التي تتلون بها المفاهيم باختلاف حقائقتها، وحسب موقعها وتأثيرها وطبيعة الحدث المناط بها والمراد لها، والتي من خلاله نشير إلى ماهية الهزر. الضحك الغير مبرر والزائد عن حده والسخرية بأشكالها وصفاتها، تترك أثراً يمتضي لطريق مسدود، عندها يهجس الشخص المقابل بتداخل

الألفاظ مع تناقض المعاني، وانغماس في الرؤى واختلاف في التفسير... قد يشير القاصد لصفات ومعانٍ مبطنة نقيض المفهوم الظاهر والسائد على السطح، بذات تقييد حفيظة المتلقي.. هكذا إذا الضحك المبستر الجاهز يولد تشنجات نفسية في مرآة الشخص المقصود زجله وجرحه بصفة المجانة.

قد ترمز الغاية لفعل مناقض لما هو سائد ومتعارف عليه، فالأمان سائد والفوضى جانحة، الاعتداد سائد والسقوط جانح. الاحترام سائد، الاسفاف جانح. ففي الهزء يكمن العمق اللغوي وأثره الفعلي في نفوس الناس، يرتبط مباشرة بشكل الصراع النفسي الدائر، بحيث يفيض مأساة بحجم تأثير المعاني بالمقابل.

تتشكل المفاهيم الهزء من واقع الضعف، من الجلف والخوف والتهور والفوضى....الخ، من تناقضات تتداخل في المعاني الغير ملموسة وغير مرئية بشكل عام. قد تؤدي إلى تفتت الحجر للغل الذي تصيغها تلك المعاني كما يقول المثل (راد يكحلها عماها).. قد تؤدي إلى بروز الضغينة والفتن. فالحالة التي تتركب منها العناصر المستهلة للحدث والغاية المستطرقة البذينة المراد إظهارها لتشكيل الهيكل الواضح بين الظاهر والباطن؛ هي حالة الاستخفاف المطروقة، كعرض مسرحية هزلية بكل ما فيها وما عليها من تناقضات ترمي لغاية دفينه، بحيث تكون باطن الفكرة انعكاس لظاهرها.

أشير هنا لتوضيح الفكرة إلى مقطع لمسرحية عادل أمام شاهد
مشافش حاجة.. حين يسأله المدعي العام قائلا:.....

- ألا تخجل من نفسك أن تسكن في عمارة تسكن بها
راقصة؟

يجيبه الممثل عادل إمام بهزر وبحنكة:.....

- يا سيدي لو كل شخص يعزل كون العمارة تسكن بها
راقصة، فالبلد كلها تبات في الشارع.... دلالة على أن
الفساد المنتشر سببه اهمل الدولة والسلطات المسؤولة.

أنطلق من الواقع المُبان لبيان حجم الفقر السائد بين اوساط
الشعب، حول هزره لمهزلة سكنت عنها الفئة الحاكمة، دون أن
تبدي مساعدة الشعب بفتح آفاقا اقتصادية لتعديل كفة الميزان.

إذا القضية في ملعب الحكومة المسؤولة بوضع الحلول لها،
تلك التي جنح لها الشعب مجبرا، العقدة التي جزلت القيم
والعادات الأصيلة عن المجتمع. بالهزر الظاهر عبر عما
يغيض الشعب في الداخل من مهازل ومصائب مبطنة ابتليت
بها شرائح المجتمع، عن حجم الآلام والاستخفاف الذي
يتعرض له المواطن دون علاج حقيقي...

قد تؤدي الحالة إلى اجتهاد وجدال حاد بين الفكرة المشاكسة
المؤثرة وبين الواقع المعنى الذي تعود عليه الشعب، أو الذي
يرتجيه، كحالة التراشق والتنافر الحاصلة بين الغاصب
والمغتصبة أرضه، بين الظاهر المعلن من حرية وديمقراطية

والغاية المبطنة من سرقة وقتل وطغيان دائر، بين ظاهرة
الهزر المرئي والمهازل الحقيقية المشاعة، والتي تولد انطباع
سيئ لدى العامة من الناس عن ادارة المحتل.

بعد الاحتلال الامريكي تعقدت الأمور، تحولت الواجهة
المرئية للصور الشفافة إلى واجهة مظلمة، مليئة بالغل
والسطو، حينها دق السادن ناقوس الخطر وأعلنت الصوامع
الحداد التام على الوطن حتى يتحرر.

المصائب التي حدثت تركت صدى سيئ لدى الناس هؤلاء
الذين تأملوا خيرا من حالة تغيير النظام والواقع المر، أصيبت
أعينهم برمد غيظ المحتل وأذنا به. فيما تحولت صفة السخط
والذم والبؤس لدى البعض المستفيد من تغيير الأوضاع لغاية
تخدم مصالحهم الشخصية، خاصة لدى الموالين من أذئاب
المحتل وعبيد المادة والخونة والمنافقين واللصوص والطامعين
والعابثين والباحثين على سنم الكراسي على حساب الوطن
والوطنية والشرف، زمرة من شلة الأحجال المشدودة في
سيقان العاهرة؛ هؤلاء طالما عاثوا فسادا بتلك الأعمال من قتل
وبطش قاموا بها نيابة عن المحتل، أعمال تبقيهم يحافظوا على
نبح السقاية الغير مستحقة. تبقيهم يبحثون عن العظمة المرمية
تحت المقاعد الهزازة، عسى أن يتجاوزوا أزمة غاياتهم.... إن
لم يتجاوزوها فأنهم سيبقون خانعين وخدام عند المحتل،
يشاركون معه في صياغة برمجة المهازل حتى حين، والتي
واقع تأثيرها مباشر على عاتق الشعب البريء المكبل بالخوف

والفاقة والقتل بتلك التفجيرات التي ذهب ضحيتها الآلاف من الأبرياء دون ذنب.

لقد أخذت هذه الصفة صداها في بلورة خواص تلك الشردمة بعد احتلال قوات التحالف للعراق، باتت تتبلور وتتكور وتتسور وتظهر أيونات المهازل بخواص القبح على أسطح الفكر، قبل أن تطبق وتمارس في ميدان العمل على عاتق الشعب، قبل أن تُمخّر المصاعب واقعه كحالة رتيبة قائمة تعبر عن حقيقة نية الغاصب في قدومه بتفتيت قدرات هذا الشعب.. برقت الحالة بسطوة السلطان وغايات المحتل ونية أذنبه من الأحزاب المراغة في الوسط، وبتكرار وقائع الغل بين صفوف العامة هنا وهناك، تلك التي تعلمت كيف تحول الهزر المراد لمهزلة في عيون الشعب..

مع مرور الأيام وتكرار المآسي؛ طفح الكيل وبلغ السيل الزبي، كثرت المهازل والانحرافات في مؤشر سلوكيات العدو، خزقت القيم والأعراف السائدة.. وقد بانّت بين صفوفنا منذ أن تصدعت جدران الثقة فيما بين العراقيين والعالم الغربي أبان فرض الحصار الغاشم على الشعب الأعزل، حيث بدلا من معاقبة النظام؛ عاقبوا الشعب. أحاطوه بهالات ودوائر سود من تلك العقد المحاكة بخيوط الحقد، بحيث كلما تجاوزنا دائرة ذل من الحنق الذي نصبوه لنا، وجدنا ذواتنا محاصرة بدوائر أشد قتامة وغلا وحنقا، أشد بؤسا وكرها وتعقيدا وخسة ونذالة ومذلة من الدائرة الأنفة، وهكذا دواليك حتى آلت بنا الظروف

إلى الاستسلام لنواياهم وخبثهم بعد أن تعبت أفكارنا من فك لغز الأحجية المعقدة التي تكبلنا بها .

منذ أن خطت يد الغدر حدود حياة الفرد على ورقة المصالح الدفينة؛ بانّت لنا نيّاته واضحة جلية، من خلال أفعالهم الناشزة، وذلك من لحظة بناء جدار الحصار عام 1991، ومن ثم تدمير اسلحة العراق وقلاع الوطن وسرقة خيراته وتراثه وحضارته أثناء احتلاله - إلى لحظة اعتراف رئيسهم المعتوه ترامب، بأحقّيتهم في سرقة نفط العراق والخليج العربي على شاشة التلفاز دون خجل.....

لقد سرقوا تاريخ العراق برمته، صارت تحفه تجوب متاحفهم، بل صاروا يستعرضونها في شوارع وقاعات العالم لأجل الاستفادة منها ماديا.. كنتُ قد شاهدت معرضا في أبوظبي استعرض به البريطانيين تحف حضارات العراق على مر التاريخ تحت تسمية حضارة وادي الرافدين، سرقوا آثارنا وصاروا يتجولون بها بين الدول لجمع المادة. هذه نتائج الاحتلال، سرقة التراث.

حين قصفوا ملجأ العامرية عام 1991، راح ضحية القصف 450 طفلا وامرأة كانوا محتمين فيه، وعندما سألوا الأمريكان عن الغاية من قصف الملجأ، ادعوا بأن الرئيس صدام حسين كان محتما فيه، وهم يعرفون جيدا أين يقطن الرئيس. إذا لا مانع لديهم من إبادة الشعب كله بحجج واهية!! لفرض سياستهم وقبحهم على الشعوب المسالمة!...

كان قد أعترف أحد الجنود بقتل شابا يقود دراجة لمجرد التسلية! وأخر قتل عجوزا وهو مستندا على جدار حائط بيته، وآخر قتل شابا يتصيد السمك، فيما وصف أحدهم عملية تصفية عائلة في الفلوجة بعد أن تم ردم منزلهم بالتشطيف.. وووووالخ.

يا لمهازل الاحتلال!!!

أرواح البشر غدت تتطاير كالعصافير دون أن ترفأ بهم رحمة.. -- في الحقيقة كانت الأمور واضحة في مرأة الفرد العراقي وتلك التي نوه عليها العم جبار في اجتماع السقيفة.. تلك المرأة لا تكذب أبدا في عين البسيط والكادح منهم، لوضوح الأعماق الدفينة أكثر من ظاهرها المشوش، بانث الساحة لنا كبركة صافية تبرز فيها قيعان القذارة مثل الأحجار...

أعرتهم نياتهم المريضة، كشفت لنا عن المخفي الدفين وعن الرائج المشع من المنغصات التي ترتبت على خلفية جدل صامت دائر في أروقتنا، في رسم مخطط عقابنا وتجريدنا من حقوقنا وحياتنا. لقد برع العدو في التتكيل بنا بشتى الطرق، مقابل تخبط واضح في عمل القيادة في قراءة الحدث وفي ردة الفعل.. ذلك ما أدى إلى أن نلتمس أثار هذه المهزلة التي جاء بها المحتل مع غيرة سرف دباباته بأشكالها المختلفة، ومقتل عبير وعائلتها هي إحدى تلك المهازل.

ما يؤلمني حقا هو تبجح قادة العدو بأفعال جنودهم، وقد شاهدت أخيرا ملكة بريطانيا مبتهجة في صورة شخصية لها،

كان يقبع خلفها بيانوا الرئيس صدام حسين المصنوع من الذهب الخالص. أنها قمة السفالة والبجاجة أن تتبجح وتبتهج الملكة بسرقة تحفة من آثار الرئيس صدام حسين، فما بال العامة من الناس؟؟؟؟؟؟. ناهيك عن سرقة جند المارينز للذهب المسكوك من البنك المركزي بما يعادل جُمْل شاحنة مليئة بالذهب، بعد أن فطم نظام الدكتاتور الشعب عن حليبها.

تمكن المحتل من قصصه أحاديثه ونواياه وتوزيعها على حجم العراق بطوله وعرضه وسمائه، لتشمل عبيثته ساحاته كرنفال فوضى. فالقصص صارت كما هي الأميبيا تجدد دورة حياتها في المجتمع العراقي بأبطال جدد ودون تكلف كل فصل، دون عناء، قصص عجيبة تغلغت في أفاق المجتمع، انتشرت بين الناس كلعب جديدة يصعب ترتيب احبيتها..

تلك القصص تنوعت بأسلوب القتل، بحيث أصبح الدخان يشتط بين تكوينات المجتمع، غطت على حياتهم كغمامة من الألم والحنق والزمن والزنج، ولدت فتن طائفية وقومية وعرقية ومذهبية شتى في أوساط المجتمع... هذه القصص باختلاف أيديولوجياتها وأبطالها من جنود المارينز ومليشيات أحزاب وتابعين والخونة وأذئاب من المهرولين خلف الكراسي ومن الطابور الخامس، وبعض أبناء الشعب من الذين غرر بهم، هؤلاء الذين وقعوا ضحية الحصار والفاقة، بعد أن عاشوا تحت سخط المطرقة والسندان فترة طويلة، إضافة إلى الفتن والمصالح الخاصة والمزايا والمطبلين والمشعوذين

والموالين لأنظمة خارجية حاقدة، تكالبت جميعها على الشعب، وهو مكبل بالعنف دون إرادة.

في الحقيقة لتشعب الأحداث وتواترها وشدة عنفها، جعلت العقد تتحدث عن نفسها، عن سر هذه الأمواج العاتية من الظلم والحقد الدفين تجاه المجتمع العراقي.. صارت الفوضى تعم وتبتهج، تموج كسيل متدفق من المصدر بالوان الحقد الأسود والأصفر والأحمر المتجدد، لتصب في أحضان الابرياء والمساكين والمسالين بشكل من أشكال العبيثة. صارت تأتي مع حركة الروح الغير طبيعية في اوساط المجتمع بسبب تنامي قوى الاحزاب لتضرب محيط وأحشاء العراق بعنف.

معظم تلك الموجات قدمت بخبث من الدول الجوار المتنافسة على قسمة كعكة العراق، التي بينت حجم أطماعها وغاياتها المتوافقة مع غايات المحتل وفئة اللصوص.. كانت قد بصمت على حسم مستقبل العراق مقدما، لذا صارت المهازل تتجدد بأشكال مختلفة لتعم سماء الوطن وأرضه وهواه..

لقد تعرض العراق لعملية سرقة مبرمجة لآثاره وبنوكه وأرضه ونفطه وحياته ونوره وماءه وسماءه وقيمته وأفكاره وأرواح أبناءه، باتوا ينتهزون الفرص لنهش أجساد العوائل البريئة والتي لم تسلم على حالها من اعتداءات تلك الشلة العفنة الجائعة، داهموا البيوتات والمساجد كـ ثعابين وعقارب سامة، محاولين لدغ ولسع القلوب الواجفة. تلك الهمرات المدرعة اخترقت الأرقعة والمنازل دون سابق إنذار، دخلت الأحياء

لتعبث بها كيفما تشاء، فتكت بالأبرياء دون مبرر، سرقوا كل ما يقع تحت أياديهم من حلي ومجوهرات ومال وثمانين، دفعهم قلة أدبهم إلى مهاجمة النساء ومحاولة اغتصابهن. حتى استهزأ بهم المطرب حسام الرسام حين غنى - بنص القوري على الصاروخ يدورون - أي يبحثون عن الصاروخ في أبريق الشاي، نكاية بهم في بحثهم عن المجوهرات من حلي وذهب في مطابخ الناس.

نحن الآن نتجول وندور في أروقة إحدى المهازل التي طفقت بحياة أسرة بريئة لا حول لها ولا قوة إلا بالله، نتجول في واقعة ستبقى عارا في جبين المحتل والخونة والذين ساندوا المحتل من أجل مصالحهم الشخصية، لم يذكر التاريخ يوما بأن الغاصب يكون رحيمًا على أبناء الشعوب المغتصبة أرضها وسمائها، لم يذكر أبداً بأن يكون أميناً على مصالحهم.....

قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ۖ وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ " صدق الله العظيم.

جنود المارينز كانوا قد أعدوا العدة لمخطط جريمتهم بعناية فائقة مسبقاً، هيئوا مستلزمات الجريمة، لطمروا آثارها فيما بعد، لتكن أثراً بعد عين. مستغلين الفتنة الطائفية التي تأججت بين السنة والشيعة بعد تفجير مرقد الحسن العسكري وعلي الهادي في سامراء من قبل فئة باغية خارجية معادية للوطن في 22\02\2006، أي قبل مقتل عبيد بـ 21 يوماً بالتمام والكمال.. ليعلقوا جرمهم على شماعة الطائفية..

كانوا قد وزعوا الأدوار فيما بينهم بتخطيط محكم من قبل ستيفن، محددين ساعة الصفر، كان ذلك في ليلة 12\03\2006 وقبل ظهيرة ذلك اليوم.

تقدم ستيفن المجموعة رافسا الباب الخارجي للبيت رفساً قوياً، والذي كان بالأساس مفلجاً دون أن يسرج من الداخل. دخوله العنيف أولد فرقعة قوية، أشبه بزلزال مفاجئ هز أركان البيت، لينذر القابعين به بوجوب التهيؤ للحدث القادم. برفسه الباب شتت أفكارهم، أنذرهم بوجوده الغير مرحب به. بوقع الزلزلة التي أحدثها كان قد سحب البساط من تحت أقدامهم، جردهم من أي فكرة تخطر على بالهم، كبل أراذلهم وهو أجسامهم، تجنباً لأي ردة فعل غير متوقعة يصدر من قبل العائلة.

بدخولهم باحة البيت متكررين بالزي العربي، مرتدين الدشداشة البيضاء والغترة والعقال العربي أوضحوا غايتهم، بتكرهم

وتدججهم بأسلحتهم الفتاكة كشفوا عن النية المبيتة، أوحوا للعائلة بالطامة التي حاولوا تجنبها، في الوقت الذي به حاولوا الإيحاء لعباري السبيل بأنهم فئة من عصابات الاحزاب الدخيلة السائبة في أرجاء العراق، تمثل عناصر القاعدة أو فئة المقاومين، محتمين بالفوضى تحت ظرف الصراع الطائفي بين السنة والشيعة الذي اشتدّ وتيره وسبقه بالسيطرة على زمام السلطة.

المهم في عملهم؛ ودوا أن يعلقوا سفر جرمهم على رفوف الطائفية لتعميق الهوة وتأجيج الفتنة، في ظل فوضى عارمة تدور رحاها بين أبناء الشعب دون أن تستكين. بعملهم ودوا صب الزيت على النار المتأججة في الوقت الذي به تمكنوا من نيل غايتهم من الفتاة عبير واشباع رغباتهم الجنسية منها.. ودوا تهيج البراكين النائمة في صدور العامة من الناس وأن كانت متقدة..

كانهم خططوا لعملهم بدافع أوامر عليا، تحريضية، من قبل قاداتهم الميدانيين، أو بتشجيع منهم. ذلك ما تبين من خلال اعترافات العديد من الجنود بخصوص هذا المجال بعد انتهاء الحرب. هؤلاء الجنود المنطوون تحت راية الحق والبعث للذين اسعفتهم نفوسهم بعد أن تجرعوا سم الندم، من البوح باعترافات علنية ضد قاداتهم، اللذين نوهوا إلى فعل جرم قاموا به بأمر ودافع من قاداتهم، لينالوا تكريما وتقديرا مقابل فعلتهم القبيحة.. هكذا كانت عقلية القادة الميدانيين في تعاملهم مع أبناء الشعب، أما لتجنب أثار المقاومة التي اشتدّ وتيرها، أو تعبيراً

وانتقاماً لما يبهج قلوبهم الحاقدة وما نالوه من عقاب على أيدي المقاومة ليشفي غليلهم.

يقول الجندي الأمريكي جون مايكل بأنه قتل أول شابا في
2006/4/18 لمجرد أنه سمين... يا للمهزلة!!! قتله أمام والده،
وتطلب سبعة اشخاص لحمل جثته، وقد هنأني أمر السرية
وقال مقابل كل شخص عراقي يقتل نمدة الاجازة أربعة أيام!!!
ههههههه أ يوجد حقد أكثر من هذا؟؟؟.

هكذا هي السفالة والانحطاط في قادة الجيش الامريكي اللذين شجعوا على قتل الابرياء. يقول مايكل:....

إذا كان يرفقنا مراسل حربي نلتزم بالقوانين الحربية وإذا كنا بمفردنا نقتل أي شخص نواجهه في الطريق... لذا أطلقنا صاروخا على دار رغم علمنا بأن الدار لا علاقة لها بالنيران التي تطلق علينا، كما قتلنا رجلا يركب دراجة هوائية لمجرد صادفني في الطريق!!!!.

المهم، بدخولهم المفاجئ للمنزل كانوا قد أحدثوا فرقعة وجلجلة صاخبة في المسكن، بها جردوا العائلة من التفكير والتهيئة والمبادرة ومن الدفاع عن النفس، أذهلوهم، أفزعوهم، أفقدوهم التركيز والتدبير.

عبير التي هربت من شرك الفخ ليلا، وقعت في مصيبتهم نهرا، دخلت العائلة في جب ستيفن ورفاقه. تتكلمهم بالزي العربي أوضح للعائلة النية التي جاءوا بها والغاية التي تخوفوا

منها، حتما خلف هذا التكرار المبالغ به والذي لا يوائم بأشكالهم الغريبة والتي توحى للناظر بأنهم ليسوا عربا ولا يحملون سماتهم قط، عملا إجراميا يسعون تحقيقه. الحالة تفسر ذاتها بذاتها دون تعقيد، بذلك التمسوا شرر الغاية تنفر من وجوههم القبيحة، أيقنوا سر قدومهم الغير مبرر.

بدخولهم المفاجئ تسالت الرهبة إلى قلوب أفراد العائلة، وجفت مشاعرهم، توقف نبض حياة، عمشت أعينهم، باتوا يدورون حول محور اللغز الذي يودون كشفه كالعمي التائه في العتمة، لا يستدلون على مخرج ينجيهم من فخهم.. هكذا توقفت الهواجس والتفكير والتصور في نقطة مفصلية لا تقبل الشك، وضعوها بين أيديهم دون أن يفقهوا منها شيئا...

تبدد كل شيء من حولهم في لحظة غفلة، توقف نبضهم، تفكريهم، عملهم، رغباتهم، أحلامهم، جوعهم، مستقبلهم، تشوهت اللوحة أمام ناظرهم سوى من صورة الغدر التي كانوا يتجنبونها، صورة بانث لهم بكل وضوح.

حتما خلف قدومهم وهم متكررين تكمن مصيبة، يكمن حساب وظلم، وإلا ما تفسير رفسهم الباب! ما جعلوا للفعل وجوبا. في قدومهم المفتعّل ودخولهم العنيف دون أستاذان، دلالة على أتباب النية السوداء التي كانوا يرتابونها قادمة، ذلك ما فتنت بها اللعة الماثلة في حدقات أعينهم الشزرة، وما أشارت لها نظراتهم الوقحة والشرر القابع في نفوسهم، وتلك الشراسة

المفتعلة في حدة نبرات اصواتهم المتمثلة بالزعيق والصراخ
المفتعل، لتجريدهم من المبادرة..

كانوا قد حلوا بالغل والعنف المفتعل، أزاحوا حاجز الأمان
والسكون من فضاء البيت، بدخولهم العشوائي كأنهم أشاروا
إلى العائلة بأن يتهيؤوا لتلقي الصدمة القادمة، كأنهم وضعوا
أياديهم على الكنز الذي أستحق المجازفة، أو ما شابه ذلك....
ها قد وصلوا لخط النهاية، لنيل الجائزة التي سعوا خلفها زمنا.

الفرصة أصبحت جاهزة لاستغلالها، لا أحد يستطيع منعهم من
قطف تفاحة القرية التي استخرجتهم من جنة الوله إلى نار
الكمد، كل الأمور مواتية أمامهم لقطف تلك الفتنة. الزمن
يمضي برتم ثقيل على العائلة وسريعا جدا على الجناة، لا بد من
استغلال الوقت قبل أن ينفد الوقت المحدد للعملية، قبل أن
يحدث انقلابا في المشهد لن يتوقعوه، قبل أن يتعروا أمام أهل
القرية وينفضح سر قدومهم على الملأ.

عملية افتعال الصدمة كان له مردود إيجابي بالنسبة للفئة
الباغية، وله وقع سيء وثقيل على المتلقي من العائلة المنكوبة،
بحيث تمكنوا من أن يشلوا أعصاب العائلة التي لا حول ولا
قوة لها، كبلوا هواجسهم بالرهبة، ألقوا بهم في جب العجز
والخنوع، جردوهم من الحركة والفعل والمقاومة.

هم يدركون جيدا احتمالية تواجد السلاح في بيوتات العراقيين،
لكن الصدمة هيأت المقابل للاستسلام تماما، بعد أن عجز الفكر
عن تفسير الحدث خلال الثواني الأولى من المداهمة؛ لقد تمكن

الفاعل من تجاوز حاجز ردة الفعل بالسرعة التي دخلوا بها البيت. لذا بقي قاسم وزوجته فاغري الفم لا يفقهون شيئاً مما يجري حولهم، لكنهم التمسوا هباب العصف الملهب يحرق وجوههم، حين لاكت أذهانهم حيرة صماء، غدت ملامح الصورة مشوشة تماماً امام أعينهم.

رغم الشكوك التي كانت تنتاب قلوبهم وأذهانهم، كانت مجرد شكوك واهية، مجرد الضرب في تخت الرمل، غير متأكدين من النية، بنوا افكارهم على مجرد تكهنات شكوى عبير، لم يتوقعوا أمكانية تجاوز جنود المارينز حاجز العرف وحرمة العائلة والقرية بهذه الجرأة الغير مبررة، لم يتصوروا تخطيهم لتلك الأعراف والقيم بهذه السفاهة والخفة..

ما كان قد هُيئ لهم فيما سبق كان مجرد تكهنات وَلَعَتْ في أذهانهم، التجاوز والتبجح والترهيب مجرد احتمالية ضعيفة، أنها مجرد فكرة عابرة زرعتها عبير بأذهانهم، وعملية مبيت عبير في بيت الجار لم تكن سوى مجرد احتراز دون يقين.

تلك اللوحة الصماء التي برزت بها الخطوط الرمادية والحمراء والعشوائية، زجت بهم في دوامة الشك، لما فيها من غموض مخيف، أنه الفأل الذي ترك فيهم ذلك الوجس، عجز الذهن على تفسير ذلك اللغز، خطوط سوداء وحمراء وصفراء تداخلت وتشابكت في مخيلة كل فرد منهم، حالت جوارح الشخص لحالة من التسامي، لصخب دائر في الأجواء، لعجز وشلل أرتبط جذره بواقع النكبة التي أثبتت مقوماتهم....

أنها مجرد هنيهة زمن كانت كافية لمن خطط بحرفية من فرض السيطرة على أرجاء البيت دون عناء. هم يدركون جيدا، أن لم يحزموا أمرهم بعجالة؛ سيواجهون مصيرا مجهولا. لذا أرادوا بعملهم الجبان تجريد البيت من ردة الفعل، لألا يتصرفوا تصرف أهوج يفضح نواياهم امام أبناء القرية..

بعد ان تمت السيطرة باشرروا بتنفيذ المخطط الذي جاءوا من أجله بسهولة. جاءوا بنية اغتصاب عبير، لكن تواجد أفراد العائلة في المكان؛ أحال سلوكهم العبثي إلى سلوك همجي أرعن، أهوج، إلى قبح وإجرام، لذا شرعوا بالتخلص من الوالدين لطمس أثر الجريمة المراد تحقيقها.... قتلهم الوالدين جرد عبير من الروح، لم تعد تشعر بالحياة وفي فضاء انوثتها غدت كخرقة تتلاعب بها ريح صرصرة، فما كان لهم أن يخرجوا من البيت دون قتل اختها هديل التي جلجت البيت بصراخها.....

خمس كلاب مسعورة، أحدهم وقف بباب الدار الخارجي شاهرا سلاحه بوجه كل ظليل أو عابر سبيل يقترب من الدار، لينفق روح كل من يرشده حظه العاثر بتخطي حاجز تلك المفازة في تلك الساعة، وآخر كان يراقب محيط البيت من على بعد مئة متر، يراقب الطرق والممرات المؤدية للدار ليمنع اقتراب الأشخاص منهم، متهيئا لصد المعينين، في الوقت الذي به كان على تواصل مع الزمرة التي دخلت المنزل لاسلكيا. كان مستعدا ليجتث كل هائم وطائف أو غارم أو حائر عرج به حظه إلى ذلك المكان.. فلا مانع لديه من قتل أي

بريء يقابله أو يحاول إفساد مخطط زملائه، كما يفعل العنكبوت في شبابه.

تمحص الشر في العيون العيمى، تجاوزوا حاجز الرجوع، تجولوا بين اروقة الأنا الإنسانية والأنا الشيطانية، الجنديان في الخارج يؤمنان سلامتهم، مهمتهم إيقاف المد العاطفي لأبناء القرية لمساعدة عائلة قاسم الجنابي المنكوبة بأي حال من الاحوال، كانا أشبه بسد منيع بوجه كل تيار قادم.

حين دخلوا البيت كان قاسم ممددا على طنفسة في ركن من أركان الصالة، مشغول البال بهوم الدنيا وتأخر ولده أحمد بالعودة من بيت أخيه هادي من جهة وبمداعبة أبنته هديل من جهة أخرى، كان سارحا بخياله بسبب الأزمة الطائفية المفتعلة في الخارج والتي افرزت عنها نتائج وخيمة تضر بالبلد، استغلتها الزمرة البغيضة بمداهمة بيته. كانت شدة الازمة الطائفية قد تجاوزت المعقول، بحيث وصل بهم الحال إلى قتل المعني على الهوية والاسم. ذلك ما شغل بال قاسم...

كان يتأمل طفليه بنظرات كامدة لحظة دخولهم البيت على حين غفلة... بينما كانت فخرية التي حملت هم الأطفال والزمن المرير والأمومة، مشغولة في المطبخ بتجهيز طعام الغداء، مرتدية على كتفها قفطان شفيف أزرق، عندما اخترق ستيفن وأثنين من رفاقه حاجز السكون... أهتم زميلاه بحجز عبير داخل الصالة تمهيدا لاغتصابها، فيما دلق ستيفن الوالدين لغرفة جانبية لينهي الجدل معهم.

كانت عبير قد عادت للبيت مع تخاطر الود بين الشمس والأرض، عادت بروح ترفة مفعمة بالحب والأمل بعد أن هامت بصحبة رفيقتها. عادت بروح مفعمة بالنشاط، بعد أن تكبلت راحتها بهاجس الخجل والاحترام، حيث لن يجد راحتها إلا في بيتها...

فيما سبق كانت أمي تردد العبارة التالية كلما ود أخى زيارتها لبيتها، حيث تقول (بيت الله بعد بيتي لا والله) أي لا تفضل بيت الله بعد بيتها وهذا هو ما يجول في خاطر كل عراقي دلالة على عزته بنفسه والحفاظ على كرامته.....

عادت عبير بعين غارقة بمستنقع الحلم الذي راودها، والذي أضناها جدل التفسير. عادت ناهدة، فواحة، بإشراقة وجهها الباسم مع ترائيل غزل الصبح للورود البهيجة، لتكحل بها عين أمها بالأمان بعد أن توقعت بالشجن.

مع جلجلة الصخب كان قاسم قد فز من سرحانه، انتفض واقفا على قدميه بدشداشته الرمادية، وقبل أن يفلح بأدراك باب الصالة أدركه ستيفن ورفاقه، حينها ربط مصيره بمصير ذلك الفلاح المغدور منكوب الحظ، والذي درسوه ودرسوا زرعته دون ذنب. صار يتوسل بهم وهو الذي لا يفقه الإنجليزية سوى كلمة no قائلا:....

- no لا تفعلوا شيئا، نحن لم نفعل شيئا قبيحا، بالله اتركونا، اتركونا....

لكنهم لم يفقهوا شيئاً مما يقول، بينما استطاعوا ترجمة أحاسيسه وتعابير ملامح وجهه التي باتت تنهار عوارضها واحداً تلو الآخر امام شراستهم. ذلك المسار لن يغير من منهج النية التي شغلت خواطرهم بشيء، حيث السكر الذي خلج في أذهانهم هرص أفكارهم، زاد من دافعيتهم بغل لتكملة مشوار غايتهم، كأنه سمع صوت نداء داخلي أطرق رقائق الشك الذي كان يرتابه بمطرقة النقم بدل الرحمة والحكمة التي يتأملها.

فيما كانت العيون الشبقة تعوم في جوف الغريزة العمياء، نافقة، عطشة، تتبع الغاية والشبق والبلاء، كأنها تماردت في غيها وتناولها، بدت تستطير بالشرر والغل النافذ منها تجاه أنوثة وفتنة عبير. الوجوه مصفرة، ناشفة عند الطرفين، وجوه العائلة مصفرة من الرعب وتوقع المحذور، وجوه المجرمين مصفرة من الحقد والشبق وتجاوزها لغة العقل.... لذا تلاقوا في نقطة لا رافة بها تجلهم ولا رقة فيها تمنعهم من تحقيق التصادم.

وبعد أن وجد ستيفن تقلبات الحالة بين يديه، بعد أن بان له بأن العائلة تمكنت من قراءة سطور رسالته؛ أقتاد الأم والأب والطفلة هديل لغرفة جانبية وهم يتوسلون به تحت وقع الرعب والحيرة الطاغية على وجوههم المربكة، دون أن يفقه توسلاتهم سوى كلمة (please no)، حيث باتت الطفلة هديل تصرخ مع صراخ عبير ونياح الأم التي تشنجت أنفاسها بنشيج صوت عبير وهم يحاولون تمزيق ثيابها واغتصابها، باتت تصرخ وتبكي بشجن وغضب لحظة العناء عنوة.

كانت المفاجئة قد عقدت لسان الزوجة المفزوعة، بحيث لم تعد تشعر بأطرافها التي صارت ترتعد وترتجف، حتى تراخت وشُلت عن الحركة، الجنون تمثل لها أمام ناظريها كشخص أسود، وهي تحتضن أبنيتها الصغيرة المفزوعة، أمتزج صراخ أطفالها بصراخها المتعالي في قرينة واحدة.

لم تستطع أن تبدي أية مقاومة وهي مكبلية بالخوف والفرع المفاجئ الذي حل بها، تجاذبت وأبنيتها العاطفة والتي باتت تصرخ وتنوح بفزع: ماما ماما... لم تتحرك من سبط بقعتها، الفوضى والعويل سيطرة على سلوكها، تجردت من قدرتها وهي في حالتها الهستيرية وكأنها صفعت على عينيها، أضحت الصورة مشوشة في نظرها كصور التلفاز أنحرف عن شبكة البث المرئي.

لقد سحب ستيفن الأب من تلايبب دشداشته، فيما دفع الأم المهووسة أمامه وفي يدها المغرفة لتستعلم سر الصخب، فأردفها خلف زوجها لغرفة جانبية بقوة ذراعيه، لا تعرف ماذا تفعل حيال الموقف الذي بات عصيبا، مفاجئا لها. لم تنفع توسلاتها الغير مفهومة لهؤلاء السفلة، في الوقت الذي به مزق صدرها صراخ أبنيتها عبير في الصالة وهي تتعرض لحالة العنف والاغتصاب، كانت قد دلفت ستيفن وضربته بكل ما جمعت به من قوة بالمغرفة على وجهه، وهي تناجي ربها بعبارات التكبير:....

- الله وأكبر عليكم يا كلاب -- الله وأكبر عليكم يا مجرمين، يا سفلة.. ماذا تريدون من البنت.

انتقامهم من الفلاح حازم قبل أيام، كان كافيا بأن تصحي الأم والأب وعبير من غفلتهم، وقبل أن تستعيد رباطة جأشها، وهي تلقفه بالمسبة والصراخ، وقبل أن يستعيد قاسم وعيه ويدرك ما يجري حوله، وقبل أن تلتمس الدهشة التي عصفت بهم أطراف حدود الفكرة؛ كان قد عالجهم ستيفن غرين برشقة انتقائية من غدارته، كتمت أنفاس الأم والأب والطفلة هديل معاً، بعد أن كتمت أنفاسهم رصاصاته دون رافة، تزامنت مع صرخة عبير بكل ما لها من طاقة لالالالالالالالال... ثم صمتت صمتها الأخير.

دوي الإطلاقات أنهك فكر عبير، بعد أن انتهك جدار الصمت قعقة البنادق وأزيز الرصاص المطلق على أمها وأبيها وأختها، عندها صرخت صرختها الأخيرة مع جلجلة بندقية ستيفن... صرخة ألم خرجت معها الروح، أفقدتها شعورها وإحساسها بالحياة، أضحت كدمية تتقاذفها الأيدي وهي تغتصب بغل دون شعور، حيث فقدت وعيها تماماً..

لم يبق من العائلة المغدورة سوى احمد الذي أنقذته الصدفة بذهابه لبيت عمه، ومحمد التلميذ في الرابع الابتدائي الذي لازال لم يعد من مدرسته..

بينما أنشغل ستيفن في معالجة أمر الوالدين؛ أنشغل رفاقه في معالجة أمر عبير، جرداها من ملابسها تماماً، شرعا

باغتصابها وهي شبه فاقدة الوعي، حاولت منع نفسها لكنها خارت قواها بين أياديهم، لم تقوى برهاقتها على مواجهة الوحوش، لم تعد تتلأأ في ظل هممتها وهي ترتجف تحت أقدامهم كالطير المذبوح.. مزقا زيق الثوب، فيما الآخر جردها من لباسها الداخلي، كان الأول قد التمس عنجرة صدرها الرائقة والمكورة حديثا بحسن الصبا، غاصت أنامله بتلك الطراوة التي تنعم بها جسدها، عبث بريان صدرها، فيما جار الآخر يضرب مارق منها، يلفع ويحضن ويشم وردتها بين فخذها قبل قطافها.

بعد أن أنهى من سفح الوالدين، توجه ستيفن لسرقة جمانتها، ليأخذ حصته من جسدها المسجي والتي أدلته به. كان قد عزم على الإيلاج بها تحت حالة الإغماء المكلة بها.... كان أحدهم قد أرتمى على شفتها، كدبور يمتص رحيق رضاها، معلقا يداها خلف قفاها، حيث لاك شفاهه القذرة برهافة شفاهها، تحت سفح الدموع وسمط الفزع الذي ملأ وجهها القمري، كحالة الغبار التي تطفح في الأجواء وهي تعزل السماء عن الأرض، أنجس ضياء وجهها في ظلام شكله ونيتة القبيحة..

بانوا بحقيقة وجوههم الشيطانية بيتسمون تحت نشوة السكر والعريضة، غير أبهين بحالها، وبما يحيط بها من نزق وفج عميق افتعلوه في جسدها، غير مبالين بضعفها وحادثة سننها، أغرتهم نشوة تجريدها من ميزاتها وكراماتها وشرفها وحسنها وجمالها.

ساد العبث، طغت الوحشية والسادية على المشهد، أضحوا لا يرون شيئاً سوى ذلك الانتشاء اللابد بذلك الجسد المطروح أمامهم، سوى إذلال هؤلاء المساكين وتجريدهم من الحياة دون ذنب، تحت وقع نشوة الخمر والهزر والهزل والسخط والعريضة. تهجس بهم يتشربون خمرة من ينابيع جسدها البض، الخامل، بعد أن استسلمت لعبثية القدر دون إرادة. وجدوا في ثناياها الرقيقة الناعمة الغرة الغاية المنشودة والقرار المُسن، كأنهم عثروا على كنز سليمان المفقود بانتقامهم منها. عرفوا من الخد رونقها وعطرها، ومن الشفاه زبدها وبهجتها، ومن الثدي سحرها وخمرتها، ومن الجمانة روحها وشواظها..

ما أن ولج بها الأول حتى افتقدت وعيها تماماً، أصابتها الهستيريا. ما أن كش عن وجهها حتى راودها الثاني بذات الغل والمزاج، زج في عينيها ظلال العمش، أخذاً نصيبه ودوره من الجسد المسجى على طنفسة خضراء، وقبل أن ينهي دوره حل ستيفن على رأسه ليستل من ثناياها الميتة بهجته، ليمسك بتلك الرغبة الصماء الجاثمة على قلبه، أستل دوره وأطفأ في فمها نار سيجارته، عبث بثناياها، أستلذ بقضم تفاحتها.

هكذا جعلوا رقتها ترتق تحت عضلات أجسادهم القوية، تهدل بهدل روحها الأبية، ما عادت تشعر بمحيطها سوى بقلب يشترط أنفاسه دون إرادتها، تهجس بها كدمية جذابة سلبت منها جاذبيتها وقتنتها، حيث بردت حرارتها تماماً بين أياديهم، أضحت كقطعة الثلج.

ما أن أستلوا رغباتهم الجنسية، حتى عاد ستيفن ليغتصبها مرة أخرى، طالما النشوة وعريدة السكر مشتطة بفكره، كأنه جاء لينتقم منها، توافيا مع تلك الأيام التي أذلته ورفاقه بعفتها وعفويتها، حين لم يجدوا لمعاكساتهم وتحرشاتهم صدى في أجوائها.

كانت لا تبالي بهم وهم يستغيثون بفتنتها، يحاولون أن يغرفوا من فرات سحرها رشفة، ليشبعوا ظمأ أعينهم وتطلعاتهم الشبهة. ما أن افتقدت مقاومتها مع لحظة الوثوب على صدرها وتمزيق زيق ثوبها المخملي، لم تعد ترى شيئاً مما يحيط بها، لم تعد لها قوة تدافع بها عن نفسها، سوى مفاتن جسدها البضة وصوت آلامها المخنوق في صدرها، سوى توسلات رائبة في نظرات عينيها الغائرة في بحر من اليأس والسكوت والحيرة.

كانت قد توسلت بهم بشهقة الأنفاس بعد أن أخرس لسانها، بعد أن شل وكتم حسها في هوة عذابات النفس، جردها الخوف من الحركة تماماً، بان رخام الجسد الفضي يتلأأ تحت انعكاسات وتداخلات الهباء عبر نوافذ البيت بسلسلة انعكاسات متداخلة تنعكس بعيون المجرمين من على جسدها، ضوء ناعس يتجلى من خلال الزجاج والفتحات والثلث بين القضبان، وما يخترق الستائر الشفافة. ما أن يسقط الضوء على صدرها ووجها حتى تتوهج كشمعة الأعياد، وكأنها تستل زيتها من سحر ثنايا ذلك الجسد البض، فيثار ضوع العطر من الطراوة التي ترتديها، فينتشي المسك والنور في أنفاس وأعين الضباع الجائعة..

ما أنْ لمع صدرها الضامر وهو يعكس هباء الأشعة المشاعة؛
حتى أرتمى أحدهم عليها، ظل يلحق بفرات ذلك الألق المسيل.
تلك الأشعة أسبرت غور المفاتن، سنفرت بشرتها من دجنة
الظلمة المحيطة بها، فبانَتْ وكأنها مرآة سحر عاكسة، مكسورة
تحت جناح الخوف والرعب الكابد عليها. كصفحة معدنية
مطعوجة بالألم، مُطروقة بمطارق الوجل والفرع، غارقة
بسيل دموعها وبصمت صراخها المحبوب داخل انفاسها،
والقابع في نظرات عينيها وثنايا وجهها.

تلك الحالة نقلتها لعصفها الأخير، أضحت ترقص بين أياديهم
رقصتها الأخيرة، لشدة الرجفة التي ارتعشت بها اعضائها،
اهتزت مفاصلها.. لازمتها رجفة هستيرية، جثمت في
أطرافها، اخترقت ثنايا فكرها، حاولت أن تقاومهم بلسانها،
بنظرات عينيها، دون أن تتمكن، دون أن تغير شيئاً من شكل
القرار اللابد في عقولهم، ولا أن تزيح الجبل القابع على
صدرها. أضحت الدموع تنهال، ينابيع تتفجر من محاجرها،
برد ينهمر على الخد الناصع والصدر المكتنز، غسل وجهها
البض بالنار المسكوب من هواجسها، بانَتْ كورق الخريف
المتعلقة بشجرة الحياة، غائرة بصفرة ودكنة الأجواء الميتة.

مع إطلاقات ستيفن صرخت صرختها الأخيرة، لالالالالال....

لم يصل صوتها حدود شذقيها، بقيت محبوسة الأنفاس، مقيدة،
دخلت مرحلة الشيزوفرانيا والهستيريا، لم تقاوم موج الالم
الهادر، ذبلت قواها أمام عنفوان المد الذي اجتاح عالمها. لم

تستطع منعهم من قراءة آيات جسدها البض، لم يرأفوا بنحولها وصغر سننها، ولا ببراءتها. بعثروا أحرف الحسن بين أقدام الغاية والغواية المسمومة، قيدوها بقبضاتهم القوية وبالرعب والهم والغم. طفح الارتباك ولون الجزع على وجهها كالتهاب الحصابة في الجسد، حتى تراخت قواها واضمحل عزمها تماما، صارت أحرف الحسن تتكسر وتتساقط عن ثغر معانيها كأوراق الشجر، حتى تعرت منه كتغر أدرد، بعد أن محو عنها حركاتها وفواصل سماتها ونقاط صفاتها.

أمام شراسة الذئاب أفتقد الحمل طاقته، جردوا الإنسانية من معانيها، لم يتركوا مجالا لفريستهم تنجو أو تنوء في ظل العجز الذي أصابها. كانت تدرك بأنها لن تفلت من قبضتهم ولا ينقذها النياح والطفولة من عصف القسوة التي جاءوا بها، حتى أمتزج غبار الخوف في بلسم الحسن، ليطفح فوق الوجه بلون شاحب بنحيب الأسى. غلبها الحزن والأنين وهي تتقلب على نار هادئة كشريحة لحم تقدد بنار العذاب، تكاد لا تسمع من اللغط سوى أنين صوت خافت يخزق رقائق ذلك الحسن، كصوت ريح ينفث عبر سفائف الشجر، مطروحة على الأرض.

مع كل تلك الصور الأليمة؛ لم تستطع منع طوفان الحقد الجارف الذي أجتاح عالمها، لا بالتوسل ولا بالتمني ولا بالرجاء.. اكتسحوا حواجزها وأسوارها وقلاعها بغل أسود، كسيل جارف لا يقف أمامه شيء.

كانت لرائحة الخمرة الطافحة في الأشداق سطوة على أريج الأنوثة، مما جعلت الرحمة تغص بالأنفاس الأسنة، لقد التمست جماع انفسهم و تنتن قرفهم ونظرات أعينهم الوقحة... ما زاد من شجنها وهممة ألمها الحسي والنفسي، جراء الجريمة البشعة التي أودت بوالديها وأختها، فأنغمس الشجن بالعويل والصراخ والبكاء والرجاء، حتى افتقدت صوابها، حتى صمتت وأخرست بين أياديهم كدمية بلا روح.

تهجس بمفاتها وهي تتلألأ بين أياديهم كفوانيس حزينة تجهد في ظلمة ليالها الأدهم. لقد أنهوا تلك الفذلكة من الجدل بين الشبق والغريزة والحساب القديم، التمسوا العناء فوق ذلك الجسد البض دون أن ينتقموا سوى من أنفسهم.

وبعد أن أنهوا مرحلة اغتصاب الفتاة المرمورة، جاءت مرحلة الانتقام الأخير، لتُلحَق بركب ذويها. حيث غالوا في طفق السادية التي جاءوا بها حتى شرعوا أشرعة إلحاد جديدة تظفر بقيم الدين والإنسانية.. لقد قام ستيفن غرين بتهشيم صدرها بطوب (ببلوكة) موضوع قرب الباب الخارجي، ومن ثم قلب الكنبه الخشبية على صدرها وأضرم النار في ثيابها والبيت كله ليظمر أثار الجريمة الشنعاء التي افتعلوها بفتح قنينة الغاز في المطبخ.

ظنوا بتنكرهم وارتدائهم اللباس العربي من الممكن إلصاق التهمة بالفوضى الدائرة في الشارع بين الطوائف المشاعة.. لكن أهل القرية حددوا المجرم، ميزوهم، شخصوا المتكرين

وأبلغوا مركز شرطة المحمودية والإعلام والصحافة التي ترددت في فضح أساليبهم القذرة.

بعد أن أتموا جريمتهم كانوا قد رشقوا بقرتهم المربوطة خارج المنزل بصالية لتجثو هي الأخرى على الأرض، بعد أن أخذ الدخان يتصاعد من النوافذ....

كان لصوت الإطلاقات دور في أنتباه أهل القصبة لما حدث، تصاعد الدخان من النوافذ، أعطى إشارة لأهل القرية لنجدتهم، فهبوا مسرعين لنجدة قاسم وعائلته، وحين وصلوا للدار صدموا بتواجد قوات المارينز قرب موقع الحدث، وهم يشيرون إلى اللباس العربي المرمي خارج أرجاء البيت.

لكن أهل القرية حضوا فرية الرواية وفندوها، لأن العائلة في الأصل هي من الطائفة السنية، وغالبية أهل المنطقة من الطائفة السنية والكثير منهم يعمل بالخفاء مع شلة المقاومة، يدركون خفايا الأمور وفصائل المقاومة المنتشرة في المنطقة، ولهم فكرة عن التشكيلات المعارضة إذا ما سلمنا أن بعض شباب القرية هم فعلا ينتمون لفصائل المقاومة "فأهل مكة أدرى بشعابها".

كان ستيفن قد استغل انفجار الليلة الأنفة كحجة وذريعة ليقنع زملائه بالاشتراك معه في العملية، لينتقم من الفتاة وذويها تحت بند الدفاع عن النفس، وقد بين لرفقائه عن سر تواجدهم في العراق لا لفرض الأمن، قدر تأجيج الفوضى والقتل واغتصاب الفتيات وإذلال العرب المسلمين.. وكانوا على تلك

التصرفات ينالون تشجيعا من قادتهم باعترافهم، وقد شهد بذلك عددا منهم لاحقا مثلما اسلفنا من خلال اعترافاتهم في مواقع أخرى وفي محاكم أمريكا- وقد عُرضت تلك الاعترافات على مواقع التواصل الاجتماعي واليوتيوب، سجلها الجنود والضباط بعد أن عادوا لرشد هم ووعيمهم وندمهم.

الحقد الجاثم في قلوبهم تمثل لهم كثعبان يثير حفيظهم، بحيث بين فترة وأخرى تسم ابدانهم فينزلقون بأعمالهم القبيحة نحو الهوة. كان لسكرهم وعربدتهم غاية في نفس يعقوب، بحيث أذا ما أكتشف أمرهم وتم التحقيق معهم؛ ستكون في أيديهم حجة غيابهم عن الوعي، على اعتبار الجريمة وقعت تحت تأثير الخمرة، فتخفف العقوبة والقصاص عليهم.. أو تسن تحت بند الدفاع عن النفس، وتلك كليشة تتمسك بها محاكمهم الأمريكية، دفاعا عن أبنائهم.

بعد أن أتموا جريمتهم وقبل أن يهملوا بالخروج من البيت، كانوا قد عبثوا بمحتويات البيت وموجوداته من حلي وجواهر والأموال سرقت من الدار، سرقوا الاشياء الثمينة بعد أن قطفوا زهرة السوسن.

انسحبوا إلى ثكنتهم تاركين الكارثة تتقعقع بين السنة رجال القرية، الجريمة وقعت في وضح النهار، أي أنهم كانوا مكشوفين للناس، لكن سلوكهم العبثي النعامي لم يشفع لهم، بعد أن دفنوا رؤوسهم في الرمل.



المجرمون القتلة

الفصل الرابع

1- وصول أحمد

بحدود الواحدة ظهرا، قرر أحمد العودة للقرية بعد أن أجبره عمه على التأخر حتى فترة الغداء، لتجنب أنشطة العابثين بحياة الناس، وليكرمه بوجبة الغداء. حينها كانت الجريمة قد اكتملت فصولها تماما على أيدي الجناة، وكانت القرية وناحية اليوسفية وقضاء المحمودية علموا بواقع الجريمة فالتم عدد كبير منهم قرب دار قاسم.

كان أحمد قد تأخر قرابة ساعة في مرأب الدورة؛ حتى تمكن عمه من أن يرفقه بشاحنة لوري قلاب متجهة إلى المحمودية مع شلة من المسافرين، ليدرك أخيرا قرابتهم قرابة الساعة الثانية والنصف. قلة العجلات يعود لقلّة البترول وخطورة الطريق والأزمة الطائفية التي اشتد وتيرها..

خلال عودته عاد منتشأ، جذلاً، مسرورا، بعد أن تطمأن على سلامة عمه وأولاده، لكنه عاد مشغول البال بما رأت عيناه من مناظر لا تسر.. رغم بشاعة المناظر التي تركت أثرا نفسيا عميقا في صدره، إلا أنه خلال عودته للقرية هجس بسرور وغفوية بعودته لحضن عائلته، لارتباطه الوثيق بهم وبالذات بأخته عبير التي لم يفارقها من قبل. كان يشعر بتلهف لملاقاة والديه، هجس بأن حياته دونهم جفاء، لا طعم فيها ولا لذة.

ذلك الشعور سطا على فكره، أزاح صور الدمار عن ذهنه لفترة وجيزة، أخذه الخيال للحظات حلوة مرت على باله، كش

ملل الطريق بها عن نفسه، جنح بذاكرته نحو مواقف شتى عابرة جمعته بذويه مرت كشريط سينمائي، التمس طيف أخته الجميلة وهي ترهف بملاقاته، تذكر لحظات جني الحبوب في وقت الحصاد وهم يجهدون كعصبة، يمرحون في نشوة اندفاع وغناء وتهليل نحو إتمام العمل عند الأصيل. تذكر لحظات المجادلة الصاخبة معها في مادة الرياضيات حين أصرت على صحة برهانها لمسألة كان قد أخطأ في حلها، كيف خرجت من تحديه جذلة، واثقة من نفسها بصحة إثباتاتها. تذكر ابتسامه وكركرة أخته هديل حين يداعبها في أوقات فراغه وهم يركضون خلف طيور الغربان لـ كشفها عن البقعة المزروعة، وبالذات حين يحملها وهي تعانقه وتقبله، تذكر قلق أمه عليه والحزن الجاثم بين عيني والده الذي كتم همه في داخله. مرت تلك الأحداث على باله سريعاً وهو يقلب تلك الصور، كأن نسمة الصبح حركت زغب مشاعره عن جمودها في تركة الصور البشعة التي شاهدها بمنطقة الميكانيك.

وهو يتأرجح في قفازة شاحنة القلاب أنقفز عن سرحانه، هزه الشوق ليكون بين ذويه على الرغم من أنه لم يبتعد عنهم سوى ليلة واحدة، لأنه لم يبتعد عنهم فيما سبق ثم ادراكه لخطورة الظرف. لذا هجس بحبور يغشيه لملاقاة عبيير، أسفر عن وجه بهيج، زاد ضراعة وتحناناً لسماع هيصة أخوته، وهو يسمع لغط أصواتهم تختلج في مخيخه كإحياء منهم يحثونه بالإسراع على العودة. انتابته لحظات غريبة، تاه في مستهلها، شدته للحظة اللقاء.. لحظات انتبذت دون جهد،

صورت له هالة الخوف الكامنة في نظرات والديه في لحظة وداعه، ذكرته بجل توصيات الوالدين، كانت لحظة نشيج ورجاء، حين قالت له أمه وهي في حالة وجل وقلق لحظة وداعه:....

- يا بني لا تثق بأي شخص غريب في الطريق مهما كان ورعاً، تمعن في الأمور جيداً، لا تجادل غريباً، فأنت لا تعرف معادن الناس، كن كتوماً، راقب محيطك بعين الصقر، كن هادئاً تسلم، الناس في هذا الزمن في حالة ولادة جديدة، تغير جلدها مع تغير الظرف، تبحث عن قوتها ومصالحتها فقط، لا تبالي بالغير ولا بالأمان، بل البعض أفقد إنسانيته تماماً.

هجس بتوصيتها كتوصيات لقمان وهو يلقي ابنه. ذلك ما حزن الشوق في نفسه، لذا عاد بلهفة وفي سلاته تتلألأ أعناب وجده وصبابته بقاء أحبته.

وما أن نزل من عربة الشاحنة بعد وصولها حدود قصبة قرييته؛ حتى تغيرت ملامح وجهه، انقلبت تلك البهجة والرغبة واللهفة التي شغلته إلى غم وجههم وخوف سطى على وجهه، انبعجت صورة ملامحه، راغ شك في ذهنه نتيجة التجمهر غريب لاح نظره عن بعد. حينها تساءل مع نفسه وهو في حيرة من أمره:.....

- ترى؛ ما ذاك التجمهر قرب المنزل الذي يتراءى لي، حالة أزمة ما تعصف بالقرية؟

استر يا رب، الناس متجمهرة قرب دارنا....

لا زالت المسافة بعيدة، تمنعه من أن يبدي حكمه ويقينه، تمنعه من أن يستوضح الأمور، لا زال واقفاً على حدود الظن قرب حدود الشارع العام عند نزوله من عجلة اللوري. هذا التجمهر قلب مزاجه، هجس بخيفة في أعماقه، وهو يدرك نية العدو. جمهرة غير طبيعية، تتحدث عن نفسها، فهي لا تحدث إلا حين تحين المصائب أو الأفراح، وهذا الزمن ليس زمن فرح قط.

عندما دقق في المكان مع تقدم خطواته، لاحظ شرخاً قد طرأ في جدار سياج البيت الحيوانات الخارجي المبني من طوب اللبن، سقط جزءاً منه نتيجة اصطدام عجلة الهمر المدرعة به.. ذلك ما زاده خوفاً وقلقا وشكاً بأن أمرٍ جليلٍ ما قد حصل!!! لربما تعرضوا لسقوط قذيفة ما أو مdahمة ليلية.. ولا أظن أن تصل بهم السفالة والوقاحة بأن يتجرؤوا على مdahمة البيت..

بدأ الشك يكبر في ظنه مع اقتراب خطواته من المنزل، بات الشك يتلملح كلغز في فكره مع تلملح الرعشة في أطرافه، دون أن يفصح الحدث عن سره. تراء له المشهد كرقائق معدنية تعكس أضواء الظن السيء وبشيء من البداة، مع تلك الجمهرة المتضعضة بات يلتمس حرارة الأجواء المائلة أمامه من النظرة المتكهربة، الأمر يبدو كبيدر تبين تناثرت أجزاءه بفعل الريح، لذا تجد الجمع منشغلين بالمشهد. فالأمور لا تسر، كلما أقترب خطوة زادت الصورة وضوحاً وتوهجاً ودخاناً...

مع رنين الشك صارت أقدامه تتثاقل وهي تعق في خطواتها، حيث غدت لا تحتمل وزره في تلك المسافة الباقية.. دبت الرعشة في مفاصل الجسد، أضحى لا يصبر على العناء الذي أصابه، ظلت الصورة مشوشة في الحلق، تتقلب كسراب مغنج بظلال الأحراش والحشائش المرتفعة، متكورة بخيوط الشمس المستطيرة في جوف النهار.

كان عليه أن يسلك طريقا آمنا مبتعدا عن رؤى نقطة التفتيش لجنود المارينز، كي لا يعرض نفسه للمساءلة والخطر. كي لا يواجه غدرهم وتبجحهم، كل شيء جائز وممكن يصدر عن هؤلاء الجبناء كردة فعل جراء اقترابه من الثكنة، حيث القتل هو أسهل الحلول الناجعة عندهم لينجوا ذواتهم من الخطر..

هذا ما دعاه ينزل بعيدا عن حدود نقطة السيطرة، في بقعة تعودوا أهل القرية النزول بها تجنباً للاحتكاك بهؤلاء السفلة. حيث الدار ونقطة التفتيش والبقعة التي نزل بها تعد أشبه برؤوس مثلث متساوي الأضلاع..

ما أن نزل من عجلة اللوري؛ حتى سار بحذر بمحاذات التربة في درب السابلة الترابي، الذي يخترق المزارع بين الأعشاب والخضرة بخط مستقيم، تلك المتدرجة ألوانها بتدرج الفصول بين الدكنة المائجة بالخضرة وبهاء منغمس بالألوان الربيعية وجلد سيقان القصب وورس الزعفران المبتوث والورود البهيجة والعشب الطافح. ماض بخط مستقيم، عابرا تكتلات القصب والبردي الدارجة مع جداول السقي، والسابحة بأثير

أريج الزهور ونسائم الريح، هاجسا بخشخشة الرعب وتقلبات
الهواجس والظن في ذهنه. أضحى صوت يقينه يتكسر
كخشخشة أصوات تكسر القصب تحت قدميه، يخيفه، يحذره
من قبح القدر وفحیح الثعابين المختبئة في صدره، تلك
الرابضة بين دهاليز الفكر وصدى الظن الرائج.

ظلت تلك الحيرة الصماء تلج بين السن الصبر وبين الحشا
والرجاء، فتدب في بدنه شيء من الخوف والجزع... المروج
مننشة من حوله، مترامية مع حدود الشارع، تعيق من سرعة
جريه، فلا تجد وسيلة استقبال مرموقة له، أفضل من أن
تترافق أمامه مع النسائم المنعشة مرحبة بقدميه، فتبعث في
نفسه نغمة صبر ورجاء أمل، عسى غيئها يجزل وجله خيرا،
ويرفق صبره سلاما.

هكذا تجاوز مسافة الطريق بعناء وصبر مهزوز..

ما أن دخل حيز الأرض الزراعية الفاصلة بينه وبين حدود
الدار، وهو يتأمل خيرا من ذلك التجمع المائل قرب منزلهم
حتى بات يسرع الخطى أكثر فأكثر؛ مع اقترابه من التجمع
شده منظر سقوط الجدار الطيني الذي أوقف قلبه بالفزع، ما
جعل الارتعاش والارتباك يسيطر على تفكيره، لم يسبق أن
رأى منظرا بهذا الاهتمام من قبل أهل القرية، اشتطت نبضات
قلبه، هجس بانقباض في صدره، تذكر شكوى أخته من
تحرشات جند المارينز بها، صار يردد مع نفسه عبارة:...

- يا رب أستر.. يا رب أستر، انت أرحم الراحمين.

تقيد بصمت وحيرة نحو وكر الشك والسكون، لصم شروده
وعبثية الفكرة النافذة في ذهنه، أنصب فكره في محاولة تفسير
ما تراه عينيه دون أن يستطيع أن يمسك برأس الخيط، فرطت
مسبحة عقدة تفكيره، شنت الذهن، صار لا يستقر على أثاف
صبره وهو يستقرأ المشهد. صار يرتق الظن بالظن والشك
باليقين وهو يتنقل بين تفسيراته من رقعة لأخرى بوجل
وعناء، ناط على حجر الحيرة وانزواء الفكرة الدائرة بذهنه،
بين مصدق لتلك التكهّنات والتهيوّات الواضحة أمامه ومشكك
بها.

عبثا حاول أن يمسك بتلابيب رجاءه، عبثا حاول أن يتسلق
جدار صبره بفكره الناطط المشتت، صارت خطواته تستل من
قبضة الفلق عنوة، لحالة الارتباك التي داهمته. باتت ترتطم
الساق بالساق بالأرض المعفرة الغير مستوية، تعثر عدة
مرات، سقط بساقية عريضة على وجهه، تطينت ملابسه، شد
من وزره محاولا فك قيده من همجية الظن التي لازمته، متجها
نحو الجمع والخوف ينسل في جسده كالعرق يتصيب من
جبينه، مرتعبا من هول المصيبة إن جاز وقعها، جازما من أن
سوءا ما قد حل بأهله.

في قرارة نفسه كان مصعوقا، قدماه لا تجاري روحه التي
سبقتة ورجاء نفسه التي جارتها، رغم أنها باتت تطير به فوق
بساط العشب، لشدة عصفها وتهيجها، لسرعة حركاتها، حيث
بهت بالمنظر المرء بذهنه وعينه الواجفة، من أن هناك أمر
جلل طارئ يفوق حدود الشك والطاقة والتصور، قابع خلف

ذلك التجمهر، مما أجبر هؤلاء الشلة على التجمع دون إنذار مسبق. صار يدعو الله:....

- يا رب أستر.

خلال اقترابه من حدود الدار لمح صديقه أسعد يهرع إليه، أخذته أقدامه تتسلق المسافة بخطوات تسبق خطوات صاحبه، وما أن أدركه أسعد حتى أرتمى على صدره، مولولا، باكيا بحرقة، أحتضنه بذراعيه، عاجزا أن ينزع من على كتفه حقيبة أخباره وهمومه، سقط بين التيه ووحل الألم، بين رغبة أخباره بالفاجعة وبين ثقل لسانه الذي أخرس فاهه.. عاطفته دفعته ليكون أول مستقبليه دون وعي، عشقه لعبير كتم أنفاسه، لصم فاهه، قيده الحزن على ما نالته عبير على يد الكفرة المجرمين.

أحيانا الإنسان يتصرف بشيء من الرعونة العمياء دون وعي حين يصاب بكارثة. قد يكون مندفعاً بفعل طاقة داخلية عمياء تود إخراجهم من طوق العناء الذي يقيد ويربكه، لذا يلزمه دافع الشرود ليكون مجازفا في حقل العقد. ما شده أن يهرع إليه، صداقته الحميمة لأحمد، وشغفه بمحبة أخته عبير.

سر اندفاعه المفاجئ بوجهه البائس ودموعه المترقرقة في محجر العينين، كانت نتيجة نجوى محبوسة في صدره وجوى مختزل في قلبه جراء الفاجعة الأليمة.. ذلك العنف ولد في صدره صرخة صماء أفقدته صوابه، ود أن يطلقها أمام الملاء

لولا الحياء الذي يمنعه. حينها عرف أحمد من خلال تجهم وجه صاحبه بأن الظن السيء قد وقع وأودى بأهله.

وما أن أنتبه أبو مريم على قدوم أحمد حتى هرع خلف أسعد يتبع فراسته مناديا عليه.

- يا أسعد، يا أسعد، تريث، لا تنهز، لا تفقد أعصابك، أهدأ.

كان أسعد قد سبق أبو مريم، لكن مناداته ورجائه وصلت إليه، سمع هاجس أبو مريم يحذره فألتزم الصمت وهو يتجه نحو عناق أحمد. وحين دنا منه ازداد أحمد رعبا وهو يشهد صديقه متضعع أمامه، خائر القوى.. حينها أفتقد أعصابه، هجس بأن حاجزا ما حال بينه وبين صديقه.

أمر صعب عليه قراءة سطور، مزقت صورة البشاشة المعهودة في وجه صاحبه. صورته الكئيبة أزرت الفكرة المشينة التي راغت في فكره.

ما أن أحتضن رفيقه أسعد حتى هز كتفيه مستفسرا.

- ما بك يا أسعد؟ قل لي ما وراك؟ ماذا جرى لأهلي؟

تكلم، أفصح، لم الدموع تترقرق في محاجر عينيك؟ هيا تكلم، أمكروه حل بأهلي؟..

- لا لا.... لكن مكروها حل بي أنا.

في تلك اللحظة كان قد أدركه أبو مريم، وقال له.

- تعال يا أحمد هناك أمرا جليا يخصك، كن رجلا، لا تدع الأمور تتعقد وتفلت من قبضتنا.
- ماذا تقصد يا عم؟ ما ورائك؟ أين أبي؟
- عليك أن تصبر، سأشرح لك الأمر ونحن سنعضدك.

توضحت الأمور، الحيرة تعاظمت في صدره من خلال الأجوبة المبهمة، وكان عددا من رجال القرية قد تبعوا أبو مريم، حيث الوجوه واجمة، ناشفة، عبوسة، معسورة، كئيبة، يملئها عصف حيرة بلهاء، محصورة بنقمة الغضب، يشع منها ألف علامة من علامات الاستفهام، وجوه منهارة، يشهد عليها الوجوم المتراكم والحيف المراق في الوجوه كالدموع.. ألتفت إلى أسعد سائلا إياه بعصبية...

- يا أسعد ماذا جرى لأهلي؟ أخبرني، ما هي المشكلة؟
- أشهر ببنانه إلى البيت دون أن ينبس بشفة، دل بما معنى أدخل وأنظر بنفسك.. وقبل أن يدخل البيت قال له أبو مريم مع جمهر من أهل القرية وهم يشدون عضده ويحتضنوه..
- أصبر يا أبني، الصدمة شديدة لا تحتمل، جنود المارينز داهموا داركم.
- ماذا؟...وماذا جرى؟
- لا تنهزور ربما أن سمعوا بك حيا يقتلك أنت أيضا، دعنا نوصل الخبر للمسؤولين.
- لالا لا.....صرخ صرخته المدوية، عن أي مسؤول تتكلم يا عم؟ قتلوا أهلي؟

صار يبكي، يعيط، يولول، يجهش بالبكاء، محاولاً أن يدخل للبيت ليرى بأم عينه حجم الكارثة، لكنه أنهار قبل أن يدخل.. أفتقد وعيه على محراب البيت، حينها رش صالح على وجهه قليلاً من الماء، استعاد على أثره أنفاسه وهو يشهق بالبكاء.

كان أبو مريم قد أصر على أن يرى أحمد الكارثة بأم عينه مناقضاً آراء أهل القرية، فيما كان يؤيده بذلك العم جبار وأبنة صالح وثامر، لأنه أراد بذلك زرع مبدأ الثأر في نفسية الطفل.

لم يفك ذراعيه، بقي متمسكاً به، من الجهة الثانية ظل يسنده صالح وثامر. على تلك الشاكلة أدخلاه البيت وهما يحتضنانه لألا ينهار مرة أخرى ويفتقد صوابه، شاهد ما شاهد بأم عينيه من آثار قتل وحرق ودماء تغرق أرضية البيت وهو شبه مشلول بين أياديهم، محمول بالأذرع من إبطيه، بعين أصابها العمش شاهد أثر الحقد والبغض الذي كُنَّ لأهله من قبل تلك الزمرة العفنة، شاهد سخام الحريق وأثر انبعاج الباب الخارجي نتيجة الرفس، دماء مسفوكة، جثث مسجاة، صار يصرخ بأعلى صوته وبحرقة وهو يرتمي على جثث أهله والديه وخواته.

- لا يا كلاب قتلوا أهلي... بابا، ماما، هديل، عبير ردوا عليّ، يا الله ساعدني، الله وأكبر.

وما أن دخل للصالة حتى وجد أخته عبير مضرجة بدمائها ممددة على الأرض وآثار الحريق شوه جزء من الجثة والبيت. ما أن كشف الغطاء عن وجهها؛ حتى أرتعب من بشاعة

المنظر الذي لحق بها، والحريق الذي شوهها، صار يصرخ بأعلى صوته:....

- لالالا.

صرخة خرجت من أعماق الألم أفقدته وعيه.

- يا كلاب، يا قتلة، سأستاف منكم.

ثم أنهار وضاق تنفسه، فقد صوابه ووعيه، ضاقت به الدنيا، شعر بدوار نقله لعالم آخر غير عالمه، عالم الضياع والوحدة، والتشرد، بات لا يشعر بذاته.

صار يخضع لعمليات تنفس والتي لا يجيدونها، ولكنه عاد لوعيه مرة أخرى بعد دقائق من فقدانه وعيه وهو يبكي بعد أن سكب على وجهه قليلا من الماء البارد مع تهوية وجهه بدفتر وجد مرمي في الصالة..

كان أبو حازم (جاره الأخر) قد لام أبو مريم على السماح لأحمد بمشاهدة أثر الجريمة وهو طفل لا يحتمل تلك البشاعة، إلا أن أبو مريم وضع له غرضه من ذلك، قائلا له:....

- يا نعيم؛ أحمد أصبح رجلا، ويجب عليه أن يتحمل مسؤولية أهله، أدخلته للدار ليشاهد بأم عينيه أثر الجريمة كي لا ينسى من قتلهم، كي ينتقم لأهله مستقبلا، نعم أنه صغير ولا يحتمل الجلد، قد ينهار وقد يفقد أعصابه... لكنه واع، وتلك مرحلة قد مرت عليه

وعليها، فعليه أن يتجاوزها ويفكر بالمنطق وبالفعل القادم، علينا أن نسند ونفكر معه، ربما سيكون غدا الدور عليك أو عليّ، لازال في العمر بقي، هذه الحياة اخذ وعطاء، وقد أفتقد أهله اليوم وعليه أن يأخذ بثأرهم غدا. الله أبقاه في الحياة لينتقم من الجناة، كلنا سنموت غدا، أن لم يرَ أثر الجريمة بعينه قد يلين عزمه ويلين صبره، ومن ثم تضعف قدرته، لذلك أدخلته البيت.

- أحسنت الفعل لم تخطر ببالي تلك الفكرة، وأناي مجرد خائف عليه من الجنون..

- سيجن إن لم يرَ بعينه الحالة التي خسر بها كل شيء، لم يبقَ له شيء في الدنيا ذا قيمة. أضحي سجين الزمن، لا بد أن يفك قيده بذاته.. أن كان له هدف سام سيقاوم مرحلة الجنون حتى ينال هدفه، سيأخذ بثأره، سيتبع هدفه مهما طال الزمن.

كانت الصدمة قوية بحيث أنهار وأفتقد وعيه لـ ثوانٍ معدودة وهو واقف في الصالة، فلولا أبو مريم وأهل القرية المتجمعين حوله والذين ساندوه لوقع على وجهه، ولكن أهل القرية وبالذات أبو مريم وصالح وثامر وحازم ونعيم وفراس وأبو فراس ووووالخ وقفوا سندا له، أزروه، سايروه لم يتخلوا عنه لحظة واحدة. بل الجميع شدوا من أزروه ووعدوه بالانتقام من الجناة. كان بينهم مجموعة من أهل اليوسفية والمحمودية النشامى الذين جاءوا يستقصون الحقيقة.

لقد وجد صدرا رحبا من الجميع، وبالذات من العم جبار الذي يجله كثيرا ويحترمه... بعد أن استعاد وعيه، أستعاد أنينه بصوت أجش، صار ينعى والديه وخواته. كان قد تسمر في مكانه حين وقعت عيناه على الجثث المسجاة، شعر بثقل في لسانه، لا يعلم كيف خرجت منه صرخة لا إرادية—لالالالالا يا مجرمين، بابا، ماما، وا أختاه – شرخت صدر السماء.

أرتد إليه صداه هازٍ بدنه، ارتعشت أطرافه، اصطكت أسنانه، أسودة الدنيا بأسرها بعينيه. ردد السكون والجدران صدى ذلك الصوت الزلزلي الذي أفقده صوابه، لتصل مناجاته طبقات السموات عبر خيوط الشمس الأثيرية، هناك كانت قد سمعته الملائكة والقرية والطيور الطائفة وأرواح ذويه.

أضحى في ضياع، كأنه يركض في متاهة لا تنتهي، في دوامة من سدم العذاب، تدور به وتعيده لموضعه، غائرا في بحر من التيه. مفتقدا الأنا، متجردا من الروح التي صارت تهرب من يديه لحظة وعيه، لتعود إليه بجنون لحظة شروده.

طفقت نظرات عينيه تغور في الوجوه الملتفة حوله، ود انتشال ذاته من الصخب الدائر به بهمة أهل القرية، كأنه كان يترقب حلا سريعا في وجوه الوجهاء الذين أضحت زمام الأمور بأياديهم.

صار يشعر بالوجوه كأنها غريبة عنه، للجفوة التي أغرقت بها السنتهم، والتي تبجحت بالصبر رغم الصدمة، حيث اختلت توازنها، لضعفها ولعدم امتلاكها حلولا وسطية سريعة تروي

غليله..... لحظة سقوط نظراته على جثث عائلته أتقدت دمائه،
بات يلفظ حمم النار من فاهه، أصيب بلفحة الغواش، دكت
أطرافه سلسلة ارتعاشات، هجس باختناق في صدره، تجرد
عن الواقع، ثم صرخ صرخته المدوية.

- يا معين.... يا الله.....

كانه في صرخته قال يا لله أعني على الصبر والجلد، لانتقم من
الأوغاد.

الكارثة قد مست الجميع، لم يقاوم الفزع الذي حل به، ما أن
سقط مغشي على الأرض، حتى أعانه أبو مريم ورفاقه، ما أن
ارتد لوعيه حتى صار يشهق بكاء عصيب، كان قد أفتقد وعيه
لبرهة للمرة الثانية وثالثة وهو بين الأيادي.

لا منقذ ولا معين إلا الله، استمرت تلك الحالة لدقائق بسبب
شدة الصدمة التي ألمت به، أفقدته توازنه، أرتفع ضغط الدم
في رأسه، أصابته إغماءة تلو الأخرى، نقل على أثرها لمشفى
المحمودية بسيارة صالح مع لفيف من رجال القرية، خرجت
خلفه سيارة حازم وهي تحمل عددا آخر من رجال القرية،
حيث نقلته الصدمة لشطط الجنون، كغصن تعلق بذاكرة
شجرة تلاعبت به ريح صرصرة، ثم هوى في سر العذاب.

مرت ثوان وهو يرتعش، مخطل، مهزوز، مرتبك، يهذي في
غيه، متحولا بين الإدراك وألا إدراك، بين الوعي وألا وعي،
زرق على أثرها بإبرة مهدئة أغفته مدة ساعة أو ساعتين من

الزمن، بعدها أستعاد وعيه وهو يبكي ويولول، تم تغذيته خلال نومه بمغذي عبر الوريد ليستعيد ما فقد من بأس وشدة وفكر... ما أن تفتحت عيناه وهو في ذهول تام مما جرى، حتى أدرك محيطه....

شيء فشيء جفت دموعه، أخرس، قيدته الصدمة، سكون ما أختلج أعماقه، بات يهجس بأفكاره ككومة عيدان حطب تحترق، فيما أنفاسه باتت تقذف لظى الجمر من فاهه. جفت الشفاه كجفاف أرض بور تحت وطأة شمس الصيف. هجس بذاته شريد الفكر بين الماضي والحاضر، ما أن أستعاد وعيه وهو مخرس اللسان والنظرات حتى احتضنه أبو مريم الذي كان يراقبه عن كثب بعد أن سقاه قدحا من الماء..

صار يبكي بحرقة في حضن أبو مريم ليطفأ نار جمرة، صار يبحث عن صيغة مواساة أخته عبير، أنها قرينته وصديقه وشقيقته وحبيبته ورفيقته وسليته. لقد أستعاد وعيه على شكل دفقات من الوعي والسكينة الغائبة، بات يترنح بين الوجود والغياب الذهني وبشكل غير متزن، تهجس به أقرب إلى الجنون وهو يجوب دائرة التيه وسط الرعية والحشد من أهل القرية.. هذا يعضده وهذا يألمه، وهذا يشد من أزره وهو غارق في بحر من التيه والحيرة وفقدان الذاكرة، ينتقل بين صور والديه وخواته، تكاد عيناه لا ترى شيئا سوى سدم يعشي البصر.

- يا الله... يا الله...

صار يصرخ بأسمائهم بصوت أجيج يتخلل نحيبه الشجي...

- يا يمه.. يا عبير- ولا من يجيب أو يعين...

صار يسأل..

- أين عبير، أين أمي وأبي أين عبير وهديل؟؟؟؟

حينها صرخ بوجهه أبو مريم بحزم قائلاً له:.....

- يكفي بكاء لقد بكيت كثيراً وحن علينا أن نخطو خطوة

جادة كي لا تذهب دمائهم سدى، الآن الاعتماد يقف

عليك أنت، كن رجلاً دعنا نخبر الشرطة ونوصل

الخبر لعمك وللصحافة، بعد ذلك علينا أن نفكر بما

نعمل بجدة كمجموعة، سنخطو خطوات أخرى ذات

أهمية كبرى، ما ذهب لن يعود بالعويل..

- لا.. لا... لا يا كلاب لقد تنبأت عبير بذلك مراراً، يا عم

لقد شكتم لأمي...

- أعلم بذلك يا أبنائي، ولكن لم نتوقع أن تصل بهم الوقاحة

لهذه الدرجة من الخسة والأجرام.

أجهش وهو يتذكر المنظر الذي بات طيفه يخاطره بصور

عبير وهي مغشية بدمائها، عارية الجسد، مهشمة الرأس،

محترقة.. عادت إليه الصدمة التي جردته من وعيه، صار

يلطم على رأسه ويلعن حظه الذي أبقاه حياً على قيد الحياة.

حينها صرخ به أبو مريم قائلاً..

- كفى، كف اللطم، لا تتصرف تصرف الحريم، لن يعودوا، الله يرحمهم ويغفر لهم برحمته الواسعة، قم نكمل إجراء اتنا، لقد أبقاك الله لتكمل المشوار وتنتقم لهم؛ هل فهمت؟ فهم عند الله شهداء...

حينها أهتز أحمد خانعا لإرادة أبو مريم. بات يتحرك بإرشاداته، طلب منه تبليغ شرطة المحمودية أولاً، ثم أوعز لحازم بالذهاب لدار عمه هادي في منطقة الدورة وهو الذي يعرف مكانه بعد أن أوصل أحمد يوم أمس، ذهب برفقة عدد من أبناء القرية كشهود عيان لإبلاغه عن ما حصل لأخيه، وقد نبهه خلال الطريق بأن يتصرف بعقل كي لا يلتفوا عليه جنود المارينز ويقتلوه.

كان العم جبار قد أوصى الجمع؛ بأن تترك الجثث على ما هي عليه حتى تحضر الصحافة والشرطة.

كانت قوات المارينز قد أبلغت الشرطة العراقية المؤتمرة بأمرها عن حصول الجريمة تحت بند الفاعل المجهول، بذلك تحركت الشرطة بعد أن ترك أحمد وأبو مريم القرية متجهين إلى المشفى. وقد سجلت ملاحظاتها حسب أقوال جنود المارينز.. إلا أنها ودت أحداً من ذوي الضحايا يكون حاضراً في المشهد لتثبيت الأقوال، وكانت قد صدمت من تناقض أقوال أهل القرية مع ادعاءات جنود المارينز، لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً حيال ذلك.

كان ذهابه لبيت عمه فيها حكمة ربانية، ليبقى خارج دائرة الخطر، ليبقى العصا التي بها يؤدب جنود المارينز على فعلتهم الشنيعة.. " وَمَكْرُؤًا دَسَّاسًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ " صدق الله العظيم... لا بد من ثأر يشفي غليل القرية والعراقيين وقلبه ويطيب خاطر ذويه وأهل القرية.

كان خلال خروجه من الدار مع شلة من رجالات القرية وهم ماضين به لدائرة الشرطة قد أشتط فكره بهلوسة أشبه بهلوسة المجانين، شعر بذاته يود أن يركض في العراء... يسب ويشتم الفاعلين، يستنجد بالأشباح التي باتت تتراءى له كبشر في الطرق، صار يناجي الريح والشجر الغارق بصمته، يعاين الحجر المتفوق في جحره، صاغرا للسكون الدائر حوله، يناهد الطريق التي ما عاد بساطها يرفأً بصورهم وأصواتهم، ما عادت الثرى ترفأً فيها أثار أقدامهم، هوى كل شيء بلحظة، سوى تلك الذكريات التي بقيت عالقة في الأذهان كأعلام تمثلهم.

صار يستنجد بكل عارض أمامه يلاقيه، يناجي لطف الله ورحمته، يقرأ آيات مما يحفظ. كان يمشي برفقة أبو مريم ولفيف من أبناء القرية، والحزن يشتط في وجهه، شطف قدراته، أعمى بصيرته، شبه تائه وهو قاصدا مركز شرطة المحمودية.. الشارع الذي يبتعد عنه أمتارا صار يبعد عنه كيلومترات، لا يعلم ماذا يفعل وكيف يعمل وبمن يستنجد ليعيد لذاته ذويه؟

كان لدور أبو مريم ورجالات القرية الذين رافقوه وساندوه دور في ترقيع فتق الشرخ النفسي بشكل إيجابي، أزروه، ساندوه، لم يتركوه وحيداً قط، هجس بذاته بين أفراد عائلته. وكان أبو مريم قد أخبره بوجود أخيه محمد ذات ثمانية سنوات من العمر كان قد عاد من مدرسته واحتواه في داره.

لقد عانى كثيراً وهو يبحث عن دليل في عيون مرافقيه يقوده إلى استعادة حقه، لينتشله من جب الضيم والوحدة.. ظل العرق يتصبب من جبينه، والظمأ يشطف ريقه ويلهب جمر صدره.

توقفت قربه سيارة بيك آب لأحد أبناء القرية، حيث كانوا قد تعاضدوا جميعاً، أشبه بعائلة متماسكة، محاولين رفع الكلل عن متنه. على الرغم من ندرة العجلات في الشوارع لشحة البترول، لكن عند الشدائد تصنع المعجزات، بانث له كسترة نجاة واقية، كشطت جزء من حزنه وكربه، احتضنوه! انتشلوه من سهام الخوف.. ترى من فعل ذلك بأهله؟ صار يسأل أبو مريم...

- من غيرهم هؤلاء الأنذال، جنود الأمريكان الجبناء؟ لقد جاءوا متكررين بلباس عربي، ليوهموا الناس بأن الذين قاموا بالعملية عناصر القاعدة، مستغلين الفوضى المقيتة الدائرة بين السنة والشيعة، ليشتتوا أذهان الناس نحوها، تنكروهم فضح غايتهم، لن يغطوا عين الشمس بغربال.

قال له ثامر:....

- يا أبني دع الأمر مستورا ودع الشرطة تحقق بذلك،
هم الأقوى ولا طاقة لنا بهم الآن، يجب أن نتريث
قليلا، تأكد لن نتركك وحيدا، ولن تذهب دمائهم سدى،
سنأخذ بثأرك منهم قريبا إن شاء الله.

2 – اتحاد أبناء القرية

عزف أبو مريم ورفاقه عن مواصلة أعمالهم اليومية، أصروا على إيصال أحمد لبر الأمان ومرافقته في تدوين وقائع الجريمة كشهود عيان لدى دائرة الشرطة والصحافة، لفضح أساليب العدو وجرمه ونياته وعملية تلفيقه في تداوله القضية وتعامله بها مع الناس العزل والصحافة...

لقد أعدّوا لمهمتهم عجائبي نوع (بيك اب) من القرية لتسهل عليهم تروية الأمر والتنقل بين اليوسفية ومراكز الشرطة والمشفى في المحمودية.

اتجهت العجلتان بهم لمركز قضاء المحمودية، حاملين أحمد للمشفى لأجراء بعض الإسعافات الأولية ولتخفيف وطأة الصدمة عليه، ثم تابعوا رحلتهم لتدوين فصول الجريمة لدى دائرة شرطة المحمودية، ليدلوا بشهادتهم، ليضعوا نهاية حقيقة لفصول الجريمة على طاولة العدالة، أملين أن تنصف حقوق عبير أمام الرأي العام العالمي والقضاء العراقي والقضاء الأمريكي..

كما اجتمعوا على مساعدته ماديا ونفسيا، أزروه على تجاوز مسافة يومه وغور حزنه ومصابه، فلم يتركوه عرضة لأنياب التفكير تنهش جسده، ولم يتركوه لسيف العذاب يقطعه، أحاطوه بمحبتهم، فلم يدعوا التهور يتمكن منه، أو ينحيه لهوة اليأس والانتحار..

قال له صالح وهو يود أن يخفف عليه وقع الصدمة:...

- يا بني أذكر الله كثيرا، أفرح بأن ذوبك ذهبوا لجنات الخلد، الكل يتمنى الشهادة.. ما عليك سوى الصبر والتأني، هدى من روعك، نعم الأمر ليس علينا بالهين، ولكن القدر جاء هكذا والظرف يتطلب منا أن نصبر قليلا ليكون لنا رد مواز لحجم الجريمة وربما أكبر. يجب أن تتحمل وقع الصدمة برجولة وإباء، كي تعرف أن تتصرف بحكمة، عليك أن تفكر بأخذ الثأر من الجناة وسنكون كلنا معك. عليك أن تتقم لأمك ولأبوك ولأخواتك! سوف لن نتركك لوحدا، القرية والعراق وأهلك سيفرحون بانتقامك لأجلهم وفي نفس الوقت تبرد نار قلبك، لا تحزن هم الآن في جنات الخلد... سيفرح بك الله والرسول والملائكة والوالدين، لذلك حفظك الله من غدرهم، كن هادئا، جلدًا في تعاملاتك، كلنا سنموت يوما ما، هذه الدنيا زائلة لا أحد يعيش أكثر مما كتبه الله له، بعض الأقدار هيَّ اختبارات من رب العالمين لصبرنا، كل شيء في هذه الحياة يتم بقضاء الله وقدره، عليك أن تطمئن ولا تجزع، ثم عليك أن تؤمن بالقضاء والقدر... عندها وضع في جيبه مبلغا من المال قائلا له:.....

خذ هذا المبلغ البسيط سيعينك حتى تستعيد قدرتك وصبرك ووعيك، أنت اليوم بأمس الحاجة للمال كي تستطيع أن تنتقل وتتصرف بشكل جيد.

رفض أحمد أن يأخذ المبلغ منه، فهو ابن ريف وأعراف، عزيز نفس، دمث الخلق والأخلاق.. لكن أبو مريم تدخل وطلب المبلغ من صالح وقال له:....

- هات المبلغ يا صالح دعنا نجمع له من أبنا القرية جميعا، من اليوم نحن سنكون أهله وناسه، وأنا سأتكفل بذلك.
- أحسنت يا أبو مريم، هذه مجرد مبلغ بسيط لتسليك أمره، وهو ما أحمله في جيبى وسأزيده خلال عودتنا.
- شكرا لكما.. جزاك الله خيرا.

قالها وهو يجهش بالبكاء، كأنه أحس بفقدان الجدار الذي كان يستند عليه، هجس بذاته في تلك اللحظة بأنه أصبح وحيدا دون سند في هذه الدنيا، أضحى يتصدق عليه الآخرين. لذا شعر أبو مريم بالحالة التي مر بها فقال له:....

- يا أحمد؛ أنت أبنا، كل أبنا القرية هم اهلك واقربائك، فلا تضع حاجزا بينك وبينهم، اطلب ما تحتاجه سنلبي طلبك، لا تهتم سنكون معك في كل خطوة حتى لو كفنا ذلك حياتنا، لن نتركك وحيدا تأكد، سنأخذ بثأر والديك.
- انا اعرف ولكن اهلي..... يجب أن انتقم لهم ... يجب أن أنتقم...

وبعد تجاوزهم حالة المشفى وصلوا مركز شرطة المحمودية التي لا تبعد سوى عشرة دقائق تقريبا، تم إخبار شرطة المحمودية بتفاصيل دراما جنود الأمريكان. ظلت الشرطة في

حيرة من أمرها بسبب تضارب المعلومات التي استقتها من قبل العامة والمعلومات التي وصلتها من قبل نقطة تفتيش التابعة لجنود الأمريكان. حيث جنود المارينز حاولوا الصاق التهمة بالقاعدة، إلا أنهم فشلوا في غايتهم، تعرفوا في الصحافة والاعلام.

طالبت الشرطة استدعاء أخوته وأقربائه ليكونوا ورثة القضية إلى جانب أحمد، ليكونوا شهود عيان وحكام على تفاصيل الجريمة الشنعاء، لترى أعينهم حقل الغل الذي تفجر في دار قاسم، وليكونوا قضاة على سلوكهم وسلوك الجناة فيما بعد، ليتحدثوا أمام الصحافة المرئية والسمعية، فقاسم هو أبن جلدتهم وأخوهم الأصغر.

على أثر ذلك انطلق حازم إلى مدينة الدورة لإبلاغ هادي أخ المغدور قاسم الجنابي، حيث أحمد لا يعرف رقم موبايل عمه، وكان حازم قد أوصله فيما سبق لدار عمه. فيما البقية بقيت تنتظر قدوم هادي أمام مركز الشرطة بالإضافة إلى أخوه الآخر أبو فراس.. لم تطل المدة سوى ساعة زمن حتى وصل هادي برفقة حازم، تم بعد ذلك زيارة آثار الجريمة وتصوير الحدث من قبل رجال الشرطة والصحافة والطبيب الشرعي، لتأكيد وقائع الجريمة أمام الصحافة، تلك التي هي أيضا مكبلة اليدين تحت وطأة العصا الأمريكية المخدرة، حالهم حال الشرطة المساكين، كونها في تبعيتها تتبع القوى المتنفة، وكون المحتل يضع يده على إدارة الدولة بأكملها وتفصيلها.

كانت القضية قد سجلت ضد مجهول لعدم وجود أدلة ملموسة سوى ادعاءات أهل القرية، ولا يمكن الأخذ بها وأن كانت صادقة، وقد سجلت لدى الشرفاء كعار على أذنان الحكم القابعيين في الخضراء الذين أخرجوا دون أن يدينوا العمل الإجرامي الجبان، خوفاً أن تحسب على ذمتهم المواقف، ومن ثم يفتقدوا أماكنهم في المقاعد المخصصة لصف الأول.

هكذا طُمرت القضية بثرى الصمت في ظل سياسية عرجاء لا تصل بمغزاها شواطئ الحقيقة.. إلا أنها أخذت منحاً آخر بين صفوف الشعب، وبالذات عند طائفة السنية التي أخذت على عاتقها أن تتأمر لعائلة الجنابي، فصارت تزحف زحفاً نحو جنود الاحتلال أينما وجدوا. حيث في اليوم التالي شنت المقاومة في جميع المحافظات المتأججة بضمنها بغداد هجوماً لاذعاً، عنيفاً، على كافة قوات الاحتلال المتواجدة، استمرت المجادلة والشدة عليهم مدة أسبوعين من المناوشات الصارمة التي راح بها العديد من جنود وضباط المارينز، بحيث صارت القوات الأمريكية لا تجد جحراً يخفيها، قتلوا في هذه المدة العشرات منهم، تجاوز عدد القتلى أكثر من مئة جريح في الأسبوع الأول من وقع الجريمة، وقد كانت حصيلة المقاومة في اليوسفية عشرة فطائس مقابل شهيداً واحداً فقط بعد يومين من وقع الجريمة. هذا ما جعل الذين يعرفون خيوط جريمة عبير من أن ينوهوا لقادتهم عن سر كثافة الهجمات والتي ذهب على أثرها ضحايا من قواتهم، مما جعل القادة يبحثون عن اللغز، يفتشون عن المجرمين لينالوا القصاص.

لكن تفجير مرقدي الحسن العسكري وعلي الهادي في سامراء من قبل قوة غاشمة محسوبة على الأعداء كانت قد جَرَّت الولايات على الوطن، تلك الواقعة النكراء أثرت على امكانية المقاومة وتحركاتها ضمن مجالها الضيق، بذات طمرت قصة عبير وذويها، لفظاعة الاحداث الطائفية التي حصدت رؤوس ابرياء دون ذنب، حيث كانت في أوج إثارتها وشغبتها، فوضى الطائفية امتدت أثارها على مدى سنتين ونصف من العنف الدامي الغير مبرر، راح ضحيتها مئات الالوف من أبناء الشعب الأبرياء دون جريرة تذكر.

علما بأن المرقد قابع في وسط مدينة سامراء السنية منذ ألف سنة ولم يחדش بحجر... مع أن الكل يعرف من عفس بالحمة العراقية إلا الشعب المغلوب على امره تأخذ الروج بين الشواطئ...

الفئة الباغية التي فجرت المرقد ودت حرق العراق والسيطرة عليه بفصائلها المنبثة في المشهد. حينذاك كانت المقاومة قد اجبرت على التراجع والتخفي والتردي، للحفاظ على سلامتها بسبب اشتعال الفتنة الطائفية، حيث تمكن العدو من شرخ نسيج العراقي، تمكن من فتق زيق الوسط، للفوضى العارمة صارت الناس تبحث عن مأوى لذاتها، ناسية الاحتلال الغاشم وجرائمه وأفعاله المتكررة... ففي ثاني يوم من تفجير مراقد سامراء كانت قد اغتيلت في موقع الحدث الشهيدة الصحفية **اطيف** **بهجت** في 2006/2/23 قتلت بأيدي مفجري المرقد، يقال

بأنها توصلت إلى معرفة الجناة الحقيقيين وراء الحدث وعرفت لغز القصة الحقيقية.

كانت لمجموعة صالح وثامر هجماتٍ عنيفة على مواقع قوات المارينز في نقطة التفتيش المشار لها في القرية، تمكنت من تلقين قوات العدو درسا في الاخلاق، فلم تهناً نقطة التفتيش بجرمها والتي نالها النصيب الأكبر من الضرب على مدى الأيام حتى اضطرت القوات الأمريكية إلى سحبها من القرية. لقد دمرت لها عجلة همر بمن فيها في ثاني يوم من الحدث...

هكذا صارت نقاط التفتيش ومراكز القوات الأميركية هدفا يوميا للمقاومة على مدى أشهر من الحدث، حتى تمكنت المخابرات الأمريكية من معرفة سر الحقيقة واستدعاء المجرمين للتحقيق معهم...



اطياف بهجت

3 - قراءة المشهد

بعد أن أبلغوا الشرطة والصحافة وتصوير الحدث، تم مواراة الجثامين الطاهرة الثرى، واكب ذلك الموكب المهيب كل أهالي القرية والكثير من أبناء مدينة المحمودية.. ما أن انتهت مراسيم دفن الشهداء حتى توارى أحمد وأخوه محمد عن الأنظار بإشارة من العم جبار وأبو مريم، بقيا قاطنين في بيت عمهم في منطقة الدورة تحت مراعاته..

فترة نقاهة قضاها لمراجعة الذات وتهيئته لمواجهة الغد، خلالها راجع فيها تفاصيل الأحداث برمتها من لحظة تفجير حي الميكانيك وانتهاء بلحظة عودته من الدورة للبيت، تمنع بالإشارة التي حفظته من الغدر. صار يعيد لقطات الأحداث ويتوقف عند كل نقطة مدققا بالمشهد، تراءت له الصور أمام عينيه مرات ومرات، بات يسأل نفسه ويجيب؛ يا ترى، ما سر اصرار أبي على الاطمئنان على عمي هادي؟ ما الذي حثه على ذلك؟ ما علاقة حادثة الدورة بحادثة أهلي؟ ولم أراد القدر بأن أسلم من تلك الجريمة؟ صار يقرأ المشهد ويتذكر كلام صالح وأبو مريم، بأن الله نجاه لحكمة يريد لها، لحكمة أن أنتقم لهم عاجلا كان أم آجلا...

يا ترى عزيزي القارئ؛ لو كنت بمكان أحمد كيف ستتصرف؟ كيف ستواجه الموقف وهو بهذا العمر الفتى دون تجارب؟....

بعد احتضان عمه له تمكن خلال فترة وجيزة من تحمل الصدمة واستعاد رباط جأشه وأمر رشده، استطلع المشهد مع عمه وأبو مريم، ومن خلال قراءة الحدث وترويض ذاته، والتحكم بمصيره وتقبل قدره وحيثياته وتقبل توجيهات عمه، فعلا كل شيء مكتوب في كتاب محفوظ...

لذا هيء الله له مساحة لمراجعة الذات والتفكير بعمق لإعادة الحق لأهله.. لقد دخل من منفذ ضيق لمواجهة ظرف معقد من الحياة، ظرف تكالبت فيه المنغصات على رأسه وهو بعمر لا يستطيع تحمل أعباء العقدة لوحده، ولكن عمه هيئ له مستلزمات النجاح وفرصة انضمامه وعمه إلى فصيل من فصائل المقاومة في الدورة ليتدرب على المواجهة.

فيما اجتمع لفيف من رجالات القرية في صريفة العم جبار لمداولة واقعهم الجديد المهلhel، بعد مقتل عائلة قاسم والتعدي على شرف أبنتهم عبير، اجتمعوا لسد الثغرات المكشوفة في صفوف القرية أمام نيات العدو الغير مقروءة. خطب بهم العم جبار وهو يلوم شتاتهم وضعفهم وتخاذلهم، مهولا لهم بعُكَّازِه التي يستند عليها:.....

- سأحكي لكم قصة وأرجوا منكم التمعن بها، خذوها على محمل من الجد لتستفيدوا من حكمتها في واقعكم المهلhel، لتحافظوا على شرفكم وحریمكم من الانتهاكات التي قد تتجدد، ولتأمنوا على حياة عوائلكم من غدر الزمن. ما حدث بالأمس كان

مجرد علكة تأديبية، صفة على الخد، كنت قد حذرتكم منها من قبل أن يأتي المحتل برؤيا بهلول أن كنتم تتذكروها ودون أن ترعوا، وقد صدق بهلول وخاب ظن البعض منكم الذي أستهزأ بي في حينه، وهذه ليست العلكة الأخيرة من قبلهم إذا لم تحسنوا التعامل معهم، إذا لم تتوحد صفوفكم في مواجهتهم، وأعلموا أنها ستتكرر وستأخذكم بالدور، وكنت أدرك ذلك مسبقا..... من جاء يسرق وطنك؛ لن يراعي ضعفك.

- أنا اعتذر منك يا أبو صالح، كنت قد شخصت الامور ولكني لم أستوعب الحالة إلا متأخرا.. سامحني.

قال ذلك عمر، وجواد وحسن ممن لم يأخذوا تحذيره على محمل الجد.

- لا بأس عليكم، الوقت ليس وقت تثريب واعتذار، إنما وقت عمل جاد، المهم توضحت الصورة لكم، لقد كنت أراها وألتمس ظلها، لأنه ما جاء الغاصب ليوزع علينا الورود ويحسن من اوضاعنا، إنما جاء ليفتش عن غرائزه المادية والنفسية والروحية في جلودنا، وإلا كيف يصبر على جور راغت به قدماء؟ فلو لم يقع الحدث ما كان أحدا منكم أنتبه وصدق رواية بهلول قبل اليوم، لكن الله أراد أن يبتليكم لتعضوا وتتعضدوا، هل رأيتم ما حل

بعائلة المرحوم قاسم من جور وتعسف!، وما حل بشرف أبنيتكم عبير من عبث رأيتموه بأمر أعينكم، لذا عليكم التكاثر والانتباه لما سأقوله لكم.

- كلنا آذان صاغية يا شيخ، تفضل، قل ما عندك يا أبو صالح... (قال ذلك أبو مريم ونعيم وحازم وخالد)

- يحكى أن ثعبان دخل ورشة نجار بعد أن أنهى عمله ليلاً، بحثاً عن طعام ما.. وكان النجار قد ترك أدواته في أماكنها، مبعثرة على طاولة العمل وبشكل عشوائي، وطبعاً من ضمن أدوات المهمة المنشار. وبينما كان الثعبان يتجول هنا وهناك مرر جسمه فوق أسنان المنشار الحادة، مما أدى إلى إحداث خدش في جلده، فارتبك الثعبان في الحال، وكردة فعل منه قام بعض المنشار والالتفاف عليه سريعاً وبشكل مفاجئ في محاولة لدغ المنشار وقتل عدوه بعصره، ذلك ما أدى إلى جرحه وسيلان دمه.. نتيجة الجراح والالتم صار يعصر المنشار في الدفاع عن نفسه.. لم يكن يدرك الثعبان ما حصل في عتمة الليل! فاعتقد بأن المنشار يهاجمه، كردة فعل من الثعبان التف عليه بجسده و صار يضغط لخنق المنشار، هكذا تمكن المنشار من تقطيع جسد الثعبان إرباً إرباً. وحين استيقظ النجار صباحاً، تفاجأ بما عمل المنشار من فصل بطولي في الورشة، المنشار مُدَمَّى وبجانبه

يجثوا ثعبانٍ منتحرٍ، مات لا لسبب؛ إنما لطيش
وغضب.

- **العبرة** قال ذلك خالد..

- أني أرى هذا المحتل ليس هو إلا ذاك الثعبان وقد
دخل بيننا في عتمة ليله، وما علينا إلا أن نكون
ذلك المنشار في طريقه، أن نتكاتف ونصب
غضبنا عليه، أن نشئت ذهنه ونترك خلافاتنا مع
بعضنا جانباً، أن ننسى الطائفية وأن لا نجرح
بعضنا البعض، أن ننسى كل المواقف التي لا
تروق لنا فيما سبق، ما حدث قد حدث وعلينا أن
نرعوي لما سيحدث غداً.

أحياناً نحتاج إلى تجاهل ما يعترى حياتنا من عقد
ومغصات، سواء كانت شخصية أو عامة، كالذي
يحاول العدو زرعه بيننا من فتن طائفية وقومية
وثغرات لينفذ من خلالها إلينا، علينا نبذ البغض
والكراهية التي من خلالها يمتد سرطان سلطانه
وسلطته، أنه مثل الاضطبوط مرناً يمكنه أن ينفذ
من الثلم التي تشغل أفكارنا. أنه يحاول أن يمتد من
أجل مكاسب يجنيها البعض جراء الفرقة. لذا
تجاهلوا الأفعال الغير مؤذية، تجاهلوا أقوال
الجهلاء، يجب أن نعود أنفسنا على التجاهل الذكي
وليس على التجاهل الغبي، غايته كرامتنا وحب
العراق فقط...

تجاوزوا خلافاتكم، اتحدوا تحت قيادة واحدة من صلبكم بوجه العدو، فأني أرى الثعبان لازال يدور بيننا، دعونا نكون كأسنان المنشار صفا واحدا بوجهه.... السلاح متوفر في كل بيت، ولا نحتاج سوى مؤازرة بعضنا البعض وحكمة العمل وتنفيذ الواجب.

- كلك حلم يا عم، والله ما ذكرت سوى المطلوب عمله، سوى ما ينفع القرية، طالما نحن مشتتين سينال كل منا نصيبه، ليكن المرحوم قاسم عبرة للقرية والعراقيين..(قال ذلك أبو حازم وأيده طعمة وعبيد وسالم وحسين وساجد)....
- تعاضدوا سيرفع الله أياديكم فوق أياديهم.
- سلم ثمك يا أبا صالح..(قالها خالد)
- تعاضدوا وسيعلو شأنكم على شأنه. أذكر لكم حديث رسولنا العظيم محمد، صل الله عليه وسلم، حيث قال: "الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا".. فالمؤمن لا يستقيم بأمور دينه ودنياه إلا بالمعونة والمعاودة بينه وبين إخوانه.. كم من المشكلات شابت لها المفارق، وعجزت عن حملها الجبال، لكن باللين والحكمة يمكن تجاوز معضلاتها وحلها. ثم يجب أن تأخذوا بثأر المرحوم قاسم الجنابي وعائلته وبشرف أبنيتكم عبير، ليعرف العدو حدود تعامله معكم.

أنا على ثقة من أنكم جميعا لن تقتصروا بذلك،
ومن اليوم يجب على الكل رفع راية سوداء فوق
أسطح منزله، دلالة على أننا طلاب ثأر، طلاب
حق ولن نتنازل عن حقوقنا حتى لو فنيينا جميعا،
وهذه الراية لن تنزل إلا بأخذ الثأر... أنا قلت الذي
عندي، وعليكم التشاور بالموضوع مع أبو مريم
وصالح وثامر في هذا الأمر، مع السلامة.

حينها تركهم يتشاورون بالنقاط التي ذكرها لهم، وكانوا قد
اتفقوا فيما بينهم من تكوين فصيل مقاومة من الشباب للانتقام
وأخذ الثأر من نقاط التفقيش القريبة منهم برئاسة أبو مريم
وثامر وباشتراك كل من يستطيع حمل السلاح.

4- التحقيق في الجريمة

راود رجالات القرية الوسوس والقلق جراء تواجد جنود المارينز قرب قصبتهم، لذا كان يجب أن يكون هناك حلا لمعضلتهم، بعد اجتماع سقيفة العم جبار، تداولوا وضع القرية واتفقوا على التجمع كل يوم جمعة بعد صلاة الظهر في السقيفة لدراسة ما يستجد من أمور تخص المنطقة، خوفا من احتمالية تعرضهم لمداهمات تذلم وغدر يفتك بهم كما حدث لقاسم، بقيت تلك الوسوس تراود أفكارهم تحت ظرف الحالة المستعصية نتيجة تشابك وتراكم العقد حول العراق.

الوضع المتقلب الشائك الذي أربك المعنين بالأمر، والفتنة الطائفية المستفحلة بين الشيعة والسنة، والفوضى الدائرة في إدارة السلطة من قبل شلة اللصوص والمرترقة مع تفاقم الجرائم التي تفاقمت وزادت عن حدها بعنف يفوق التوقع، كل تلك الوقائع جعلت من قصة عائلة قاسم الجانيي تكون في طي النسيان إلا من المعنيين بها من أهل القرية وذوي العائلة. فالعجلات المفخخة التي صارت تتفجر بين الأحياء والشوارع والتي راح ضحيتها الأبرياء، والحرائق الفسفورية التي صارت تنفذ في المولات لتقتل بالجملة العشرات بل المئات دون مبرر، أصابت الناس في دوامة من السكر والرعب والهلع، جعلت العوائل تعيش كالجرذان في الجحور خوفا من التواجد في الأماكن العامة، من أن تدخل الأسواق تجنبا للكوارث. حتى الكثير من العامة تركت العمل ولم تصغي إلى الفاقة ولا إلى حاجة الأطفال.

تحت تلك الظروف صارت الناس تنسى مصائب الغير ولا تفكر سوى بسلامة ذاتها من الكوارث، لذا طويت سجلات قاسم الجنابي وختمت بالشمع الأحمر من قبل القضاء والدولة. الكوارث التي طرأت على السطح جراء حنق المحتل وتدخل دول الجوار ليس لها مثيل، أضحت مخيفة، شائكة، تحتاج لعقول راجحة وصبر وحنكة في التعامل معها وتجاوز الخلافات التافهة، تلك التي هيأها ظرف أهوج، لتتأجج دون سبب أو مكسب سوى سيطرة شلة فاسدة على كراسي الحكم.

كان عليهم شد أحزمتهم ومراجعة تحذير العم جبار قبل ذلك الوقت بفترة زمنية معقولة، كان يجب أن ينتبهوا على التغيرات المتقلبة في الدولة والشارع في وقت مبكر، وما يحصل من تغيرات جارية على المستوى السياسي والاجتماعي وما يطرأ على الساحة من عنف دون أن يبدي المحتل أية مساعدة في وقف ذلك النزف.. الظرف جعل الحياة تتعقد، المحتل استغل الفوضى للسيطرة على اجنحة المقاومة في المحافظات المتأججة وبالذات الوسطى والشمالية منها بمساعدة فصائل شيعية وكردية موالية للمحتل وتلك المستحدثة الذين وجدوا في الاحتلال فرصة لتثبيت تواجدهم في المشهد وفرض الأمر الواقع على الشعب. لذا اصبحت المقاومة محصورة في مناطق ضيقة بين الامريكان والفصائل الموالية لهم.

ضالت تلك المخاوف تتبع هواجس حازم ونعيم ومصطفى وغيرهم من رجالات القرية، تلسع ظنونهم كحال أهل القرية جمعاء، حتما تكمن في المنطقة خلايا نائمة، مطمورة تحت

وجس الشماتة دون أن يعلم بها أحد، خوفا من النميّة، حيث الحقد على المحتل مغروس في قلب كل عراقي إلا الشلة المستفيدة من تغيرات الوضع السياسي العام، كما لتشعبات بيوتات القرية التي تتخذ من العشوائية منفذا في توزيعها، تشبه جحور النمل غائرة في بطون البساط الأخضر الممتد بمحاذات نهري دجلة والفرات؛ تسمح بتحركات رجال المقاومة من نقطة لأخرى.

المنطقة خليط من الفسيفساء الطين العراقي، للمقاومة أذرع في سبط القرية، من لب أهلها الطيبين.. قد يكونوا عوناً لقوى أخرى أكبر منها تعمل خارج نطاق قرينتهم، قوى تتمركز في المحمودية أو اليوسفية القريبة منهم أو في بغداد، حيث كانت السرية في الانتماء والعمل في الخفاء من الأولويات الضرورية والحتمية لتجنب وخز الطابور الخامس الذي يعمل لصالح المحتل والفصائل المستحدثة...

المناطق قريبة من بعضها، متلاصقة كامتداد العشب في الأرض، ترى البيوتات الطائفة فوق مروج خضراء أشبه بمراكب الصيد وهي تجوب شواطئ البحر.. لذا لا بد من تكاتف واندماج يربط بين فصائل المقاومة المستحدثة والتي تعمل تحت مسميات متعددة لإلا تغرق سفنهم، والتي تعرف بعضها البعض من خلال التعاون الحاصل في صيد جنود المحتل، كان لا بد من تعاون وإيواء بعضهم البعض تجنباً للغدر الذي قد يأتيهم من الداخل بسبب الفوضى العائمة في الوسط.

ومن خلال أوليات الأمور لم تتحرك فصائل المقاومة من أهل القرية ضد نقطة التفتيش بشكل مباشر، خوفاً من ردة فعل معاكسة تجاه أهاليهم.. ولكن تجاوزهم على بعض المرافق وعلى الأراض الزراعية لبعض الفلح وهدمهم للآبار الارتوازية الساقية لمزارعهم وأفعالهم الشنيعة السادية في بسط القوة والسطو والتجاوز والتعسف الذي يفتعلونه دون رادع، وخاصة ما فعلوه مع عائلة قاسم الجنابي من بشاعة وشناعة؛ كل ذلك ولد فيهم حفيظة الثأر، ولد ردة فعل مضادة من قبل أبناء القرية للانتقام منهم، وطردتهم من حدود قريتهم والوطن، تلك هي أسباب كافية لتنامي المقاومة بين وسط أبناء القرية والعراق بشكل عام، لذا صارت الهجمات عليهم يومية، تبدأ بعد الغروب وحتى مطلع الفجر.

كذب ستيفن ورفاقه على الأعلام، والظرف المستفحل أدى إلى التغاضي عن تداول جريمة عائلة الجنابي في الوسط الإعلامي والرأي العام لفترة من الزمن ليست بالقصيرة تماشياً مع التحقق في ابجديات القضية، والتي في الحقيقة شملت من قبل السلطة ودفنت أوراقها تحت رفوف القضاء.

في الحقيقة لم تكن هناك دولة بمعناها الحقيقي، ولم تكن هناك رجال يفرضون آرائهم في الوسط السياسي، السياسيون كانوا عبارة عن بيداق شطرنج يتبجحوا بالسياسة تحت إمرة برايمر الحاكم الفعلي للعراق، في وقت الذي به انشغل الناس بالعنف الدائر من تفجيرات المفخخات والاحزمة الناسفة والكمائن

والقنص الدائر بين أطراف الشعب بعد تفجير مرقد الحسن العسكري وعلي الهادي في سامراء..

مع كل تلك الظروف لم تهدأ المقاومة في متابعة جنود المحتل، لم تمضي سوى فترة وجيزة على وقع الجريمة؛ حتى تمكنت المقاومة من قتل مجموعة من الجنود في المنطقة، كما تمكنت في 12 من شهر حزيران من قتل الجندي ديفد بابيني وخطف جنديين (توماس لويل وكريستيان مينشاك) من نقطة تفتيش أخرى تسند الأولى والمنتشرة في ذات المنطقة، تم تعذيبهم وتسجيل اعترافاتهم ومن ثم نحرهم وبث صور النحر في الوسائل السوشيل ميديا. عندما سمع الجندي يريب بما حصل لزملائه؛ أخبر الرقيب جوستين وات بأن هؤلاء الذين نحروا أبرياء من الجريمة وأن المجرم الحقيقي هو ستيفن غرين وزملائه، هم من خطط للجريمة ومن قتل هؤلاء الابرياء الذين راحوا ضحية سلوك ستيفن مع أهل القرية، بعد أن أصر على اغتصاب ابنتهم عبير وقتل أهلها.

وفي 22\حزيران كشف وات خلال جلسة مشورة نفسية تحدث بها إلى مستشار الصحة النفسية عن أزمته، وعن اعتقاده بأن تشكل هيكل قيادة متشككة من محققي الجيش في قضية مقتل الجنود على يد المقاومة. حينها كان ستيفن غرين قد سرح من الجيش بمساعدة الرقيب أنتوني يايريب الذي أعترف له ستيفن بكل تفاصيل قضية عبير..

كان ردة فعل **ياريب** التستر على الجريمة وترتيب مخرجا
دراميا وتفويضا مشرفا لستيفن بحجة اضطراب الشخصية
المعادية للمجتمع. على ضوء ذلك سرح من الجيش واعيد
للولايات المتحدة مكرما.

بعد خطف الجنود ونحرهم تأججت القضية مرة أخرى بين
عناصر المارينز، حيث أعتقد أحد الجنود **جاستين** وات المطلع
على جريمة **ستيفن غرين** وزملائه، بأن الذين نحرُوا ذهبوا
ضحية انتقام، ردا على جريمة **غرين ستيفن** بحق عائلة
الجنابي. فقام بإبلاغ أحد المستشارين العسكريين، والذي بدوره
نقل الخبر لشعبة التحقيقات الجنائية التابعة للجيش. على ضوء
ذلك تم حجز **غرين** في ولاية **كورلينا** من قبل مكتب التحقيقات
الفدرالية. وكانت وكالة **اسوشيتد برس** قد فجرت القضية بعد
أن اعترف لها أحد الجنود المشاركين بالجريمة بتفاصيل
الجريمة، حيث قالت:.....

- أن تنظيم القاعدة قطعت رؤوس الجنود انتقاما
لاغتصاب وقتل الطفلة **عبير**.

بعد أن توضحت أركان الجريمة تم القبض على رفاق **ستيفن**
كما تم القاء القبض عليه في **كارولينا** وعلى **ياريب** الذي تستر
على جرمه.

الجندي الأمريكي يرى نفسه مغمورا في دائرة الشك، محاطا
بجدار من الخوف والحذر، وما أفعالهم تلك التي افتعلوها هنا
وهناك إلا ردة فعل على جبنهم وتخوفهم من المحذور،

ومحاولة إثبات العزم في ذواتهم وأمام الغير. فهم لن يتوانوا في إيقاع الأذى بأي شخص يقترب منهم، فهم يتوجسون من الخيال والظل، متوقعين في عذاباتهم النفسية، يتوقعون الأذى والإساءة تصدر ضدهم من كل عراقي يقابلهم في الطرق؛ لذلك تصرفوا بهمجية وعنجهية وتشنّج تجاه العراقيين. احتّموا بقرارات العنف جزافاً، نتيجة سوء الظن المتوقع والسادية التي يتصفون بها.

شعورهم ذاك أوصلهم لحالة من الشيزوفرانيا والهلوسة الرعدية التي بها صاروا يتصورون الأفراد خارج دائرتهم حشرات ضارة، عليهم التخلص منها والدعس عليها بلا رحمة، كي يأمنوا على أرواحهم من الخطر.

نتيجة الإصابات التي وقعت بهم هنا وهناك، صاروا يدركون خطأ تواجدهم في النقطة والبلد، فيما صارت المقاومة تنسب الأفعال لنفسها وآخرون منهم يعملون بصمت، حيث لا تُعْثَرُ الأحداث إلى فئة ما، لتدع مسارات القلق تكبر وتتشعب في أذهان المحتل.

هكذا حلل الجندي الأمريكي ظرفه وحدد قيم الإنسانية في نظره، فهو يبني تصرفه على أساس تعاليم تصله من قيادته، ليواجه ردة الفعل على أرض الواقع بتحد صارم لوجوده....

لقد تعلم من قيادته أن يفني العالم على أن يحافظ على حياته، كان هذا واضحاً وجلياً من خلال سلوكهم وتصرفاتهم المشينة،

فبمجرد الشك فأنهم ينتقموا من المقابل باللحظة، حينها يشعروا بذواتهم قد خرجت من دائرة الخطر لحدود الأمن والأمان .

على هذا الأساس لاحت جرائمهم الابرياء في الأنبار وديالى وصلاح الدين والموصل وبغداد وبابل وكركوك بالمداهمة المفاجئة لبيوتات المواطنين والانتقام المبالغ به من هؤلاء دون ذنب يذكر .

أما انتقامهم من عائلة قاسم حمزة، لم يكن ضمن إطار الشك أو الخوف إطلاقاً، إنما كانت ضمن إطار النزوة والشهوة الجنسية واللهو والسادية. لقد أرهقت قلوبهم عبير بجمالها وفتنتها ولدانتها، حتى جعلتهم يتآمرون على سحرها، فأشعلوا فتيل نزواتهم في جسدها الطفولي الحديث التكوين، فاشتعلت فتائل الحنق والحق في أذهانهم لينتقموا من العائلة بأسرها على ضوء ذلك اشتعلت فتائل الانتقام في نفوس العراقيين كافة رداً على فعلتهم النكراء..

هؤلاء المراهقين كانت قد هاجت النزوة بأبدانهم حتى جردتهم من القيم الإنسانية تماماً، أعمت بصائرهم، تحولوا لأموات ومصاصي دماء من أمثال الزومبي والأفلام الأكشن المبالغ بها كالتى ينتجوها، فعزموا على أحراق ملفها حين احترقت الرحمة في قلوبهم، أحرقوها بنار سحرها، فأحرقتهم بلظى العفة والبراءة، والظلم الواقع عليها..

هؤلاء الحثالة يدركون جيداً بأن المجتمع العراقي يختلف عن مجتمعهم، لكنهم تمادوا في غيهم وإسفافهم، ففي قرارة أنفسهم

كانوا يشعرون بأنهم مقيدون، مرهقون نفسيا، محاصرون
بزنزانة كبيرة أسمها العراق، يودون فك كربهم من هذا السجن
الذي وضعوا فيه، الحرب لم تكن رغبتهم إنما رغبة قيادتهم .

فيما سبق كانوا بشخصياتهم مجرد وهم وشكل من العبث دون
مسؤوليات حقيقية وقيم، تركبهم الخسة والرذيلة في سلوكياتهم
اليومية، ذلك جزء من واقع مجتمعم السائد، بلا عمق تربوي
ومنهج تقويمي أو ديني يقنئهم سلوكياتهم المنحرفة، لا يختلفون
كثيرا عن تلك الحيوانات السائبة بل هم أظل سبيلا، وأن مسألة
الأسر قد لا تعنيهم بشيء لانتشار البغاء، حتى أن الطفل يكبر
لا يعرف شيء عن أمه وأبوه. هذا العرف الذي يتحلون به،
جعلهم لا يستطيعون مقاومة صيامهم فترة طويلة عن الجنس،
لا يستطيعون ترميم صدع الجدار الذي يفصل بين الرغبة
الجانحة وقيم والدين المفترض الالتزام بها... لذلك، ولضيق
أفق الحياة؛ دفعتهم النزوة إلى خوض تجربة البغاء مع أي فتاة
يصادفونها، وكانت عبير ماثلة أمامهم، كونها من ذوات الفتنة
التي شغلت تفكيرهم طويلا.

على هذا الأساس تداول ستيفن الفكرة مع رفاقه تحت وقع
الكراهية والعبثية التي يتحلون بها، أتفقوا على تنفيذ المهمة في
وضع النهار لإبعاد الشك عنهم، خاصة مسألة تنكرهم بالزي
العربي أوجز لهم احتمالية المجازفة.

لكن الله أراد أن تكون لها من يدافع عنها من أنفسهم، حين
وصلت الحالة النفسية لأحدهم إلى حالة تعقيد لا تحتمل، نتيجة

الظلم الذي مارسوه تجاه عائلة قاسم الجنابي وابنتهم عبير دون
ذنب، لم يحتمل إخفاء سر الجريمة في صدره، ليكشف سر
ستيفن غرين ورفاقه إلى الصحف وعلى الملأ.

2007/03/12

الأثنين

5 - الانتماء لفصائل المقاومة

بقيت مطارق الصدمة تطرق رأس أحمد وعمه، بحيث لم يجدا مخرجا من الفوضى التي أحاطت بهم، حالتها المأساوية جعلت فكرة الانتقام تختمر في أذهانهم مع تعاونهم اللصيق بأبناء القرية، لقد أنتقل عبد الهادي بأحمد من مرحلة الطوفان لمرحلة الصبر والسكينة والتخطيط، لمرحلة العودة والرجولة والإيباء والثأر، لمرحلة التريث والتخطيط والبحث عن شفرات فك عقد الحياة، لمرحلة الانتماء لفصائل المقاومة حتى أوصله لمرحلة البأس والثأر، فاستطرد معه قائلا له:.....

- يا بني هدي من روعك، أصبر صبر الجمل، كي نأخذ بثأرنا، نحن الضعفاء وهم الأقوياء، ليشدت عضدنا يجب أن نستند على جدار قوي، إلى قوة جبارة تحيل ضعفنا لقوة. ما نجاك الله من المأزق إلا لحكمة أرادها، هذه الدنيا لهو ولعب وتخطيط لنترك بعدنا رسالة للغير، الإنسان محكوم بزمن لينتقي أعماله، دعنا نخطط بعناية لأخذ الثأر، عليك أن تصبر، لا تنتهز، لا تتصرف دون مشورتي قط، المقاومة دائمة في كل أرجاء البلد، وسنكون جزءا من رجالها. الخونة منتشرين هنا وهناك ويزداد عددهم يوما بعد يوم بسبب تدخل الدول الخارجية وضعف الحالة المادية، قسما منهم يتبعون المادة، وآخرون يبحثون عن المناصب وقسم منهم يتبعون الثغرات لتقوية مراكزهم بمساندة المحتل. لا تدع فرصة الثأر تضيع من أيدينا.

بقي أحمد مشغول البال بعيدا كل البعد عن مجرى الحياة، كان أشبه بزهرة شائكة نابتة في أرض جريد، لا يبغي رفقة أحد ولا صحبة أحد بعد أن سودت الدنيا في عينه، منطويا على نفسه، كتوما، يصطلي بنار الثأر المتأججة في داخله، أضحي الحزن وشاح صمت يغشي ملامحه، فيما لطى القهر يتقد كجمر أرجيلة مع أنفاسه، بينما البغض المراء في حلق عينيه يبدو جيشا من الغل يتحرك في فكره، كدودة الأرضة وهي تنخر جذع قوامه الطري. فالزمن العابر فوق زمنه زمن أغبر، ما هو إلا جدل يقين يدفع به إلى شاطئ النار، بدل أن يهب ذاته للدراسة والتعليم، لذا تهجس به ينحدر نحو جدلية العنف بفكره وقراره الصائب، كسيل فيض من الثأر الرادع يصب في بوتقة العقد الشائكة. بتلك العزيمة وجد ذاته يرتفع فوق منصات التتويج كبطل اسطوري بعد أن ركب ذاته وأنتفض على الوجد النفسي الذي كبله.

كان لابد له من خلع كعب حذائه في الطرق الغير سوية، ليدرك هدفه بالسرعة المطلوبة، ليستطيع أن يركض في ميدان الجري بسرعة الحدث قبل أن تحل عتمة المساء. كان عليه أن يرتدي قفازات صمت ورداء غسق في كل مشاويره، أن ينتعل الدهمة في قدميه وخلال تعاملاته، أن يتبجح بالقسوة في مجاملاته ومعاملاته التالية.

في تلك الفترة دخل في فيض الشخصية الجديدة، دخل من كوة اليقين وثلم الصبر كنمر أرقط يبحث عن ذاته بأفتراس العدو قبل أن يفترس. كان لابد من حزم يرتديه، وحزام يستعين به،

وطوق يؤازره وينجيه... وكان له ما اراد، حين وجد في آيات الله خير معين يحثه على الانتقام وأخذ ثأر عائلته، "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ" صدق الله العظيم. ووجد في فصائل المقاومة خير حزام يتحزم بها لإدراك غايته.

من وحل العذاب والحنق المترسبة على قلبه، رسم شخصيته الجديدة بمعاونة عمه الذي كان هو الآخر قد غير من نمط سلوكه ونظرته للمجتمع، فأرتبط بعمه الذي قاده لنقطة التحدي، لبرج المراقبة والذي من خلاله صار يفهم محيطه ويفسر ما يحيطه من ظرف وقدر ومجاعة، أضحى تحت وقع الوصايا والصدمة سيفاً بتاراً لا يهان، زاده انطاوية وصرامة وجلد في السلوك والتعامل مع واقعه في مقارعة جنود العدو..

العبس الذي ركبه والجهم الماثل في ملامح وجهه، بذلك القطوب من لون الغضب المتوشم به؛ بان كنمر مكفهر الوجه لن يقف أمامه المستحيل، أضحى رصاصة انتقام لا ترحم، صار جليداً، مرارة العلقم ترسبت فوق اللسان، بوئس أعتم كتم الأنفاس.

لنظرة أبو مريم دور في تأجيج النار داخل صدره، حين أصر أن يُريه واقع الجريمة بألم عينه، فتلك الصور البشعة لم تفارق مخيلته قط، تراءت بمخيلته كتلفاز يعيد المشاهد بتكرار.... ما أن ينسى حتى يتذكر الواقعة فيصمت على تلك النقطة دون أن

ينبس بشفة، ينظر إلى ما قبل الجريمة وما بعدها بعين النسر المنتقم. اضحت الحالة روتينية تنقله بين أدراج الزمن الغابر والحاضر، ذلك الذي حال أجواء حياته وأيامه ليوم اسحم، مغبر، ضبابي طوال الفترة التي تلت الجريمة.

الحالة تكاد تكون طبيعة إذا ما أخذنا حجم المأساة التي تعرض لها بعمره الفتى، والحالة لشدة ضبابيها غطت على نفسه وفكره بهالة السخط والعذاب، بشيء من الغل المر الذي عاشه، لذا من الطبيعي أن يكثر، أن يدخل في لب العُقد. ولا بد من زمن يشطف مرارة العقدة المصقة بحياته، كي يستطيع إيجاد فسحة زمن يتحرك بها في مقارعة العدو.

بمقتل ذويه كانت قد توقفت روافد فكره، دمرت أعمدة طموحاته وأحلامه، لم تعد هناك رغبة له بقراءة مسلة الحياة، سوى التمسك بفكرة الانتقام تلك التي دكن لونها كثيرا قياسا لباقي خطوط حياته، والتي أضحت معلقة في سقف قراراته القادمة.

أغلقت نوافذ الصبر أمامه تماما، تعلم استخدام السلاح بكل أنواعها الخفيفة، لم يعد يسمع لدندنة العقل ولا لنغمة الحياة ترنيمة القلب، بعد أن نزع العقل والقلب من الجسد، لم يبق أمامه سوى منفذ ضيق يوصله لنهاية الطريق، لم يبق إلا منفذ الانتقام، مسرب مفتوح رغم ضيقه وطول نفقه، فح ينسيه وجعه بعد أن وجد ذاته لا تستطيع أن تنسى الجريمة وتتجاوز الأزمة.

تناءى عن الأنظار متمسكا بوصية عمه وجارهم أبو مريم، صار لا يظهر إلا في أوقات الغروب، في ظل الغموض والحلكة، لتسيير أمره أو لقضاء حاجة ما من هذا القبيل.. هؤلاء قلة من الشبان ورهط من أهل القرية كانوا قد ارتبطوا به وتواصلوا معه، كأبو مريم وصالح وحازم وأسعد صديق طفولته الذي هو الآخر قد أنتمى لصفوف المقاومة إلى جانب صالح وثامر رغم صغر سنه.

ظلت اتصالاته محدودة، محصورة بين عناصر المقاومة المرابطة في الدورة وشلة من أبناء القرية المقربين من رجال المقاومة في اليوسفية والمحمودية. ارتبط ارتباطا قويا بمسؤوليه، بالسيد طارق والسيد علي، المسؤولين عن العمليات السرية التي تقوم بها القوة التي أنتمى لها برفقة عمه.

كان لاختفائه وتحجبه عن الأنظار دلالة حافظ عليها، سار خلالها إلى جانب الحذر كالظل لا يهمس ولا يחדش حد، خوفا من تعقب جنود المارينز له والتتكيل به، هؤلاء الذين يبحثون عن الذرائع لطمس آثار جريمتهم. ولتجنب وشاية الأحزاب القذرة التي حلت بعد الاحتلال، والمتحزمة بالتملق والاذلال للغاصب وبالنفاق والكذب على الشعب.

مع مرور الأيام استعاد رباط جأشه، بات ينظر لما خلف الجدار الموضوع أمامه، متفهما أمور الناس ودوافع سلوكهم العبثي نتيجة أثار الحصار الذي لازال قائما والذي ترك بصمة واضحة في أذهان هؤلاء البشر. مما ولد في عقولهم كراهية

وضغينة مفعمة بالحق قد تجاه النظام السابق الذي ماطل في تحديه للقوى العظمى، إضافة لرياح الفتنة التي بدأ عصفها يؤثر في طوائف الشعب.

فيما كان رهط من العامة قد تمكنوا من أن ينفذوا من جدران الوطن الذي أصبح بمحيطه سجن عذابٍ لهم، بحثًا عن صرة أمان بين ثنايا الذل والهوان خارج حدوده. فيما بقيت الفوضى تشتد وتيرها و عنفها يوما بعد يوم.

صار يفسر الأمور بمنطق الظرف، ولصالح العامة، صار يشخص الصح من الخطأ في مسيرة حياته. تعلم الجد والجدد وتفهم الصبر والمثابرة، تعلم الأناة والترقب، أدرك الحكمة والموعظة، غدى ثعلبا في طبعه ونمرا في شراسته وحماسة في سلوكه. تفهم الغاية، تحزم بالوسيلة، أضحى ذلك مبدأه في تعامله مع قتلة أهله.. لقد عالج نقاط ضعفه بالممكن، أستاذ على رفاقه، أخذ العزم من عمه ومن بعض رجالات قريته الذين اشتركوا معه بالنيل من قتلة أهله وأخذ الثأر منهم بهجماتهم المتكررة على نقاط التفتيش.

صارت الوشائج أكثر حميمية بين رجالات القرية بعد اجتماع سقيفة العم جبار، لقد توحد الجهد والهدف لطرد المحتل والتخطيط بأخذ ثأر عبيير منهم. وخاصة الانتقام من الزمرة المجرمة التي أودت بحياة عائلة قاسم، تلك التي صارت تنال الضربات اليومية، وكأنهم بفعلتهم الخبيثة قد جنوا على أنفسهم.

كان عمه هادي قد خصص غرفة مستقلة لأحمد ومحمد في بيته، وذلك لعدم الضغط عليهم من قبل أولاده، وكان أحمد قد صار ملتزماً بتعاليم عمه، لا يتخطى حدوده إلا بإشارة منه أو من مرؤوسيه، فيما بقي يلتقي بأبو مريم وصالح بين فترات متباعدة، لغرض التنسيق والاشتراك معهم في ضرب نقطة التفتيش وأينما وجد المحتل. حينها كانت قد تأسست فرقة عبيد داخل القرية بقيادة أبو مريم بعد اجتماع السقيفة، وقد أنتمى إليها معظم شباب القرية تحت إشراف صالح وثمر، وقد ارتبطت مباشرة بفرقة الدورة عن طريق أحمد وعمه.

هذا التعاون ولد حالة إيجابية من فرز النتائج الإيجابية على صعيد العمليات المشتركة المنفذة ضد جنود الاحتلال في مواقع عدة.

كانت المقاومة تطلق على نفسها أسماء عدة معظمها وهمية، لتوهم العدو بكثرة خلاياها، حيث لا يهم الاسم إنما تنفيذ المهام وإيذاء العدو بالقدر الممكن، هكذا صارت شعارات الفصائل على اختلافها متعاونة فيما بينها بالمعلومات والقوة والسلاح والعمل المشترك على ردع المحتل.

كل الطرق أضحت متاحة أمامهم - زرع العبوات الناسفة في الطرق، تفخيخ العجلات وزرعها في أماكن تواجد جنود المارينز، استخدام عمليات الخطف والقتل، استخدام الأحزمة الناسفة، المواجهة القتالية المباشرة إذا ما تطلب الأمر، استخدام القنص عن بعد، ضربهم بقنابل الهواوين الثقيلة

والخفيفة...الخ من عمليات ولدت بالفطرة مع استمرار تحدي الظرف المستجد وتقلبات الموقف.

قبل أن يشترك بالواجهات كان قد تدرب جيدا على استخدام الأسلحة والمناورة وطريقة قذف قنابل الرمان خلال انخراطه مع المقاومين في تنفيذ بعض المهام ليثبت قلبه ويشدد عضده...

صار يعمل مع عمه تحت أشرف المدعو السيد علي، وهي أسماء وهمية وحركية لضابط كانوا قد أحيلوا عن الخدمة بعد أن حل الجيش بقرار من الحاكم الأمريكي المؤقت برايمر.

هؤلاء الضباط وجدوا أنفسهم فجأة في تيه من امرهم، وضعوا على حين غفلة بين المطرقة والسندان خالين الوفاض من كل دخل ومسؤولية، دون عمل يوفر عليهم لقمة العيش، دون رزق يرشدهم إلى الاعتدال، دون معين يؤازرهم، دون تقاعد يقتاتون منه.. حالة مرضية شملت شريحة واسعة من السلك العسكري، لذا برفقتهم كونوا مع زمر أخرى قوة ردع جبارة، سرعان ما نمت بعد انتماء لفيف من هؤلاء الشبان الوطنيين لصفوف المقاومة، مستفيدين من ترسانة الأسلحة التي تركها جيش النظام السابق بعد حله، فصار السلاح عرضة للنهب والسرقة، حتى صار يباع ويشترى في الأسواق، وقد اطلق حينها على بغداد أسم تكساس، كناية بتفشي السلاح والفوضى داخل تكساس الأمريكية..

كان السيد علي قد وضع تحت يده مخزن يحتوي على جميع صنوف الأسلحة الخفيفة من قاذفات ورشاشات وقنابل يدوية

وذخائر هواوين...الخ، نقلها بسرية مع رفاقه لمكان آمن، صار يستند على مخزونه في تنفيذ مخططاته بالتعاون مع عناصر المقاومة في بغداد وعلى محيط الحزام الاخضر المحيط ببغداد....

لذا كانت هذه المقاومة توهم السلطة الكارتونية والمحتل بعد كل عملية تنفذها، بوضع إشارة تدل على انتمائهم لحركة ما جديدة، استخدمت أسماء متعددة شتى مطروحة على الساحة ليست لها علاقة بالحدث، كالقاعدة وجيش محمد وجيش عمر وجيش الحسين وقوة الفتح والنقشبندية.وووو ... الخ، لما لهذه الأسماء من وقع سيء على قلوب جنود المارينز، وكان لشعار الله وأكبر وحده الوقع السيء الأعظم عليهم لما فيه من رهبة يرعبهم ويشنت صفوفهم.

فيما الجريمة بقيت في أذهان الناس كبرج عال بين الأحداث ينظر إليه الجميع بأسف وهم يرون الدخان ينفذ من قمته، ظلت الحالة تذكر العراقيين بالواقعة وتسأل أهل العزم عن طريقة الثأر، مثلما القرية دشنت ذاتها باليقين صوب الثأر والحدث، دشنت بقيت المدن السنية ذاتها بنفس المنظور، بقيت عبير ماثلة في اذهان ابنائها، حثت رجالاتها على أخذ المبادرة بالشدّة والقسوة والإيذاء وعِرَّةِ النَّفْسِ وَالْأَنْفَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالنَّظْرَةَ الْجَامِدَةَ صوب الهدف، والإيذاء بالثأر من كل جندي يطوف في شوارع الوطن.

هكذا اجتمعوا على ردع المحتل الغاصب ردا على ما اقترفت أياديهم القذرة من جرم بحق عائلة الجنابي، وخوفا من تمادي تكرار الجريمة بحق عوائل أخرى. صار الجمع في القرية يتحد تحت أشرف أبو مريم ونصائح العم جبار، وتحت فصائل الثأر في أنحاء الوطن...

وقد جاءت النتائج بعد ذلك من خلال محاولاتهم العديدة في تدمير نقطة الحراسة، حتى أجبروهم على أخلاء الموقع وتركه، كانوا قد دمروا لهم همرين وأصابوا الثكنة بخسائر جسيمة، إضافة إلى غارات ليلة صارت تشن على النقطة حتى جعلوهم يكرهون يومهم وحظهم العاثر، نخروا الموقع نخرا، كانت الهجمات تشن على نقطة التفتيش من مواقع شتى لتشتيت فكر العدو.

اشترك أحمد وأسعد في ضربهم مرارا، فكانا كالنمور الجامحة في عصفهم وهجماتهم، وقد أبلى أسعد بلاء حسنا في المقاومة وكأنه كان يبحث عن وجه عير بين تلك الرصاصات التي كان يطلقها بغل تجاه العدو، كان يأخذ العزم من روحها وسحرها، مع كل غارة كان يراها تبتسم وتكرر له عبر أصوات الاطلاقات، تشجعه على دحر الغاصب ليستاف منهم مع كل رشقة يطلقها، حتى أنه صار لا يتأخر عن العمليات التي تشن ضد نقطة التفتيش أو خلال تتبعهم دوريات العدو في المحمودية أو في الارياف والقرى المجاورة.

كما أشارك أحمد بعشرات العمليات المؤثرة على مدار سنة كاملة في داخل بغداد وحزامها، تمكن من تفجير همر بقذيفة آر بي جي سفن، كما أقتنص اثنين من المارينز في منطقة الدورة، اشترك في مواجهات شرسة بضرب نقطة التفتيش في قريرتهم مع أسعد وأبو مريم، كما فجر عبوة ناسفة تحت عجلة دورية للمارينز في أطراف منطقة السيدة.

كان لا بد من انتحاره، كان قد عاش فترة أيام عصيبة، أيام صراع نفسي مقيتة مع ذاته والقدر، بقي يراقب الأحداث من زوايا شتى في ظل نار أزلية من العذاب تتقد داخله، أحالت شبابه ومشاعره وأحلامه لهشاشة ليس ذات قيمة، لرماد منثور في مسرى حياته الوحمة، نقلته لعالم غير محسوس، لعالم غير عالمه الذي كان قد تأمله بفكره وظنه. لقد تحول لهيكل أجرد خال من كل شيء سوى الروح التي ظلت متشبثة بالثأر، تحول لإنسان عجف بعد أن نشفت البسمة والضحكة من على شفاذه وجدرا ن مستقبه. تبخرت احلامه وتأملاته اتجاه أخته عبير، الفاجعة جعلته أصم، أعمى، في واقع ذاته، حولته لمقاتل شرس لا يلين.

في كل المحاولات التي أشارك فيها كان يندفع بضراوة باحثا عن الشهادة، لذا كانت شراسته ضربا من الخيال، لم يهاب الموت قط، فالحياة أضحت عنده مجرد وسيلة وفرصة للانتقام، سوى تأريخ يحتدم، يحترق أمام عينه، أيام متدرجة في لوح الزمن، يبحث بين ثناياها عن الهدف.

مع مرور الأيام صار لا يطيق صبره، اشتدت عليه الوحدة والبؤس والحسرة والضياح بظل فراق أهله، خاصة في فترات الليل حين يركن للسكون تحت قرقعة الوسائس والكوابيس التي لم تفارق ذهنه قط، وبالذات في الفترات التي بها يكون وحيداً، صاغراً لمشاعره، يحسس بالتوحد الذي بات يأكل بدنه، هاجساً بالضياح بعد فقدان عائلته..

خلال العمليات التي امتدت لمدة ثمانية أشهر من الشدة والتحدى، تمكنت قوة من المارينز من قنص ثامر وأسد في معركة المواجهة التي حدثت على أطراف مدينة المحمودية، ذلك ما ترك أثراً بليغاً في نفس أحمد. حينها لم يصبر على فراق أهله وصديقه الذي سبقه بالشهادة، فقرر إنهاء حياته بعملية انتحارية.. كان قد جهز نفسه بحزام ناسف، فجر ذاته على تجمع للمارينز قرب مرأب العلاوي في وسط بغداد بعد مرور سنة من واقع الجريمة بحق أخته، في يوم 12 / 3 / 2007 المصادف يوم الاثنين وفي تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً وقت تنفيذ المجرمين جريمتهم بأهله، قرر إنهاء حياته في جمع من جنود المارينز. ليرفق ذاته شهيداً في ذكرى استشهاد أهله بعد أن بلغ سن الثامنة عشرة سنة من العمر، لينقل لذويه خبر أخذ الثأر، لينقل معه أربعة من جنود المارينز لدار الفناء ويعيق اثنين آخرين بإعاقة مستديمة متفاوتة، بذلك دخل برفقة أهله لجنت الخلد شهيداً بعد أن ثار لهم..

لقد أنهى حياته بلمسة ثأر رائعة، جسدت معنى الثأر في القاموس العربي، أعطى لهم دلالة على أن دم الأبرياء لن يضيع سدى.. بذلك بصق في وجه المحتل، وبصم في سجل الوطنية بدمه الزاكي الطاهر، ردا على استهتار المحتل بأرضه وعرضه وعائلته، وقبل توجهه لوضع حدا لحياته كان قد احتضن أخوه محمد وقرأ في ذهنه فكرة الثأر من قتلة أهله، وطلب منه حين يشتد عضده أن يبطش بهم بطش الجبارين...

فكان انتحاره تصديقا لقوله تعالى { واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم } صدق الله العظيم، أنا لله وأنا إليه راجعون.

لقد غادر بصمت تاركا أثره في نفوس معارفه.

بعد استشهاده مباشرة أبدلت القرية رايات النكسة السوداء التي تعتلي السطوح برايات بيضاء ظلت ترفرف عاليا فوق أسطح المنازل، كدلالة على أخذ الثأر من العدو، وكدلالة على شجاعة أبנם البار أحمد. فيما رسخت الجريمة في ذاكرة العراقيين لتزيدهم بغضا وكراهية لكل أجنبي محتل يدور في ركب البلد...

كان الله لهم بالمرصاد، فهو يمهل ولا يهمل...

فلم تمضي على القضية مدة طويلة؛ حتى أقر أحد الجناة بفعله الخسيس للصحافة الأمريكية كشاهد عيان من صلب المجرمين بقضية عبير، كان قد بقي طوال تلك الفترة يعيش صراعا

داخليا لا يحتمل عصفه، فلم يهدأ حتى ذكر تفاصيل القضية لصحفي يعمل في جريدة الواشنطن بوست، وبذلك أوقع بزمرة التي اعترفت بكامل تفاصيل الجريمة فيما بعد...

كان ذلك الجندي قد استعاد وعيه بعد أن تبخرت من رأسه آثار السكر، صحى ضميره وتحكمت به مشاعره.

ما كان قد حصل يعتبر خارج الأعراف الإنسانية والأخلاقية وقواعد الحروب والشرائع السماوية والبشرية والتي سننتها الأمم المتحدة، فهذه الحالات لا تجدها إلا عند الوحوش من المستعمرين الذين يفصلون القواعد والقوانين على أفعالهم ونياتهم السوداء، هذا بالضبط ما جرى في الجزائر من قبل المحتل الفرنسي وما حصل في ليبيا من قبل الايطاليين وما يجري في فلسطين من قبل الغاصب المحتل الصهيوني ضد شعب بريء أعزل وتحت حماية وذرائع الدفاع عن النفس التي تسن قواعدها امريكا وبريطانيا ومن لف لفهم لحماية اسرائيل.

حل صدى خبر الانتحار الذي قام به أحمد بصخب في الصحافة المحلية والعالمية، هز أرجاء البيت الأبيض والإذاعات والتلفزة، بيّن الحقيقة الغافية لعجرفة الاحتلال والظلم الواقع على الناس العزل.. بيّن التناقض الدائر خلف الكواليس والإعلام المغرض للمحتل، كأنّ الصحفي بعمله هذا قد كشف لشعوب العالم عن زيف أعلام الدولة الأمريكية، كمن رفع طبق الغطاء عن برميل القذارة، فأزفت الأنوف تزكم بنتن المكنون من عفن وتفسخ الدائر في فكر وقرارات الجلاذ

الأمريكي، وبما يدور في أذهان وعقول قيادات الحرب المتجبرة المتاجرة بدماء العراقيين، وسلوك جنودهم وضباطهم الغير مقبولة.

وعلى رغم من تلك الوقائع المخيبة؛ لم يصدر عن أركان السلطة في العراق أية إدانة واضحة تنصف الأبرياء والشهداء الذين سقطوا ضحية عجرفة سلوك جنود الاحتلال. بقيت الأفواه مكتومة، فاهية، خاوية، ترتسم عليها ابتسامة صفراء مصطنعة لا تقنع بها سوى ذاتها وكراسيها، تلك القوى تراها خجلة من ذاتها، كالمومس التي تراعي أدواق الجميع.

لقد بررت القيادة الأمريكية الحدث بأن العملية لم تكن سوى دفاعا عن النفس، ولكن الحقيقة التي كشفها الصحفي بينت زيف ادعاءات القيادة الامريكية فيما بعد.

..فعلا عملية احتلال العراق كانت ولم تزل أكبر مهزلة بالتاريخ، سرقوا البنوك والآثار والنفط والتاريخ أضافة لقتل وتشريد الملايين من العراقيين، وكأنّ الدم العراقي النقي هو أرخص ثمن بالمقارنة مع الدم الأمريكي الفاسد .

لا توجد عدالة حقيقية في هذا الكون، دائما ما يميل الحق لجانب القوي، نحن نعيش في غابة مجردة من الشرائع والعدالة.. من يستطيع أن يتهم الأسد بالوحشية؟ لذا لم تثر المسألة الغبرة سوى بوجه الحمل العراقي، والعربي الشريف، والإنسانية المتضععة .

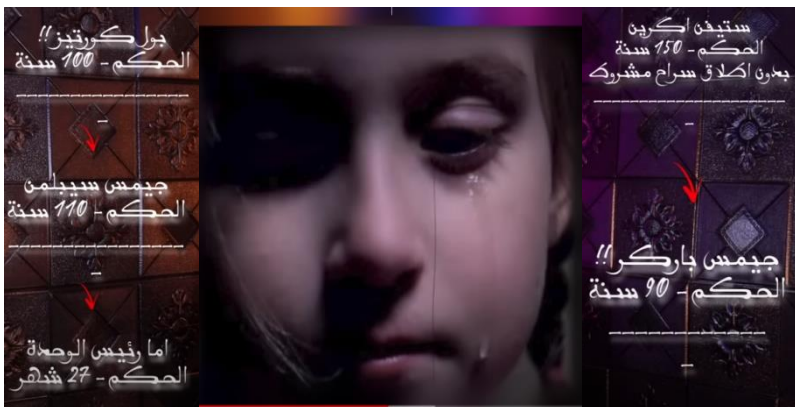
احتلال العراق هو جزء من قصة مفبركة، مفتعلة، صيغت على ضوء أحداث 11 سبتمبر أعترف بها الامريكان فيما بعد، تلك التي أطاحت بأبراج التجارة العالمية في نيويورك بعمل مدسوس ومدروس خطط له من قبل الصهيونية العالمية بالتعاون مع البيت الأسود الأمريكي.

العراقيون يدركون أنها حجة باطلة وواهية لا أساس لها من الصحة، والعالم كله يدرك ذلك! لكنه أخرس أمام السطوة الأمريكية، والنية المبيتة التي جاءونا بها، تحت زيف مظلة الأمم المتحدة التي يسيطرون على قراراتها، لغرض ما في نفس يعقوب.

الجنود المتهمون في القضية هم؛ بول كورتيز، جيسي سبيلمان وجيمس باركر وستيفن جرين وبريان هوارد. وهم جميعاً من أفراد الفرقة 101 المنقولة جواً التي تتخذ من معسكر فورت كامبل مقراً لها..... وجهت اتهامات للجنود الخمسة، وقد حكم على أربعة منهم بالسجن، حكم على جيسي سبيلمان بالسجن لمدة 110 عاماً وحكم على بول كورتيز بالسجن 100 عام بعد تجنبه عقوبة الإعدام بسبب إقراره بارتكاب الجريمة. كما حكم على جيمس باركر بالسجن 90 عاماً، فيما واجه الخامس وهو ستيفن غرين حكماً بالإعدام. ولكن في 19 فبراير 2014 تم العثور على ستيفن غرين منتحراً في زنارته في أمريكا –

هذه إحدى جرائم الاحتلال العديدة التي نفذها في العراق،
والتي ستبقى عار في جبينهم وجبين من تواطئ معهم من الذين
جاءوا على ظهر دبابات المحتل إلى يوم الدين.

وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُومُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢ البقرة)
صدق الله العظيم.



محاكمة الجناة

النهاية

مجموعة الروايات:-

- 1- عطر خلف الستار
- 2- فتاة الكاظمية
- 3- جنوح النفس
- 4- عبير
- 5- شذرة العقد
- 6- طريق الجحيم
- 7- غراب البين
- 8- عقاب الذات
- 9- الإقداح المتكسرة
- 10- عواصف الجنين
- 11- فواصل الشوق
- 12- حين اتقدت الرافعة
- 13- الرؤيا

للكتاب عشرات الكتب بين رواية
ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرستال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني



كانت عبير قد عادت للبيت من بيت صديقتها مريم مع تخاطر الود
بين الشمس والأرض ، عادت بروح ترفة مفعمة بالحب والأمل
بعد أن هامت بصحبة حميمية مع رفيقتها. عادت بروح مفعمة
بالنشاط، بعد أن تكبلت راحتها بهاجس الخجل والاحترام.. حيث
الفرد لن يجد راحته إلا في بيته... فيما سبق كانت أمي تردد
العبارة التالية كلما ود أخى زيارتها بيته، حيث تقول (بيت الله بعد
بيتي لا والله) أي لا تفضل بيت الله بعد بيتها وهذا هو ما يجول في
خاطر العراقي دلالة على عزته وكرامته..... عادت بعين غارقة
بمستنقع الحلم الذي راودها، والذي أضناها بحر من التفسير.
عادت ناهدة، فواحة، بإشرقة وجهها الباسم مع ترائيل غزل
الصباح للورود البهيجة، لتكحل بها عين أمها بالأمان بعد أن
تفوقعت بالشجن.